

جامعة مؤتة
عمادة الدراسات العليا

ديوان الإنشاء الفاطمي بمصر وجهوده الكتابية
358هـ - 568هـ
968م - 1172م

إعداد الطالب
سمير عبدالوهاب عبدربه العساسفة الحباشنة

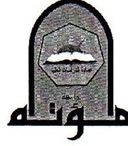
إشراف
الأستاذ الدكتور سمير محمود الدروبي

رسالة مقدمة إلى عمادة الدراسات العليا استكمالا
لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه
في الأدب قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة مؤتة، 2007

الآراء الواردة في الرسالة الجامعية لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر جامعة مؤتة

بسم الله الرحمن الرحيم



جامعة مؤتة

عمادة الدراسات العليا

MUTAH UNIVERSITY

Deanship of Graduate Studies

نموذج رقم (14)

إجازة رسالة جامعية

تقرر إجازة الرسالة المقدمة من الطالب سمير عبدالوهاب العساسفة الموسومة بــ:

ديوان الإنشاء الفاطمي بمصر وجهوده الكتابية

358هــ-568هــ /968م-1172م

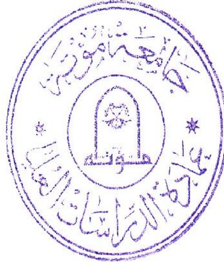
استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه في **اللغة العربية.**

القسم: اللغة العربية.

	التوقيع	التاريخ	
أ.د. سمير محمود الدروبي		2007/4/22	مشرفاً ورئيسا
أ.د. أنور عليان أبو سويلم		2007/4/22	عضواً
أ.د. ماجد ياسين الجعافرة		2007/4/22	عضواً
د. فايز عبد النبي القيسي		2007/4/22	عضواً

عميد الدراسات العليا

أ.د. حسام الدين المبيضين



مؤته – الكرك – الاردن

الرمز البريدي :61710

تلفون :99-03/2372380

فرعي 5328-5330

فاكس 03/2 375694

البريد الالكتروني

الصفحة الالكترونية

MUTAH-KARAK-JORDAN

Postal Code: 61710

TEL :03/2372380-99

Ext. 5328-5330

FAX:03/ 2375694

e-mail: dgs@mutah.edu.jo sedgs@mutah.edu.jo

http://www.mutah.edu.jo/gradest/derasat.htm

الإهـــــــداء

إلى من ربياني صغيراً والدي ووالدتي.
إلى من وقفت إلى جانبي وشريكة حياتي الزوجة الوفية أم جهاد.
إلى أحبائي، جهاد وآلاء وإسراء ومجاهد وحمزة وزيد وعمرو ومنى.

أهدي هذا العمل

سمير الحباشنة

الشكر والتقدير

الشكر لله تعالى الذي أعانني على كتابة هذا المبحث ثم الشكر متواصلاً إلى جامعة مؤتة التي أتاحت لي الفرصة لتكملة دراستي فيها وبارك الله في القائمين عليها، وأخص بالشكر والعرفان الأستاذ الدكتور سمير محمود الدروبي الذي قبل الإشراف على رسالتي وعلى ملاحظاته وإرشاداته القيمة وإلى أعضاء اللجنة المناقشة الأستاذ الدكتور أنور أبو سويلم ، والأستاذ الدكتور ماجد الجعافرة، والأستاذ الدكتور فايز القيسي وإلى أخي الأستاذ الدكتور محمود صالح جابر على مواقفه النبيلة معي. وإلى موظفي مكتبة جامعة مؤتة على حسن تعاونهم.

سمير الحباشنة

قائمة المحتويات

ملخص

ديوان الإنشاء في العصر الفاطمي

سمير عبدالوهاب الحباشنة

جامعة مؤتة، 2007

اعتنى الفاطميون بديوان الإنشاء عناية عظمية، وأولوه المكانة والمنزلة التي تليق به، وأراد الفاطميون من ذلك منافسة العباسين في مؤسساتهم الكتابية، فجاء ديوان الإنشاء محققا لهذه الغاية فزاد اهتمام الخلفاء والأمراء والوزراء بهذا الديوان، واتخذوه وسيلة لرفعة قدرهم ونشر ذكرهم في الآفاق ذلك إن كتّابه كانوا يشيدون بمجدهم فيما يكتبون من رسائل وتوقيعات وسجلات، وبيعات ومناشير ...الخ.

فزرعوا في قلوب شعبهم إجلالهم وتقديسهم، ونشروا أسماءهم محاطة بهالة من التعظيم.

تحدثت في المقدمة عن نسب الفاطميين والحالة السياسية والثقافية والاجتماعية قبل مجئ الفاطميين إلى مصر.

وفي الفصل الأول، تطرقت فيه إلى ديوان الإنشاء الفاطمي بـ مصر وجهوده الكتابية.

وفي الفصل الثاني، تعرفنا على شروط الكتاب وصفاتهم في ديوان الإنشاء الفاطمي.

وفي الفصل الثالث تطرقت إلى الجهود الكتابية لديوان الإنشاء وما صدر عنه من مكاتبات.

وفي الفصل الرابع فتحدَّثت فيه عن الأساليب والخصائص الفنية لديوان الإنشاء الفاطمي.

وفي الفصل الخامس تعرَّفت على بعض مشاهير كتاب ديوان الإنشاء في العصر الفاطمي.

Abstract

Fattemd Chancellery of composition

Sameer Abd-Alwhab Al-Habashneh

Mu'tah University, 2007

Fattemeans have paid great attention to Chancellery of state of composition and gave it the status which it deserves. They wanted to make a competition with Al A'basean in their writing institutions, so this Chancellery of state has achieved what they wanted. Since that time, Caliphs, princes, and ministers increased their concern with this Chancellry of state , and took it as a way to raise their reputation in horizons. Writers of Chancellery of state ,when they were writing letters, signatures, records, and leaflets……etc, used to be praised themselves and made common people to respect them, also they surrounded their names with greatness.

In the introduction I talked about Fattemed lineage and political, cultural, and social status before the Fattemed coming to Egypt. In chapter one I dealt with the beginning of the Fattemed Chancellery of state of composition; chapter two includes the conditions and characteristics of the Chancellery of state 's writers; The third chapter discussed the Chancellery of state 's efforts in writing and publishes. in chapter four I talked about the methods and artistic characteristics of the Fattemed composition Chancellery of state . Finally, chapter five contains progropheis of the most famous writers of the Chancellery of state in Fattemed period.

الفصل الأول
ديوان الإنشاء الفاطمي بمصر وجهوده الكتابية
(358هـ/968م) - (568هـ/1172م)

1.1 المقدمـــة

عنيت الدولة الفاطمية بديوان الإنشاء عناية كبرى ، واتخذتــه وســيلة لرفعــة قدرها ونشر ذكرها في الآفاق ذلك أن كتابه يشيدون بمجد الفاطميين فيما يكتبــون من رسائل وغيرها ، فيبثون في قلوب الشعب إجلالهم وتقديسهم، كما ينشرون اسمهم محاطاً بهالة من التعظيم في أنحاء العالم ،ولهذا كان لا يرأس هذا الديوان إلاّ أجــل كتاب البلاغة، ويخاطب بالشيخ الأجل ويدعى، بكاتب الدست.

وعدّت الدولة الفاطمية ديوان الإنشاء مظهراً من مظاهر الاستقرار والأصـــالة السياسية والإدارية والعلمية . ذلك أن هذا الديوان قد تركزت فيه بحق كــل صـــور البراعة الدبلوماسية، والمهارة السياسية والحنكة الإدارية، والقدرة البلاغية والثقافــة العلمية فهو أشبه بوزارة الخارجية في وقتنا الحاضر ، فمنــه تصـــدر المراســـلات الرسمية الخارجية من حكام مصر الفاطمية إلى غيرهم من الحكام المسلمين وغيـــر المسلمين ويشرف رئيسه على المفاوضات المتعلقة بأمور داخلية أو خارجية ، ثـــم يسجلها كما يسجل المعاهدات والمهادنات بين حكام مصر وغيرهم وفوق ذلك كان ديوان الإنشاء منسق للإدارة الداخلية، لأن جميع المراسلات ترد عليه من مختلــف نواحي الدولة فيقرأها رئيسه أو مساعدوه ، ويوزعون نسخاً عنها إلى جميع الجهـــات المختصة بعد إيداع النسخ الأصلية في أماكن حفظها الخاصة.

وقد مرّ ديوان الإنشاء في مصر بعدة مراحل متتابعة:

الأولى: منذ الفتح الإسلامي إلى بداية الدولة الطولونية.

الثانية: من بداية الدولة الطولونية إلى نهاية الدولة الإخشيدية.

الثالثة: من بداية الدولة الفاطمية إلى انقراض هذه الدولة.

الرابعة: من قيام الدولة الأيوبية إلى نهايتها.

الخامسة: من قيام دولة المماليك حتى سقوطها على يد الأتراك العثمانيين.

وقد قامت الخلافة الفاطمية لتنافس الخلافة العباسية ،وتحاول القضاء عليها، وكان بين الخلافتين صراعٌ عنيفٌ استعمل فيه كل سلاح ممكن، ومن الأسلحة التي استعان بها الفاطميون وبرعوا فيها سلاح العلم والأدب والثقافة ، إذ أن مذهبهم الشيعي الذي يخالف المذهب السني في حاجة إلى كسب المؤيدين في أنحاء العالم الإسلامي من جهة ، وإلى الوقوف في وجه علماء السنة في مصر والعراق وغيرها عندما أقاموا مجادلة مضادة لدحض آراء الفاطميين من جهة أخرى ، فكانت معركة سلاحها الحجة والإقناع وغزارة العلم.

وبمجيء الفاطميين استقلت مصر استقلالاً تاماً ، وصارت القاهرة عاصمتهم مقر خلافة واسعة ، وإن كانت هذه الخلافة شيعية ذات عقيدة مخالفة للعقيدة السنية العباسية.

فكانت الإدارة في عهد الفاطميين تدار كما كان سابقاً بواسطة سلطة الدواوين التي كان يطلق عليها أو على وظائفها اسم (الوظائف الديوانية) فقد كانت حكومة الفاطميين حكومة مدنية ، ومصدر ذالك أن الفواطم أتوا مصر ومهمتهم الأولى والأخيرة هي الدعوة الفاطمية ، ثم أن الفاطميين استقلوا بمصر فأنشئوا فيها خلافه جديدة ناهضت الخلافة العباسية العتيقة في كثير من مظاهرها ، واستعان الخليفة الفاطمي في إدارة مصر بحكومة معقدة التركيب ،كثيرة الدواوين ، مشحونة بعدد ضخم من الموظفين على رأسهم الوزير ، فمن دواوين الحكومة الفاطمية إذ ذاك ديوان الإنشاء،وديوان بيت المال ،وديوان الجيش ،وديوان الأحباس ، وديوان الرواتب،وديوان خزائن الكسوة والطراز ، وفي كل ديوان من تلك الدواوين عدد كبير من الموظفين.

وتناول هذا البحث ديوان الإنشاء في العصر الفاطمي ، نشأته،ومراحل تطوره ، وشروط وصفات هؤلاء الكتاب ، والجهود الكتابية لهذا الديوان ، وما صدر عنه من مكاتبات، والأساليب والخصائص الفنية لديوان الإنشاء الفاطمي، ومختتماً بمشاهير كتاب ديوان الإنشاء الفاطمي.

ومن أسباب اختياري لهذا البحث ما يأتي:

أن مناهل العصر الفاطمي لا زالت خ صبه عامره لا تنضب، بل تتيح الفرصة إلى المزيد من الأقلام لإبراز النشاطات الفكرية الواسعة النطاق، و ما كتب حول هذا الموضوع لا يعدو إشارات مبثوثة في بطون بعض الكتب التي كتب لها البقاء بعد إحراق الدولة الأيوبية لمعظمها.

أما الصعوبات التي واجهت مقدم هذا البحث:

1. قلة ما كتب حول هذا الموضوع ، إلاّ كما أسلفت سوى ما كان مبثوثاً في بعض الكتب.
2. صعوبة توفير بعض المصادر التي تناولت ديوان الإنشاء في العصر الفاطمي.

وقد تمكنت من الإطلاع على كتابات الباحثين الذين تناولوا بعض الموضوعات التي لها علاقة من قريب أو من بعيد بموضوع رسالتي ، أمثال خضر أحمد عطا الله "الحياة الفكرية في مصر " وحسن إبراهيم "تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب " ومحمد جمال سرور "الدولة الفاطمية في مصر" ومحمد كامل حسين "في أدب مصر الفاطمية " وعبدالمنعم ماجد "السجلات المستنصرية" وجمال الدين الشيال "مجموعة الوثائق الفاطمية " ومحمد زغلول سلام "الأدب في العصر الفاطمي الكتابة والكتاب".

فوجدت أن كل مؤلف من هؤلاء المؤلفين قد ركز على جانب على حساب جوانب أخرى من الموضوع، إضافة إلى النزعة التي نلمحها في بعض الكتابات.

وأدرت البحث على خمسة فصول هي:

الفصل الأول: ديوان الإنشاء الفاطمي بمصر وجهوده الكتابية.

الفصل الثاني: شروط الكتاب وصفاتهم في ديوان الإنشاء الفاطمي.

الفصل الثالث: الجهود الكتابية لديوان الإنشاء وما صدر عنها من مكاتبات.

الفصل الرابع: الأساليب والخصائص لكتابة ديوان الإنشاء الفاطمي.

الفصل الخامس: مشاهير كتاب ديوان الإنشاء الفاطمي.

ورحم الله العماد الأصفهاني ،حيث يقول : إنّي رأيت أنه لا يكتب إنسانٌ كتاباً في يومه إلا قال في غده لو غُيِّر هذا لكان أحسن ولو زيد لكان يستحسن ، ولو قدّم هذا

لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذه أعظم العبر وهو دليلٌ على استيلاء النقص على جملة البشر".

وفي الختام فإني قد بذلت جهدي والله الموفق.

2.1 تمهيد: الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية

1.2.1 الحياة السياسية:

1. الإمامة:

هي أصل جميع نظم الحكم في الدولة الفاطمية في مصر [1] وكلمة (إمامة) التي كان يستعملها الشيعة عامة والفاطميون بخاصة لها مدلول كلمة (خلافة) التي كان يستعملها الأمويون والعباسيون [2].لقد أخذ الفاطميون بمبدأ نظام الوراثة منذ نشأت دولتهم، أي انتقال الإمامة من الأب إلى الابن عن طريق التعيين بالنص ، لكن بعض الأحداث حملتهم على الخروج عن هذا المبدأ ، فحاول الخليفة بأمر الله أن يحرم ابنه أبالحسن عليا الذي تولى الخلافة من بعده باسم الظاهر من ولاية العهد، وعهد بها لابن عمه عبدالرحيم بن إلياس، لكن هذه المحاولة باءت بالفشل وخلفه ابنه الظاهر ، وهناك حالة أخرى، فبعد وفاة الخليفة الآمر ولي الخلافة عمه الحافظ ، وكذلك ولي العاضد لدين الله الخلافة بعد وفاة الفائز وكان ابن عمه[3].

ونظام الوراثة عند الشيعة الإسماعيلية يقضي أن تكون الإمامة في نسل علي بن أبي طالب دون غيرهم، وأن تنتقل دائماً من الأب إلى الابن، فهم في هذا يختلفون عن الأمويين والعباسيين الذين كانوا يبيحون أن تنتقل الخلافة أحياناً إلى الأخ أو إلى ابن العم أو إلى أكبر أفراد الأسرة سناً والسر في التزام الشيعة الإسماعيلية هذا

([1]) الماوردي، أبي الحسن علي بن محمد حبيب (ت450هـ/1058م): الأحكام السلطانية والولايات الدينية، القاهرة، 1909، ص3.

([2]) ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد (ت1406/808): المقدمة، ط 1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص342، 408.

([3]) انظر مجموعة الوثائق الفاطمية، تحقيق وجمع جمال الدين الشيّال، ط 1 مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1422-2002م، ص20-21.

النظام من نظم الوراثة كونه عاملا من عوامل الاستقرار، وأنه جنب الأسرة والدولة –إلى حد كبير- عوامل المنافسة والنزاع والتخاصم في سبيل العرش[1].

خلاصة عقيدة الشيعة في الإمامة تقوم على النظر إلى الإمام نظرة التقديس، فهو يتلقى علمه من الله عن طريق الوحي، و يعده الله إعداداً خاصاً من حين يكون نطفة، ويحفظه برعايته السامية، ويعصمه من الذنوب، ويورثه علم الأنبياء والمرسلين، ويطلعه على كل ما كان و ما سيكون، وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يعلم علماً علمه الناس، وعلماً آثر به علياً وعلياً آثر به وصيه، و هكذا إلى المهدي الثاني عشر، والإمام ظل الله في أرضه ونور الله في أرضه، والوسيلة الوحيدة لمعرفة الحق والباطل، والاعتقاد بذلك جزء من الإيمان، كالإيمان بالله ورسوله، لا تنفع أعمال الإنسان إلا به، بل إن عصيان المؤمن قد يخففه بل يمحوه الإيمان بالإمام. إن الإمام في نظر الشيعة فوق أن يحكم عليه، وهو فوق الناس في طينته وتصرفاته وهو مشرع وهو منفذ ولا يسأل عما يفعل والخير والشر يقاس به فما عمله هو خير وما نهى عنه فشر[2].

ويرى الكليني إن" الإمام هي منزلة الأنبياء، وإرث الأوصياء... الإمام يحل حلال الله ويحرم حرام الله الإمام البدر المنبر والسراج الزهار والنور الساطع ..... الإمام المطهر من الذنوب، والمبرأ من العيوب ...الإمام واحد دهره، لا يدانيه أحد ولا يعادله عالم، ولا يوجد منه بدل ولا له مثل ولا نظير"[3].

والإمام عند الشيعة لا تصل ولايته على البشر فقط، وإنما ينتقل إلى الكون وما فيه يقول الخميني في بيان خلافة و ولاية الإمام الكونية: "وثبوت الولاية و الحاكمية الإمام لا تعني تجرده عن منزلته التي هي له عند الله، ولا تجعله مثل عداه من

([1]) الشيال، جمال الدين، مجموعة الوثائق الفاطمية، وثائق الخلافة وولاية العهد والوزارة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002/1422م، ص25.

([2]) أمين أحمد، ضحى الإسلام، ج3، ص220-221، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، ط2، 1987م.

([3]) الكليني، أبو جعفر محمد بن يعقوب بن اسحق، الأصول من الكافي، دار صعب، بيروت، ط4، 1401هـ.

الحكام،فإن للإمام مقاماً محموداً ودرجة سامية وخلافة تكوينية تخضـــع لولايتهـــا وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون.

إنومن ضروريات مذهبنا أن لأئمتنا مقاماً لا يبلغه ملــك مقــرب ، ولا نبـــي مرسل، وبموجب ما لدينا من الروايات والأحاديث فإن الرسول الأعظم والأئمة كانوا قبل هذا العالم أنواراً فجعلهم بعرشه محد دقين،وجعل لهم من المنزلة و الزلفى مـــا لا يعلمه إلا الله[1].

الشيعة ترى أن معرفة الإمام تعني عبادة الله ، ويروي الكليني عن أبي جعفـــر قوله: إنّما يعرف الله عز وجل ويعبده من عرف الله وعرف إمامه منا أهل البيت ، ومن لا يعرف الله و لا يعرف الإمام منا أهل البيت فإنما يـ عرف ويعبد غير الله ، هكذا والله ضلالا"[2].

العصمة أهم الفضائل التي يوجبها الشيعة للإمام حتى أصبحت وصفاً ملازمـــاً له، وتستدل الشيعة على وجوب عصمة الإمام بقوله تعالى لإبراهيم -عليه السلام-: "إني جاعلك للناس إماماً ، قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين"[3].

ففي جواب الله على طلب إبراهيم أن يجعل الإمامة في ذريتـــه قـــال : "لا ينـــال عهدي الظالمين" كل من كان مذنباً فإنه ظالم .فكل من كان مذنباً سواء أكان ذنبه ظاهراً أم باطناً لا يكون إماماً، فالإمام إذن لا بد أن يكون معصوماً[4].

وقد قامت الخلافة الفاطمية على أساس فكرة تقديس الإمام وعصمته، ومـــن ثـــم نرى أتباع الفاطميين يخلعون على خلفائهم صفات التقديس ممَّا لم يوصف به خلفاء

---

(1) الخميني، آية الله، الحكومة الإسلامية، تقديم وتعليق د . محمد الخطيب، دار عمـــار، عمـــان، ط1، 1988م.

(2) الكليني، أبو جعفر محمد بن يعقوب، الأصول من الكافي، ج1، ص181.

(3) البقرة، الآية: 124.

(4) صبحي، د. أحمد محمود، نظرية الإمامة لدى الشيعة الإثنى عشرية، دار المعارف،القـــاهرة، 1969، ص104-129.

بني العباس[1]. ولاغرو فقد خاطبابن هانئ الأندلسي المعز لدين الله الفاطمي حين حلَّ بقرية رقادة بجوار القيروان بهذه الأبيات:

حـــــلَّ برقـــــاده المســــيح حـــــلَّ بهــــا آدم ونـــــوح
حـــلَّ بهـــا أحمـــد المصـــفى حـــلَّ بهـــا الكـــبش والـــذبيح
حـــــلَّ بهــــا الله ذو المعـــــالي وكل شـــىء ســـواه ريـــح [2].

هذا الشاعر اشبيلي ولكنه بسبب آرائه الفلسفية انتقل إلى المغـــرب فأصـــبح شاعر الخليفة الفاطمي المعز لدين الله ولقائده جوهر الصقلي ويلقبونه بمثيني الغرب وهو شاعر منتم للفاطميين وبومتهم في نقل عقائـــدهم وتـــاريخهم : وهـــو صـــاحب القصيدة المشهورة حينما فتح الفاطميون مصر على يـــد قائـــدهم العظـــيم جـــوهر الصقلي:

تقولُ بنو العباس هَلْ فُتحت مِصْـــرُ فقلْ لبني العباسِ قد قضـــي الأمـــرُ
وقد جـــاوَزَ الإســـكندريّة جـــوهَرٌ تُطالِعُهُ البُشْـــرى وَيَقْدُمُـــهُ النّصْـــرُ

ونرى من خلال هذه الأبيات كيف وصل الإلحاد في الـــدين عنـــد ابـــن هـــانئ الأندلسي بأن جعل الله يحلُّ في المعز، بل لكأنه الله –جلّ جلاله- عن أن يتعلق بذاته العلية شيء من ترهاته.

وهناك طائفة منهم يسمون الغلاة تجاوزوا حد العقل والإ يمان في القول بألوهيـــة هؤلاء الأئمة، إما على أنهم بشر اتصفوا بصفات الألوهية ، أو أن الإله حلّ في ذاتهم البشرية، وهو قول بالحلول يوافق مذهب النصارى في عيسى صلوات الله عليه[3].

ولتعميق هذا المفهوم عمد الخلفاء الفاطمييون إلى تأسيس المدارس الخاصة لتعليم عقائد المذاهب، وكان من أثر هذه الجهود أ ن روَّج لفكرة تقديس الأئمة ف ي كثير من

([1]) حسن، إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط3، 1964م، ص264.

([2]) ابن هانىء ديوانه، بيروت، 1326هـ، ص351.

([3]) ابن خلدون، عبدالرحمن بن خلدون المغربي (ت808/1406): كتاب العبر وديـــوان المبتـــدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، 1420هـ/1999م، ص351.

أرجاء العالم الإسلامي كمصر واليمن وفارس والهند ، بل توغلت هذه التعاليم في بلاد الأندلس نفسها التي كانت إذاك تحت نفوذ الأمويين السنيين [1] وكان الخلفاء الفاطميون يلقبون بألقاب كثيرة منها: الخليفة الفاطمي، أو العلوي أمير المؤمنين.

ومن الألقاب المحببة إلى الإسماعيلية لقب : إمام، وصاحب الزمان، والسلطان والشريف القاضي، كما يظهر من مخاطبة قاضي القضاة للخليفة في خطبة الجمعة: السلام على أمير المؤمنين "الشريف القاضي الخطيب ورحمة الله وبركاته"[2].

قد انقسم العهد الفاطمي في حكم مصر إلى دورين تاريخيين ،واختلفا اختلافاً كلياً فمن كان صاحب السلطة السياسية: فالدور الأول (341هـ/952م-411هـ/1020م)هو دور حكم الخلفاء :المعز لدين الله ، والعزيز بالله بن المعز لدين الله والحاكم بأمر الله ابن العزيز بالله، والظاهر لإعزاز دين الله بن الحاكم بأمر الله.

أما الدور الثاني : فهو دور الخلفاء الضعفاء الذين حكموا اسميًّا (427هـ/1035م-544هـ/149م)وهم: المستنصر بالله ابن الظاهر لإعزاز دين الله، المستعلي بالله والآمر بأحكام الله ابن المستعلي بالله والحافظ لدين الله ابن أبي القاسم محمد بن المستنصر "وهو أول خليفة لم يل أبوه الخلافة"[3].

ويعد الخليفة رأس الدولة، فتشمل سلطته السياسية قيادة الجيش ، وهو رأس السلطة التنفيذية الذي يعين الوزراء والولاة والأمراء وسائر الموظفين ، ويقطِّع الإقطاعات. وهو القاضي الأعلى (رأس القضاة) يتولى ديوان المظالم أحياناً ويسمّي قاضي القضاة والكتاب العدول والشهود وغيرهم. وله حق إقالتهم أو صرفهم أو مصادرة أموالهم وتتكرس سيادته الدينية في ذكر اسمه على المنابر ونقشه على السكة والطراز[4] وهو الذي يحث على الجهاد ويستعرض الجيوش البرية والبحرية

---

(1) حسن إبراهيم، حسن، تاريخ الدولة الفاطمية، ص265.

(2) المرجع السابق، ص266.

(3) ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر الشافعي (ت681/1282): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تحقيق إحسان عباس، 7 أجزاء، ج3، ص236-237.

(4) الطراز، الثوب الحسن المعلّم/ معجم العين، طرز.

ليباركها... والخلية صاحب لحق بالثواب أو العقاب ، بالمكافأة أو بالعزل من المناصب مع مصادرة الأموال والأملاك إذا اتضح أنها جمعت بطرق غير مشروعة[1].

2. الوزارة:

وهينظام متعارف عليه في الدول الإسلامية في العصور الوسطى ، وهي من أصل ساساني[2]، والمعروف أن خلفاء بني العباس هم أول من اتخذ الوزراء لإدارة شؤون دولتهمين أخذوا هذا المنصب عن الفرس ، وأول من لقب بالوزارة في الإسلام، أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال وزير أبي العباس السفاح أول خلفاء بني العباس[3] وتسمى الوزارة عند الفاطميين "رتبة"[4] وفي الدولة الفاطمية كانت الوزارة في أرباب السيوف تارة وفي أرباب الأقلام تارة أخرى.

وكانت الوزارة في العصر الفاطمي الأول (358-365هـ) وزارة تنفيذ لأن الخلفاء كانوا من القوة بحيث يستطيعون أن يديروا أمور الدولة بأنفسهم ومن أشهر وزراء هذا العصر يعقوب بن كلس وأبو الحسن علي بن جعفر بن فلاح الملقب (وزير الوزراء ذي الرياستين)[5].

وعلى الرغم من العظمة التي كان يتمتع بها الوزير في العصر الفاطمي الأول كانت سلطته محدودة ، إذ كان بقاؤه في مركزه يتوقف على رضا الخليفة غير أن تلك العظمة لم تلبث أن تبدلت ولا سيما في العصر الفاطمي الأخير

([1]) المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت845/ 1441): اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ج 1، تحقيق: جمال الدين الشيّال، القاهرة، 1387هـ/1967م، وج2، ج3، تحقيق محمد حلمي أحمد، القاهرة، 1390هـ/1393م، 1971–1973، ج2، ص59.

([2]) ابن خلدون، المقدمة، ص2.

([3]) القلقشندي، أحمد بن علي (821هـ-1418م): صبح الأعشى في صناعة الإنشا،تحقيق : محمد حسين شمس الدين، ط 1، دار الفكر، دار الكتب العلمية، 1407هـ/1987م، ج3، ص295.

([4]) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج1، ص439.

([5]) حسن، إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج3، ص261.

(465-567هـ)، بمعنى أن الوزارة أصبحت وزارة تفويض بعد أن كانت وزارة تنفيذ، وأشهر وزرائها أبو علي الحسن بن أبي سعيد التستري، وأبو محمد الحسن اليازوري علي بن عبدالرحمن[1].

وأطلق عليها اسم "الوساطة"[2] وكان الذي يتولاها يسمى "بالوسيط"، لأنه كان يتوسط بين الخليفة ورعيته[3]، وأول من خوطب بالوزارة يعقوب بن كلس وزير العزيز، وأول وزرائهم من عظماء أرباب السيوف بدر الجمالي وزير المستنصر، وآخرهم صلاح الدين بن يوسف بن أيوب[4]، وكان بدر الجمالي وزيراً للسيف والقلم في آن واحد[5] واشتهر من الوزراء أرباب الأقلام: اليازوري والتستري، وعلي بن الفلاح ومن أرباب السيوف: "برجوان" وقائد القواد الحسين بن جوهر[6].

وفي أواخر عهد المستنصر بالله تمكن قادة العسكر في الدولة الفاطمية من الوصول إلى السلطة سنة 467هـ/1074م عندما كتب المستنصر بالله إلى أمير الجيوش وهو يومئذٍ بعكا، يستدعيه للقدوم لنجدته وإعانته، ووعده بتملك البلاد والاستيلاء عليها، فاشترط عليه أن يأتي بعسكر معه، وأن لايبقى أحداً من عساكر مصر ولا وزرائهم، فوافقه المستنصر بالله على ذلك واستأثر بالسلطة كاملة بعد أن قضى على أمراء الدولة ومقدميها لنهاية وليمة أقامها لهم.

واستأثر بدر الجمالي لنفسه حق التعيين في أكبر مناصب الدولة كقاضي القضاة وداعي الدعاة التي كانت من حق الخليفة فيما سبق، واستمرت هذه الظاهرة حتى

([1])حسن، إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج4، ص329.

([2]) القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص295.

([3]) ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة (ت555هـ/1160م): تاريخ ابن القلانسي المسمّى ذيل تاريخ دمشق. تحقيق: أمسد روز (مطبعة الأباء اليسوعين)، بيروت، 1908، ص81.

([4]) القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص295.

([5]) ابن ميسّر، تاج الدين محمد بن علي بن يوسف بن جلب راغب (ت677هـ/1278م): المنتقى من أخبار مصر. تحقيق: أيمن فؤاد سيد، (المعهد العلمي الفرنسي بمصر)، القاهرة، ص52.

([6]) القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص561-562.

سقوط الدولة الفاطمية نهاية 567هـ/1171م، ولأول مرة تصبح الوزارة وراثية لأن بدراً عهد إلى ولده الأفضل بتوليها بعد وفاته[1].

وقد أصبح بمقدور الوزراء العظام تعيين الخليفة الفاطمي أو الحجر عليه وحتى عزله، فانقلبت بذلك الأوضاع السياسية في البلاد، وكان أيضاً من مهام الوزير إدارة الشؤون المالية، والموازنة بين الواردات والنفقات، وفرض الضرائب والاعفاء منها، والتوقيع عن الخليفة ومراقبة الدواوين والإشراف على الكتاب ، ويقوم الوزير بتأدية مهام خاصة كأن يرافق الخليفة داخل القصر ،وينتظره أحياناً مع غيره من الأمراء والقاضي والمقربين على باب القصر إذا أ راد الخروج أو يرافقه في كسر الخليج [2]، وفي الاحتفالات العامة ويلازمه في ا لاحتفالات الدينية داخل المسجد، وإ ذا لم يحضر الوزير سماط رمضان [3] كان ينيب عنه ابنه أو أخاه وإلاّ تصدر صاحب الباب السماط[4].

وتقتضي السياسية الفاطمية أن يتحلى الوزير بالصدق والأمانة والكفاءة[5]، لذا لم تفرِّق الدولة بين من يليها أكان مسلماً أم كان من أهل الذمة فقد عرفت الدولة الفاطمية عدداً من الوزراء الذميين الذين أسلموا حديثاً طمعاً في الوزارة أو أي وظيفة إدارية أخرى، فقد كان يعقوب بن كلس يهودياً ثم أسلم،وكان ماهراً في

([1]) المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا، ج2، ص311-312.

([2]) كسر الخليج: يقصد به كسر السد الواقع عند فم الخليج، يوم وفاء النيل في كل عام، أي عندما يبلغ ارتفاع الماء ستة عشر ذراعاً وتكون أفواه الترع مسدودة في البلاد كلها، فيحضر الخليفة لفتح أو كسر الخليج، ثم تفتح بعده الخلجان في كافة أرجاء البلاد . ناصر خسرو، سفرنامة، ترجمة يحيى الخشاب، منشورات دار الكتاب العربي الجديد، بيروت، 1970، ص93.

([3]) سماط رمضان: السماط جمع سمط، وهو ما يبسط لـ يوضع عليه الطعام، "المنجد في اللغة والإعلام"، باب سمط، وكان الفاطميون يستخدمونه لموائدهم في شهر رمضان.

([4]) الصيرفي، علي أبو القاسم (ت542/1147): الإشارة لمن نال الوزارة (المعهد العلمي الفرنسي). القاهرة، 1924م، ص21.

([5]) المصدر السابق، ص10.

الأمور المالية والشؤون الإدارية[1]، وقد رقّي فهد بن إبراهيم النصراني إلى منصب الوزارة للحاكم بأمر الله بعد أن كان كاتباً ولقب بالرئيس [2]، وكذلك تقلد الوزارة أبو نصر بن عبدون الكاتب النصراني سنة 400هـ/1009م فسمح له الحاكم بأمر الله أن يوقع عنه[3]، ويتولى الوزارة على أيام المستنصر بالله أبو سعد منصور بن أبي اليمن حورس بن مكرواه بن زنبور [4]الذي كان نصرانياً وأسلم وشغل أبو نجاح ابن فنا الراهب النصراني منصب الوزارة للآمر بأحكام الله[5].

وتولى الوزارة وزراء من السنَّة مثل رضوان بن ولخشي، على أيام الحافظ لدين الله، وأحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي، وابن السلار الكردي الشافعي الذي استوزره الخليفة الظافر بأمر الله سنة 543هـ/1148م، كما انتقلت الوزارة من الأب إلى الابن فالحفيد (مبدأ الوراثة في الوزارة الجمالية) فقد تولاّها الأخ بعد أخيه فلما توفي الوزير عبدالكريم بن عبدالحكم ابن سعيد الفارقي، سنة 453هـ/1061م، تولى الوزارة أخوه أبو علي أحمد بن عبدالحكم بن سعيد الفارقي سنة 454هـ/1062م[6].

وكانت العبرة في تولي الوزارة عند الفاطميين بالكفاية المطلوبة، والعمل على إرضاء الخليفة (في الدور الأول) والرعية، والنزاهة والصدق لذا لم يفرق الفاطميون بين من يلي الوزارة سواءً أكان مسلماً (شيعيًّا أو سنيًّا) أو نصرانياً أو يهودياً[7].

---

(1) ابن تغري بردي، جمال الدين بن يوسف (ت874هـ/1469 م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة، 1929، 16جزءاً، ج 4، ص158.

(2) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص14.

(3) المصدر السابق، ج2، ص81.

(4) المصدر السابق، ج3، ص272.

(5) المصدر السابق، ج3، ص117-118.

(6) ابن الصيرفي، الإشارة لمن نال الوزارة، ص48-49.

(7) ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج4، ص53.

وكانت هناك ألقاب خاصة للوزراء الفاطميين؛ فقد تلقب الحسن بن عمار الكتامي (بأمين الدولة)، والحسين بن صالح بن علي الروز باري بـ "عميد الدولة"، وبهرام الأرمني بـ"تاج الدولة"، وابن أبي كدينة بـ"ولي الدولة"[(1)].

وسمي بعض الوزراء بأسماء الملوك وألقاب الخلفاء، فهذا رضوان بن ولخش وزير الحافظ لدين الله يلقب "بالملك الأفضل" ولقِّب طلائع ابن رزيك "بالملك الصالح" في خلافة الفائز بنصر الله، ولقب ابنه رزيك ابن طلائع "بالملك العادل"[(2)].

2.2.1 نسب الفاطميين:

لم يتفق المؤرخون على صحة نسب الفاطميين إلى السيدة فاطمة الزهراء وعلي بن أبي طالب حتى الآن، لأن الإجماع على صحة نسبهم يحتاج إلى أدلة وإثباتات.

من الصعب الحصول على هذه الأدلة، لذا نعتمد على الإختصار ما أمكن عن نسب الفاطميين إلى حين الحصول على نصوص يمكن الوثوق بها. ورأى بعض المؤرخين أنهم ينتسبون إلى أول من ولي الخلافة منهم المهدي أبي محمد بن عبيدالله بن عبدالله بن ميمون بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، والذي يؤيد هذا النسب الذين يقولون بإمامته[(3)].

([1]) السيوطي، الحافظ جلال الدين عبدالرحمن (ت911هـ/1505م): حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، دار إحياء الكتب العربية). 1387هـ/1967م، جزءان، ج2، ص118.

([2]) ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ج2، ص94. المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج2، ص173.

([3]) ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمود الشيباني (ت630/1232): الكامل في التاريخ، ط2، منشورات دار الكتاب العربي، بيروت، 1387هـ/1963م، ج6، ص124؛ المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت843هـ-1439م): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. تحقيق محمد زينهم، مديحة الشرقاوي، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1998م، ج1، ص348.

وهناك جماعة شكّوا في النسب وجعلوه يهودياً[(1)]. وفي محضر كتب في عهد عبدالقادر بالله العباسي، (381-422هـ/974-1031م) يتضمن طعناً في نسب عبيدالله (المهدي) ونسب أولاده إلى الإمام علي غير صحيح [(2)] ومن الذين وقّعوا محضر الطعن الشريفان الرضي والمرتضى وأبو حامد الإسفرايني والقدوري مستندين إلى أقوال الناس في بغداد ممن يخافون من بني علي بن أبي طالب أو بسبب الترغيب والترهيب لذا بقي هذا المحضر مبعث شك وتساؤل الكثيرين.

لقد كان نسب الفاطميين حجتهم التي بها يطالبون بالخلافة، و لقد كان نسبهم حجة معتمدة لا يماري فيها الأكثرون، من أتباع الدولة الإسلامية ، الذين تسري بهم دعوة آل البيت، إلا العباسيين ،بعد أن كانت دعوة آل البيت تشتملهم أجمعين منذ قرنين ونصف، فأنكر العباسيون نسبهم إلى الزهراء، و ذهبوا إلى أنهم من نسب ميمون القداح من ديصان الثنوي القائل بوجود إلهين: إله النور و إله الظلمة[(3)].

فتلقفها كل ناقم على الفاطميين، وهم صنوف منتميون إلى كل مذهب و ملة منهم الإخشيديون والأغالبة والأمويون في الأندلس وزاد عليهم من كان تابعاً للفاطميين، ثم عجل المعاذير للخروج عليهم كوالي مكة، وبعض رؤساء العشائر في الجزيرة العربية، وإضافة إلى ذلك أن أناساً من العلويين شهدوا على الفاطميين بإدعائهم نسبا إلى علي وفاطمة عليهما السلام، بدليل أن الشريف أبا الحسن محمد بن علي المشهور بأبي محسن الدمشقي، كتب رسالة في تفنيد دعواهم ينكرها المقريزي و ينسبها إلى عبد الله بن رزام[(4)].

([1]) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ، ج6، ص125، 128؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج1، ص348.

([2]) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ، ج1، ص128؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج1، ص149.

([3]) العقاد محمود، فاطمة الزهراء والفاطميون، نهضة مصر، (د.ت). ص57-58.

([4]) هو ميمون بن داود (100-170)هـ في نسبه اضطراب، كان يظهر التشيع ويبطن الزندقة استقر في سلمية وألف كتابيه : (الميزان) و(الهداية) ويقال بأنه أدرك محمد بن إسماعيل وأدبه ولقنه مذهب الباطنية (الزركلي، الأعلام) 341/7.

3.2.1 الحياة الاجتماعية:

عند دخول الفاطميين إلى مصر ،كان أغلبية الشعب المصري من أهل السنة ، إضافة إلى أقلية من الشيعة، يعود وجودهم في مصر؛ إلى جهود الدعاة الذين أرسلهم الفاطميون من حين لآخر إلى مصر للاختلاط بالناس وتعليمهم المذهب الفاطمي ، لم يمض وقت طويل حتى تزايد عددهم ، وإضافة إلى ما قام به الخلفاء أنفسهم من نشر هذا المذهب عن طريق إرسال كتب إلى الأخشيديين بدعوتهم فيها إلى الإنضمام إليهم، وإظهار العداء للعباسيين ، وجاءت استجابة الأخشيد سريعة لهذه الدعوة، عندما تناهى لسمعهم من أخبار العباسيين بتعيين "محمد بن رائق "واليا على مصر ، فأمر الأخشيد بقطع الخطبة للخليفة العباسي وذكر اسم الخليفة الفاطمي[1].

وقد عملت العصبية عملها في المجتمع المصري آنذاك وانقسم المجتمع إلى خمس فئات "جماعات"[2] ساهمت العنصرية في تكوينها والتفافها بعضها حول بعض وهي:

الفئة الأولى: وهي الأساس ضمت كل من طائفتي السنة والشيعة المصريتين، حيث الغلبة للسنة من حيث الكثرة العددية والسيادة السياسية بفضل مؤازرة الحكم لها أما الشيعة فكانوا أقلية ، ونشطوا سرّا في نشر عقائدهم بين الناس إلى أن تم الفتح فاشتد ساعدهم وزاد نفوذهم وصاروا عونا للحكم[3].

الفئة الثانية : أهل الذمة من اليهود والنصارى، حيث اعتنق الكثير منهم المذهب الإسماعيلي لأغراض مادية في الحصول على العطايا والهبات. وقد عومل أبناء هاتين الطائفتين معاملة تنطوي على العطف والرعاية ، إذْ أنهم تقلدوا أرقى المناصب، وأعلاها في عهد الخليفة العزيز والمستنصر[4].

([1]) عريب بن سعد، صلة تاريخ الطبري. ط1، منشورات مكتبة خياط، بيروت (د.ت)، ص12.

([2]) الفئة: نعني بها جماعة من الناس عاشت في مصر القاهرة أيام الفاطميين ، تكتلت في وجه الفئات الأخرى، تارة تعتمد المذهب جامعاً يجمعها وطوراً العصبية الأصل.

([3]) إبراهيم أيوب، التاريخ الفاطمي الاجتماعي، ط 1 الشركة العالمية للكتاب، لبنان ، ص16-17.

([4]) حسن إبراهيم، تاريخ الدولة الفاطمية، ص624.

الفئة الثالثة: الأتراك فقد كانت هذه الفئة موجودة على الأراضي المصـــرية منذ أيام الدولة الطولونية لكنها لم تظهر كفئة ذات شأن ومكانة إلا بعد تــولى أبــو محمد الحسن بن عمار أحد شيوخ "كتامة"[1] الوزارة، فبالغ في إكرامهم ومحابــاتهم على غيرهم حتى استطاع زعيمها برجوان أن ينافس ابن عمَّار على الزعامة ، فعمد إلى الوساطة عن طريق اقناع الحاكم بأمر الله في الا عتماد على العنصـــر التركـــي والتخلص من المغاربة فكان له ما أراد واضطر ابن عما ر للهرب وحلّ برجـــوان محله[2].

الفئة الرابعة: هي طبقة السودان التي يعود وجودهم في مصر إلى أيام كافور الإخشيدي الذي أكثر من استخدام أبناء جلدته . وعندما تضايق الخليفة الحاكم بـــأمر الله من الأ تراك استعان بالسودان فبد ؤوا يتكاثرون، وشكلوا نواة تكتل تساند الخليفـــة الحاكم الذي نفذوا له حر يق الفسطاط، وازدادت شوكتهم في خلافة الظاهر لدين الله الذي تزوج بامرأة سودانية، ثم تفاقم خطرهم في خلافة المستنصـــر بـــالله ، فوقـــع الخلاف بينهم وبين الأتراك الذي انتهى بتشتيت الفئه السودانيه في أنحاء مختلفة من البلاد[3].

الفئة الخامسة: فئة الأفارقة من تونس جاءوا مـــع الخليفـــة الأول عبيـــدالله المهدي، وقامت الدولة الفاطمية على أكتافهم في بلاد المغرب ثـــم مصـــر، وكـــان الفاطميون يعتمدون عليهم في جيوشهم خاصة الكتاميين الذين كانوا عصب الدولـــة الفاطمية وقوتها في مصر، فقام المغاربة بإثارة الفتن و القلاقل وأعمال العنف ضـــد الأهلين فاعتبروا من أعدائهم لاختلافهم في المذهب ولاغتصابهم ما كـ ان لهم مـــن حقوق سياسية،ففي سنة 361هـــنهب المغاربة بـ عض أحياء مدينـــة مصـــر فثـــار الأهلون ونشب قتال بين الفريقين ،فأرسل اليهـم جوهر سعادة بن حيّان في الحـــال، فحسم النزاع، فقام جوهر بتعويض الناس ما نهب منهم[4].

([1]) كتامة: إحدى القبائل البربرية سكنت تونس والمغرب.

([2]) ابن الصيرفي، الإشارة لمن نال الوزارة، ص27.

([3]) حسن إبراهيم، تاريخ الدولة الفاطمية، ص625-626.

([4]) المقريزي، اتعاظ الحنفا في أخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ج ، ص87.

مظاهر الحياة الاجتماعية

اتخذت الحياة الاجتماعية بمصر في العصر الفاطمي مظاهر البذخ والترف التي قلما نجدها في أي عصر من عصور مصر الإسلامية، فقد تجلى هذا البذخ بما أورده المقريزي[1] عن خزائن الفرش والأمتعة والخيام والشراب، ونستدل على ترفهم من القصور التي بنوها ليتخذوها مساكن لهم ولأسرهم ومن أشهرها القصر الشرقي الكبير، وله عدة أبواب منها: باب الذهب وباب العيد وأمامه مساحة متسعة يقف فيها الجنود في يومي العيدين وتعرف برحبة العيد، وباب الديلم، وقد أسس العزيز في هذا القصر قاعة الذهب التي يجتمع فيها مجلس الملك[2].

وكان الوزراء الفاطميون يعيشون عيشة الترف والبذخ، فجعل يعقوب ابن كلس وزير العزيز بالله الفاطمي في قصره مطابخ خاصة لأضيافه وأخرى لغلمانه وحاشيته وأتباعه، واتخذ بقصره طائفة من الحجاب يرتدون الملابس الحريرية ويتقلدون السيوف و يتمنطقون بالمناطق[3]، وكان الوزير الأفضل بن بدر الجمالي مولعا بالبساتين، فبنى لأحدها سوراً يشبه سور القاهرة، وحفر به بركة كبيرة، كما بنى في وسط هذا البستان منظره على أربعة أعمدة من الرخام، وزرع حواليها شجر النارنج وجلب إليه كثيراً من الطيور المسموعة، وسرح فيه كثيراً من الطواويس[4].

واهتم الفاطميون بالاحتفال بالأعياد الدينية وأسبغوا على ذلك كثيرا من مظاهر الأبهة والعظمة، فمنها: عيد الفطر وعيد الأضحى، ورأس السنة الهجرية ومولد النبي عليه الصلاة والسلام، ومولد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ومولد ولديه الحسن والحسين ومولد فاطمة الزهراء، ويوم عاشوراء، وليلة أول رجب، وليلة نصفه، وليلة أول شعبان، وليلة نصفه[5]، وكان يقام في ليلة عيد الفطر بالإيوان الكبير الذي يواجه مجلس الخليفة سماط ضخم، وتنثر عليه صنوف الفطائر والحلوى

---

(1) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج1، ص416-425.

(2) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج1، ص385-386.

(3) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص441، حسن إبراهيم، تاريخ الدولة الفاطمية ص633.

(4) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج2، ص379.

(5) حسن إبراهيم، تاريخ الدولة الفاطمية، ص641.

انتهى الخليفة من أداء صلاة الفجر عاد إلى مجلسه الشهابية، وفتحت أبواب القصر والإيوان على مصاريعها [1] أما عيد الأضحى فيحتفل في أول يوم منه بركوب الخليفة إلى الصلاة على النحو اتبع في عيد الفطر، غير أنه يمتاز بخروج الخليفة إلى المنحر ثلاث مرات متواليات في أيامه الثلاثة الأولى، واشتراكه في إجراءات النحر[2]كذلك اهتم الخلفاء الفاطميون بالاحتفال بليلة المولد النبوي احتفالاً باهراً يليق بمكانته العظيمة في نفوس المسلمين، وكان الاحتفال بالمولد النبوي بدعة في نظر المتمسكين بالعادات الإسلامية لكن أهل الصلاح والورع من المسلمين رغبة منهم في تكريم النبي رأوا منذ بداية القرن الرابع الهجري أن يحتفلوا بمولده[3]، ومن المظاهر الدينية المألوفة في هذا العيد قراءة السيرة النبوية في المساجد.

واحتفل الفاطميون في قصورهم بميلاد السيد المسيح وجرى الفاطميون بهذه المناسبة على توزيع حاجت من الحلاة والجلاب والزلابية وبعض السمك على أرباب الرسوم من الاستاذين المحنكين والأمراء المطوقين وسائر الموالي من الكتاب[4].

وكذلك احتفلوا بعيد النيروز، وهو أول السنة القبطية بمصر وأول يوم من شهر توت/ أيلول، ويتم في هذا العيد إشعال النيران ورش الناس الماء بعضهم على بعض ويتبادلون الهدايا وتقفل الأسواق . وعندما شاهد المعز لدين الله المظاهر التي ترافق الاحتفال بالنيروز أصدر أوامره بمنع أهل مصر من إيقاد النيران ليلة النيروز في الطرقات.... ولكن سرعان ما استؤنفت الاحتفالات بالنيروز على أيام والده العزيز بالله[5].

([1]) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج4، ص97.

([2]) القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص501-512.

([3])متز، آدم ، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريده، جزءان، القاهرة، 1940-1941، ص250.

([4]) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج1، ص365، 494.

([5]) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2، ص18.

وكذلك احتفلوا بذكرى الغطاس، التي هي في الأصل عمادة السيد المسيح من قبل يوحنا المعمدان القدّيس بتغطيسه في نهر الأردن. وتعمل هذه الذكرى بمصر في اليوم الحادي عشر من شهر "طوبه/كانون الثاني"، فتضاء الشموع وتشعل المشاعل في الأسواق، وفوق الحوانيت، وفي الدور، وتضرب الخيام عند شاطئ النيل فيجتمع في تلك الليلة الألوف من الناس مسلمين ونصارى على حد سواء. فيلعبون ويفرحون، وعند منتصف الليل يغطسون في مياه النيل كما غطس السيد المسيح في نهر الأردن[1].

وكان الشعب المصري يتقبل هذه المواسم بمظاهر الفرح والسرور، إلاّ يوم عاشوراء[2] فقد كان عندهم يوم حزن عام تعطل فيه الأسواق، ويخرج المنشدون إلى الجامع الأزهر ليلقوا الأناشيد في رثاء الحسين، وفي نفس اليوم يقام سماط يسمى سماط الحزن في بهو بسيط. وكان يقدم عليه خبز الشعير والعدس والجبن، يحضره الخليفة ملثماً ومرتدياً الثياب القاتمة[3]. كذلك أولى الخلفاء الفاطميون الاحتفال بوفاء النيل كثيراً من اهتمامهم فكان يخرجون إلى المقياس[4] بالروضة إذا ما بلغ الفيضان ستة عشر ذراعاً، وقد ذكر ناصر خسرو أنه كان يحتفل بهذا العيد بحضور الخليفة وفي ركابة عشرة آلاف فارس يمتطون الخيول المطهمة، ويلبسون الدروع المحلاة بالذهب، والأحجار الكريمة المكسوة بديباج مطرز باسم الخليفة، ويلي هؤلاء صفوف من الجمال عليها هوادج مزركشة تقودها طائفة من الجند[5].

---

(1) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج1، ص365، 494.

(2) اليوم الذي قتل فيه الحسين بن علي أبي طالب بكربلاء (10محرم سنة61هـ).

(3) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج1، ص431.

(4) المقياس: عبارة عن عمود رخام أبيض مثمن في موضع ينحصر فيه الماء عند انسيابه إليه، وهو (العمود) مقسم إلى اثنين وعشرين ذراعاً، كل ذراع من الاثنتي عشر ذراعاً الأولى مقسمٌ إلى ثمانٍ وعشرين قسماً متساوياً تُعرف بالأصابع أيضاً؛ ابن جبير، الرحلة، ص 29-30؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج 1، ص59؛ أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج 2، ص308.

(5) حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسي، القاهرة، 1946، ص669.

وقدكثر الاهتمام بالغناء والموسيقى في العصر الفاطمي بمصر، فأقبل وجوه القوم في مجالسهم الخاصة ومآبهم على سماع المغنين والمغنيات، وكان معظم المغنيات من الجواري، فيحكي أنه اشتريت من بغداد جارية تجيد الغناء للأمير تميم بن المعزلدين الله بمصر. فغنت له ولجلسائه ولم يزل غناؤها يزيده طرباً حتى قال لها: تمني ما شئت، فتمنت أن تغني ما غنت ببغداد، فلم يجد الأمير بداً من الوفاء لها وأرسلها إلى بغداد[1].

وكان اللعب بالخيال (خيال الظل) معروفاً بمصر في العهد الفاطمي، فيخرج الناس في بعض الأعياد يطوفون شوارع القاهرة بالخيال والتماثيل، كما احترف بعضهم التقليد والمحاكاة وبلغ من حذق بعض الناس بالمحاكاة أنهم يقلدون طوائف السكان على اختلاف نزعاتهم وأجناسهم وكان الأهالي يقبلون على سماع نوادرهم[2].

وكانت المجالس الاجتماعية تعقد في قصور الخلفاء والوزراء والأعيان، حيث يجتمع العلماء والأدباء للمناظرة والمناقشة كما كانت المجالس الخاصة تعقد في داخل المنازل لسماع النوادر والأحاديث[3].

4.2.1 الحياة الثقافية:

اهتم الفاطميون بنشر الثقافة العلمية والأدبية والمذهبية التي تتصل بالمذهب الإسماعيلي كالفقه والتفسير، اهتماما يدعو إلى الإعجاب بفضل تشجيع الخلفاء والسلاطين والأمراء رجال العلم والأدب، كما شجعوا الترجمة من اللغات الأجنبية وخاصة اليونانية والهندية والفارسية، ونضجت ملكة البحث والتأليف. وظهر كثير من الفرق التي اتخذت من العلم والثقافة وسيلة لتحقيق مآربها السياسية والدينية،

([1]) متز، آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج2، ص251.

([2]) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج1، ص207؛ آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج2، ص221.

([3]) متز، آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج2، ص214-215.

وكان للجدل الديني والنقاش العلمي المحتدم بين المعتزلة ودعاة الإسماعيلية وعلماء السنة أثر بعيد في هذه النهضة العلمية التي يتميز بها العصر الفاطمي[1].

وكان للجامع الأزهر أثر كبير في النهوض بالحياة الثقافية في مصر وفي أواخر عهد المعز لدين الله الفاطمي ، حيث ظهرت فكرة الدراسة به حين قام قاضي القضاة أبو الحسن علي بن النعمان المغربي بشرح كتاب "الاقتصار" وهو من تأليف والده ويشتمل على مسائل فقهية استمدها من أئمة أهل البيت، وقام أخوه عبدالله بن محمد بن النعمان سنة 385هـ لقراءة علوم أهل البيت في قصر الخليفة الفاطمي[2].

وعند تسلم الوزير يعقوب بن كلس الوزارة في خلافة العزيز بالله سار على ما كان عليه من الوزراء من قبله، من حيث تشجيع العلوم والآداب،وكان يعقد الحلقات العلمية الكبيرة في بيته في كل يوم خميس لقراءة مؤلفاته، وكان يحضر هذه المجالس والحلقات القضاة والفقهاء والقرّاء والنحاة وعلماء الحديث وكبار رجال الدولة أصحاب المواهب الممتازة ،إضافة إلى الشعراء ،وحين ينتهي الاجتماع ينشدونه مدائحهم[3]. وقد عين يعقوب بن كلس للتدريس في الأزهر خمسة وثلاثين أستاذا للشريعة[4]، وقد فاقت شهرة الجامع الأزهر جميع المساجد الجامعة عندما أشار الوزير ابن كلس على الخليفة العزيز بتحويله إلى معهد للدراسة ، بعد أن كان مقصورا على إقامة الدعوة الفاطمية ، واستأذنه بتعيين بعض الفقهاء للقراءة والدرس على أن يعقدوا مجالسهم بهذا الجامع في كل جمعة من بعد الصلاة حتى العصر ، فرحب العزيز بذلك ورتب لهم رواتب شهرية ثابتة وأنشأ لهم دوراً للسكن بجوار الأزهر[5].

---

(1) حسن إبراهيم، تاريخ الدولة الفاطمية، ص421.

(2) سرور، محمد جمال الدين : تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، القاهرة، 1965، ص154.

(3) حسن إبراهيم، تاريخ الدولة الفاطمية، ص426.

(4) فييت غاستون، القاهرة، مدينة الفن والتجارة، ترجمة : مصطفى العبادي نشر بالاتفاق معه المؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، مكتبة لبنان، بيروت، نيويورك، 1968، ص56.

(5) حسن إبراهيم، تاريخ الدولة الفاطمية، ص426.

واقتدى الفاطميون بالأمويين في الأندلس والعباسيين في بغداد باقتناء الكتب النفيسة النادرة في مختلف العلوم استطاع ابن كلس أن يحبب للخليفة العزيز بالله ، اقتناء الكتب حتى جمع منها الكثير وخصص لها قاعات في قصره سماها "خزانة الكتب" احتلت عدة قاعات في القصر الكبير الشرقي، وقام الجليس بن عبد القوي بالمحافظة عليها وتنظيم عملية الإعارة فيها، وقد ذكر بعض المؤرخين أن هذه الخزانة تحتوى أكثر من مليون وستمائة ألف كتاب في الفقه واللغة والنحو والحديث والتاريخ وعلم التنجيم (الفلك) والروحانيات، والكيمياء التي زادت كتبها الخاصة على ثمانية عشر ألف كتاب، غير أدوات الهندسة والفلك [1]. وينقل المقريزي عن ابن أبي واصل "أن خزانة الكتب" كانت تزيد على مائة وعشرين ألف مجلد [2]، ويذكر أبو المحاسن في النجوم الزاهرة "أنها بلغت مائة ألف مجلد"[3].

إن خزانة الكتب حوت من "كتاب العين" للخليل نيفاً وثلاثين نسخة منها واحدة بخط الخليل نفسه، ومائة نسخة من "كتاب الجمهرة" لابن دريد ويتزايد فيها على التوالي عدد النسخ بمرور السنين من كتاب الطبري حتى يصل الرقم إلى ألف مائتي نسخة عند استيلاء صلاح الدين على الحكم ، وإن الآمر بأحكام الله عند وفاة وزيره الأفضل ابن بدر الجمالي صادر ممتلكاته ، وكان من جملتها خمسمائة ألف كتاب نقلت كلها إلى مكتبة القصر[4].

وكثيراً ما كان الخليفة الفاطمي العزيز بالله يزور خزانة الكتب في القصر الشرقي، فيأتي راكباً ثم يترجل ويأخذ مجلسه فوق دكة منصوبة، ويمثل بين يديه أمين الخزانة يأتيه بمصاحف مكتوبة بأقلام مشاهير الخطاطين ويعرض عليه ما يقترح شراءه من الكتب أو ما يريد الخليفة حمله لقراءته في مجلسه الخاص.

([1]) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج1، ص408-409.

([2]) المصدر السابق، ص409.

([3]) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج4، ص101.

([4]) ابن ميسر، تاريخ مصر، ج 1، ص57، المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج1، ص409، ج2، ص366-367.

وقد حمل القاضي الفاضل عبدالرحيم بن علي البيساني منها مائة ألف مجلد وقفها على مدرسته الشافعية من أصل مجموع الكتب البالغ مائة ألف كتاب أو مائة وعشرين ألف كتاب أو مائتي ألف كتاب حسب ماذكر المؤرخون[1].

وقد روى المقريزي عن مؤلف كتاب "الذخائر" أنه كان في القصر أربعون خزانة من جملتها 18000 مجلد في العلوم القديمة [2] وذكر أبو شامة نقلاً عما أورده ابن أبي طي عن القصر بعد سقوط الخلافة الفاطمية، أن مكتبة الخلفاء كانت من بين محتويات القصر التي باعها الأيوبيون في عهد صلاح الدين.

وقد وصف المؤرخ أبو شامة مكتبة القصر بـ أنها كانت من عجائب الدنيا فقال: "أنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التي كانت في القاهرة في القصر ويقال أنها كانت تشتمل على 600000 كتاب وكان فيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة"[3].

وفي سنة 395هـ/1005م أنشأ الخليفة الحاكم بأمر الله دار الحكمة ، وأطلق عليها هذه التسمية رمزاً إلى الدعوة الشيعية ، لأن هذه المجالس كانت تسمى مجالس الحكمة، وقد زود الحاكم هذه الدار بمكتبة عرفت باسم دار العلم حوت الكثير من الكتب في سائر العلوم والآداب، من فقه ونحو ولغة وكيمياء وطب ، وسمح لسائر الناس على مختلف طبقاتهم بالتردد عليها ، وقد فرشت بمختلف أنواع الفرش وزودت بكل ما يحتاج إليه المعلمون والمتعلمون ، وخصص لها قيِّم لخدمتها، وجماعة من الفراشين يعتنون بفرشها وأجريت الأرزاق على جميع من كان فيها من قراء وفقهاء وخدم[4]. وفي ذلك يقول المقريزي "وحصل في هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التي أمر بحملها إليها من سائر العلوم والآداب ما لم ير مثله مجتمعا لأحد قط من الملوك ، وأباح ذلك لسائر الناس على طبقاتهم ،

([1]) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج1، ص409.

([2]) المرجع السابق، ج1، ص409.

([3]) أبو شامة، عبدالرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان شهاب الدين الملقب بأبي شامة (ت665هـ/1266م)، الروضتين في أخبار الدولتين، القاهرة، ج1، ص200.

([4]) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج1، ص458، ج2، ص342.

فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ومنهم من يحضر للنسخ، ومنهم من يحضر للعلم ، وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر "[1] وكان من بين أساتذة دار الحكمة كثير من أساتذة الحساب والمنطق والطب والنجامة [2] من أمثال ابن يونس المنجم، وأبي علي الحسن بن الهيثم، وعلي بن رضوان[3].

وتعرضت المكتبات الفاطمية إلى محن كثيرة، جراء الفتن التي أصابت البلاد ولا سيما في خلافة المنتصر بالله ، فأصبحت الكتب تؤخذ من القصور الفاطمية سداداً للديون فقام الوزير أبو الفرج محمد بن جعفر المغربي والخطير بن الموفق في الدين ببيع ما حمولته خمسة وعشرين جملاً من الكتب ، وهي سداد لخمسة آلاف دينار عن جاري مماليكهما وغِلْمانيهما في حين أنها تساوي قيمتها مائة ألف دينار ، عدا الكتب التي أخرجت من دار العلم وصارت إلى عماد الدولة ابن أبي الفضل بن المحترق والتي حملها معه إلى الإسكندرية ، ومن ثم نقلت إلى بلاد المغرب بعد وفاته[4].

وما بين سنتي 461هـ/1069م-465هـ/1073م، تعرضت هذه المكتبات إلى السرقة من ضمن محتويات القصر الفاطمي ، إذ ألقي ببعض الكتب في النار وبعضها الآخر في نهر النيل، وترك ما بقي في الصحراء تسف عليها الرياح الرمال حتى صارت تلالاً عرفت فيما بعد بتلال الكتب، وكانت جلود هذه الكتب مجلدةً تجليداً فنياً بجلود الحيوانات، لذا اتخذ العبيد من جلدها نعالاً للأحذية [5]، وأُعيدت المكتبات الفاطمية بعضاً من النشاط، وأعيدت بعض الكتب المسروقة، إضافة للكتب

([1]) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج1، ص158.

([2]) النجامة: علم التنجيم.

([3]) ابن القفطي، جمال الدين علي بن يوسف بن إبراهيم بن عبدالوهاب (ت646هـ/1348م)، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، القاهرة، 1326م، ص443-444؛ ابن أبي اصيبعة، أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة موفق الدين (ت667هـ/1270م)، كتاب عيون الأنباء في أخبار الأطباء، جزءان، القاهرة، 1299-1300، ج2، ص105.

([4]) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج1، ص409.

([5]) المصدر السابق، ج1، ص409.

الجديدة، لأن ما أعطاه السلطان صلاح الدين إلــى القاضــي الفاضــل عبــدالرحيم البيساني، قدر بمائة ألف كتاب وطرح الباقي للبيع(1).

وهدم صلاح الدين الأيوبي دار الحكمة وبنى مكانها مدرسة للشافعية. وذكــر ابن ميسر أنه لما مات الوزير الأفضل ابن أميــر الجيــوش بــدر الجمــالي ســنة 515هـ-1121م، صادر الخليفة الآمر كافة ممتلكاته، فكان من بينها خمسمائة ألف مجلد(2)، ونقلت كلها إلى مكتبة القصر.

ومنذ أن اتخذ الفاطميون القاهرة حاضرة لخلافتهم تجلى فيها نشاط الحركــة العقلية، فنجد الخليفة المعز لدين الله يفتح أبواب قصره للعلماء والطلاب، و سمح لهم بالإطلاع على الكتب المختلفة بمكتبة القصر، وسار الخلفاء من بعده علــى نهجــه، فصاروا يعقدون المجالس الأدبية والعلمية في قصورهم، ويــدعون إليهــا الفقهــاء والعلماء والأدباء، فيتناظرون بحضرتهم، ولم تقل هذه المجالس في قيمتها التعلميــة عن الدروس التي تلقى بالجامع الأزهر أو بدار الحكمة.

وقد أدى مجيء الفاطميين إلى مصر إلى تأسيس مذهب شــيعي لــه أســس ودعائم تخالف ما كان عليه أهل السنة في مصر، فنتج عن ذلك ظهور فريقين مــن العلماء، الفريق الأول مؤيد ومناصر لهم والفريق الثاني: يفند آراءهم(3)؛ وتبع ذلك نشاط علماء الدعوة الفاطمية في تأليف الكتب، وكان لأبي حنيفة النعمان المغربــي وأبنائه، وهم جميعاً من كبار رجال القضاء و الأدب الفضل الأكبر في نشر الثقافــة المذهبية التي تتصل بالدعوة الإسماعيلية.

ولقد عاصر أبو حنيفة الفاطميين في المغرب، وكان مالكي المذهب كســائر أفراد عائلته، تحول إلى المذهب الإسماعيلي، وقدم إلى مصر هو وأبنــاؤه فــي ركب المعز، ويعد أبو حنيفة النعمان من أهم دعاة الدعوة الإسماعيلية، وله عدة كتب في الفقه الإسماعيلي منها "دعائم الإسلام في ذكــر الحــلال والحــرام والقضــايا

---

(1) ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج4، ص81؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج1، ص409، ج2، ص366.

(2) ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص160.

(3) أحمد أمين، ظهر الإسلام، ط3، دار الكتاب العربي، بيروت، 1945م، ج1، ص188.

والأحكام" مضيفاً في هذا الكتاب إلى قواعد الإسلام الخمس الولاية، وهي حب أهل البيت[1] وكان دعاة المذهب الإسماعيلي يرجعون في أحكامهم إلى كتاب "دعائم الإسلام في ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام" في أحكامهم.

وسار الوزير يعقوب بن كلس في كتابه "مصنف الوزير" على نهج كتاب الدعائم وأطنب الدعاة المتأخرون في مدح هذا الكتاب، فذكره الحاكم بأمر الله في كتابه "راحة العقل" حتى صنفه في مرتبة تلي القرآن والحديث[2].

ورغم تعصب الفاطميين للمذهب الإسماعيلي فقد ظهر في عهدهم بعض الفقهاء الشافعية والمالكية والحنفية فكانت حلقة أبي بكر محمد النعالى المالكي المتوفى سنة 380هـ في جامع عمرو بن العاص[3] خير دليل على ذلك.

وكان لتشجيع الخلفاء والأمراء الفاطميين للكتاب والعلماء أكبر الأثر في ظهور طائفة كبيرة منهم في مصر، فاشتهر من المؤرخين في مصر في العصر الفاطمي أبو الحسن علي بن محمد الشابشتي اتصل بخدمة الخليفة العزيز فولاه خزانة كتبه،واتخذه جليساً له ونديماً ومن أشهر كتبه كتاب (الديارات) حيث أورد فيه أخباراً عن الأديرة في العراق والموصل وسوريا والجزيرة ومصر وما قيل عن كل منها من الأشعار[4]. كما نبغ من المؤرخين في هذا العصر الأمير المختار عز الملك المعروف بالمسبحي الذي ولد في مصر سنة 366هـ وتوفي سنة 420هـ وكان قد اتصل بخدمة الخليفة الفاطمي الحاكم 386هـ-411هـ(996-1021) وتقلد (ديوان الترتيب) وهو صاحب كتاب (تاريخ مصر).

ومن أعلام المؤرخين: أبو عبدالله القضاعي الذي ولد بمصر في أواخر القرن الرابع الهجري وتوفي بها سنة 454هـ ويعد من أقطاب الحديث والفقه الشافعي، وقد ولي القضاء وغيره من مهام الدولة في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي وأرسله

---

(1) انظر كتاب حسن إبراهيم حسن وطه شرف، المعز لدين الله إمام الشيعة الاسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في مصر، القاهرة، 1948م، ص258-259.

(2) حسن إبراهيم، تاريخ الدولة الفاطمية، ص476.

(3) أحمد أمين، ظهر الإسلام، ج1، ص197.

(4) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص426.

الخليفة المستنصر بالله الى تيودورا إمبراطورة الدولة البيزنطية سنة 447هـ ليحاول عقد الصلح بينها وبين مصر وله عدة مؤلفات في الفقه والتاريخ منها "مناقب الإمام الشافعي وأخباره" و"المختار في ذكر الخطط والآثار" ويعد هذا الكتاب مصدراً للمقريزي على كتابه "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار"[1]، ومن مؤرخي النظم الإدارية الماوردي المتوفى سنة 450هـ 1058م صاحب كتاب "الأحكام السلطانية"[2] ومن الكتاب والمؤرخين الذين ظهروا في أواخر العصر الفاطمي أبو القاسم علي بن منجب الصيرفي الذي تدرج في الوظائف حتى ولي ديوان الإنشاء للخليفة الآمر بأحكام الله، ومن تصانيفه كتاب "قانون ديوان الرسائل" و"الإشارة إلى من نال الوزارة" الذي ألفه للمأمون البطائحي وزير الآمر، حيث تتبع فيه وزراء الدولة الفاطمية منذ عهد العزيز حتى أيامه، وتوفي ابن الصيرفي في عهد الخليفة الحافظ سنة 542هـ.

وخلاصة القول إن الحركة الثقافية في العصر الفاطمي سارت بخطى واسعة نحو التقدم والارتقاء وربما تفوقت على مثيلتها في العهد الطولوني والإخشيدي، كما تميزت بنشاطها الواسع وقد نبغ في مصر طائفة من علماء الدولة الفاطمية وغيرهم من المؤرخين منهم عريب بن سعد والمسبحي، وابن زولاق، والفلاسفة ومنهم إخوان الصفا وأبو حاتم الرازي وأبو عبدالله بن أحمد النسفي وأبو يعقوب إسحق بن احمد السجستاني، ودعاة ومن أشهر اللذين تقلدوا وظيفية داعي الدعاة أسرة أبي حنيفة النعمان المغربي، والمؤيد في الدين هبة الله الشيرازي، والأدباء الذين أسهموا في النهضة الثقافية لذلك العصر.

([1]) أحمد أمين، ظهر الإسلام، ج1، ص202.

([2]) حسن إبراهيم الدولة الفاطمية، ص519.

(3) ابن ميسر، تاريخ مصر، ص80.

3.1 فضل الكتابة:

تبوأت الكتابة قدراً وشأناً عظيماً عندما نسب الله تعليمها لنفسه، فقال -جل جلاله-: ﴿اقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم﴾[1] ثم بين شرفها بأن وصف بها الحفظة الكرام من ملائكته فقال -عز وجل-: ﴿وإن عليكم لحافظين، كراماً كاتبين﴾[2] ثم زاد ذلك تأكيداً بأن أقسم بالقلم الذي هو آلة الكتابة وما يسطر به.

فقال -عز من قائل-: ﴿ن، والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾"[3] ورحم الله القائل:

إن افتخر الأبطال يوماً بسيفهم وعدوه مما يكسب المجد والكرم

كفى قلم الكتاب عزاً ورفعة مدى الدهر أن الله أقسم بالقلمْ[4]

وقال سعيد بن العاص [5]: "من لم يكتب فيمينه يسرى" وقال معن بن زائدة [6]: "إذا لم تكتب اليد فهي رجل" وقال الزبير بن بكار[7]: "الكتاب ملوك وسائر الناس سوقة" وقال ابن المقفع : "الملوك أحوج إلى الكتاب من الكتاب إلى الملوك" ومن كلام المؤيد[8]: "كُتّب الملوك عيونهم المبصرة ،وآذانهم الواعية ، وألسنتهم الناطقة" وكانت ملوك الفرس تقول : "الكتّاب نُظّام الأمور وجمال الملك وبهاء السلطان وخُزّان

---

(1) سورة العلق، آية4.

(2) سورة الانفطار، آية11.

(3) سورة القلم، آية1.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص75، والقائل أبو الفتح البستي.

(5) من الصحابة، هو أبو عثمان وقيل أبو عبدالرحمن سعيد بن العاص بن أمية وهو أحد الذين كتبوا المصحف لعثمان في الكوفة (تهذيب الأسماء واللغات للنووي)، 218/1.

(6) معن بن زائدة الشيباني ولاه المنصور على بلاد سجستان (فتوح البلدان، 564).

(7) هو أبو عبدالله، الزبير بن بكار (المتوفى سنة256هـ/869م)، مؤرخ راوية صاحب كتاب (جمهرة نسب قريش وأخبارها) الحلة السيراء، 25/1.

(8) هو إسماعيل بن علي بن محمود، الملك المؤيد، صاحب حماه ويعرف بأبي الفداء مؤرخ، وجغرافي قرأ التاريخ والأدب وأصول الدين والفلسفة والطب، توفي سنة 732هـ/1331م، الأعلام319/1، وفوات الوفيات، 183/1.

أمواله، والأ‍لاء على رعيته و بلاده وهم وأولى الناس بالحباء [1] والكرامة، وأحقهم بمحبة السلام"[2].

وفي عهد سابور [3] "وليكن كاتبك مقبول القول عندك رفيع المنزلة لديك ، يمنعه مكانه منك وما يظن به من لطافة موضوعه عندك من الضراعة لأحد والمداهنة له ليحمله من الإحسان إلى محض النصيحة لك ، ومنابذة من أراد عيبك وانتقاص حقك"[4] ولم يكن يركب الهماليج[5] في أيامهم إلا الملك والكاتب والقاضي.

ومن كلام أبي جعفر [6] الفضل بن أحمد " في جملة رسالة الكتابة أسّ الملك ، وعماد المملكة وأغصان متفرقة من شجرة واحدة والكتابة قطب الأدب ، وملاك الحكمة ولسان ناطق بالفصل وميزان يدل على رجاحة العقل. والكتابة نور العلم وفدامة[7] العقول وميدان الفضل والعدل . والكتابة حلية ولبوس وجمال وهيبة وروح جارية في أجسام متفرقة والكتابة أفضل درجة وأرفع منزلة ، ومن جهل حق الكتابة فقد وسم بوسم الغواة الجهلة وبالكتابة والكتاب قامت السياسة والرياسة ، ولو أن فضلاً ونبلاً تصوّرا جميعاً تصورت الكتابة ولو أن في الصناعات صناعةً مربوبةً لكانت الكتابة ربّاً لكل صنعة"[8].

ومن كلامه أيضاً : "للكتّاب أقرت الملوك بالفاقة والحاجة، وإليهم ألقيت الأعنّة والأزمّة وبهم اعتصموا في النازلة والنكبة ،وعليهم اتّكلوا في الأهل والولد

([1]) الحباء: العطاء.

([2]) صبح الأعشى، ج1، ص73.

([3]) أحد ملوك الفرس وهو سابور الأول ابن أردشير حكم من 241-272م (الموسوعة العربية الميسرة: 1061).

([4]) الهماليج: الدواب السهلة الإنقياد والحسنة السير.

([5]) صبح الأعشى، ج1، ص74.

([6]) أبو جعفر، الفضل بن أحمد بن عبدالله، أمير المؤمنين المسترشد بالله بن المستظهر بن المقتدى؛ بويع بالخلافة سنة512هـ/1118م (فوات الوفيات) ج3، ص179.

([7]) الفدامة: المصفاة، (البستان)، ج2، 1787.

([8]) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص66.

والذخائر والعقد وولاة العهد وتدبير الملك وقراع الأعداء ،وتوفير الفيء ، وحياطة الحريم، وحفظ الأسرار، وترتيب المراتب ونظم الحروب"[1].

وقد أورد الحريري في مقامته المعروفة بالفراتية مفاخرة بين كتابتي الإنشاء والأموال فقال على لسان أبي زيد السروجي[2]:

اعلموا أن صناعة الإنشاء أرفع وصناعة الحساب أنفع ، وقلم المكاتبة خاطب وقلم المحاسبة حاطب ، وأساطير البلاغة تنسخ لتدرس، ودساتير الحسبانات تنسخ وتدرس والمنشئ جهينه [3] الأخبار،وحقيبة الأسرار ،ونجّي العظماء ، وكبير الندماء، وقلمه لسان الدولة ، وفارس الجولة:ولقمان الحكمة ،وترجمان الهمة ، وهو البشير والنذير، والشفيع السفير، به تستخلص الصياصي [4]وتملك النواصي ، ويقتاد العاصي ويستدني القاصي؛ وصاحبه بريء من التبعات، آمنٌ كيد السُّعات، مقرِّظ بين الجماعات، غير معرّض لنظم الجماعات"[5].

ولما فتحت الصحابة -رضوان الله عليهم - مصر بعث عمر بن الخطاب رضي الله عنه - إلى عمرو بن العاص يأمره أن لا يستعمل في عمل من أعمال المسلمين كافراً فأجابه عمرو بأن المسلمين إلى الآن لم يعرفوا حقيقة البلاد ، ولم يطلعوا على مقادير خراجها ، وقد اجتهدت في نصراني عارف منسوب إلى أمانة إلى حين معرفتنا بها فنعزله فغضب عمر بن الخطاب وقال : كيف تؤمنهم وقد خونهم الله؟ وكيف تعزهم وقد أذلهم الله؟ وكيف تقربهم وقد أبعدهم الله؟ ثم تلا ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم ﴾[6]. وقال في آخر كتابه "مات النصراني والسلام"[7].

([1]) القلقشندي، صبح الأعشى، ص73.

([2]) المظهر بن سلار السروجي، وهو الذي أنشأ الحريري مقاماته على لسانه كان تلميذاً للحريري في البصرة توفي سنة540هـ/1145م، الأعلام، 253/7.

([3]) أي موثوق الأخبار تقول العرب: "عند جهينه الخبر اليقين النويري"، نهاية الأرب، القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص294.

([4]) هي الحصون، البستان، 1380/1.

([5]) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص87.

([6]) سورة المائدة، آية51.

([7]) القلقشندي، صبح الاعشى، ج1، ص94.

وقد روى أن أبا موسى الاشعري -رضي الله عنه- قدم على عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- ومعه كاتب نصراني فأعجب عمر بخطه وحسابه،فقال عمر: "احضر كاتبك ليقرأ"فقال أبو موسى : "إنه نصراني لا يدخل المسجد " فزبره[1] عمر رضي الله عنه - وقال: "لا تؤمنوهم وقد خونهم الله ولا تدنوهم وقد أبعدهم الله ولا تعزوهم وقد أذلهم الله"[2].

وقد قال الشافعي رضي الله عنه -في كتابه الأم : "ما ينبغي لقاضٍ ولا والٍ من ولاة المسلمين أن يتخذ كاتباً ذمياً ولا يضع الذمي موضعاً يتفضل به مسلماً " وينبغي أن يعرف المسلمون بأن لا يكون لهم حاجة إلى غير دينهم [3]. وجزم الماوردي والقاضي أبو الطيب وابن الصباغ وهم من أعلام الشافعية أنه يشترط في كاتب القاضي أن يكون مسلماً وهو الأصح الذي عليه الفتيا في المذهب [4] وإذا اشترط الإسلام في كاتب القاضي والوالي ففي كاتب السلطان أولى لعموم النفع والضر به.

ويقول أبو الفضل الصدوري: "ولا يحتج بالصابيء وأنه كتب للمطيع والطائع من خلفاء بني العباس ومعز الدولة من ملوك الديلم ، وهما يومئذٍ عمدة الإسلام وعضد الخلافة وهو على دين الصائبة فإن الصابئة كان من أهل ملّةٍ قليل أهلها ليس لهم ذكر ولا مملكة ، وليس منهم محارب لأهل الإسلام ولا لهم دولة قائمة فتخشى غائلته وتخاف عاقبته[5]. ومع ذلك فيجب أن يكون متمذهباً بالمذهب الذي عليه الملك ليكون أنقى جيباً وأنصح غيباً ، فإن المسلمين -وإن جمعتهم كلمة الإسلام- فقد اختص كل واحد منهم بمذهب يباين به بعضهم بعضاً ، حتى حدث بذلك بينهم من التباعد والتنافر قريب مما بين المسلمين والمشركين ، فكما وجب أن يكون المؤهل لهذه المرتبة مسلماً، كذلك يجب أن يكون على مذهب الملك الذي اختص به من بين مذاهب

([1]) زبره: أي انتهره، البستان، 977/1.

([2]) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص94.

([3]) الشافعي، محمد بن إدريس الشافعي، (ت150هـ/767م- 204هـ/819م)، الأم. دار المعرفة، بيروت، ج6، ص210.

([4]) الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص254.

([5]) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص95.

المسلمين ليكون مجتهداً في خدمته مبالغاً في نصيحته ، يمحضه الرأي عن صفو نيّة لا يخالطه كدر وخلوص محبة لا يشوبه مذق، ويكون للملك قد أ حسن لنفسه الاختيار ،وأجاد لدولته النظر، وأراح نفسه من كلفة التحفظ منه والحذر له[1].

4.1 تعريف ديوان الإنشاء:

اسم مركب من مضاف وهو ديوان ، ومضاف إليه وهو ا لإنشاء، أما الدِيوان بكسر الدال فهو اسم للموضع الذي يجلس فيه الكتاب، وأصل كلمة ديوان ، دِوان فأبدلت إحدى الواوين ياء فقيل ديوان وتجمع على دواوين[2].

وفي لسان العرب الديوان مجتمع الصحف، وقال ابن الأثير : الديوان: هو الدفتر الذي يكتب فيه أسماء الجيش وأهل العطاء، وذكر أبو عبيدة وابن الأثير أن ديوان فارسي معرب[3].

ويقال دونته أي أثبته وإليه يميل كلام سيبو يه، ويقول الأصمعي إن ديوان عجمي وعليه اقتصر الجوهري في صحاحه[4].

وذهب قومٌ إلى أن أصله عربي، قال النحاس : "والمعروف في لغة العرب أن الديوان الأصل الذي يرجع إليه ويعمل بما فيه" ومنه قول ابن عباس : "إذا سألتموني عن شيء من غريب القرآن فالتمسوه في الشعر فإن الشعر ديوان العرب"[5].

وأما الإنشاء: فنقول أنشأ الكاتب الكتاب إذا ابتدأ عمله على غير مثال يحتذيه ، قال الله تعالى: "قل يحييها الذي أنشأها أول مرة"[6] وتقول العرب: أنشأ يفعل كذا، وأنشأ يقول كذا، إذا ابتدأ، وأنشأ الله الخلق ينشئهم إنشاءً إذا ابتدأ خلقهم[7].

([1]) ابن الصيرفي، قانون ديوان الرسائل، ص9.

([2]) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج1، ص123.

([3]) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت711هـ/1311م)، لسان العرب، ط3، دار صادر، بيروت، 1994، ج13، ص166.

([4]) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص123، 124.

([5]) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص123.

([6]) سورة يس، آية رقم79.

([7]) الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى بن عبدالله (ت335هـ/946م)، أدب الكتّاب.شرح وتعليق : أحمد حسن لبج، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1415هـ/1994م، ج2، ص119.

والإنشاء مصدر أنشأ، وإضافة الديوان للإنشاء تحتمل أمرين:

الأمر الأول: لأنه تنشأ منه وتبدأ الأمور السلطانية من المكاتبات والولايات.

الأمر الثاني: أن الكاتب ينشيء لكل واقعة مقالاً ، وكان هذا الديوان يسمى قديما ديوان الرسائل ، تسمية بأشهر الأنواع التي تصدر عنه ، ولأن الرسائل أكثر أنواع كتابة الإنشاء وأعمها، وربما قيل ديوان المكاتبات ، ثم غلب عليه هذا الاسم واشتهر به[1].

هناك عدة أنواع للدواوين منها ديوان المجلس، وديوان الجند ، وديوان النظر، وديوان التحقق، وديوان الأحباس،...الخ.

ديوان المجلس: ويسمى "استيماره" دفتر المجلس ويثبت به جميع مصروفات الدولة من رواتب وعطاء ومصروفات الاحتفالات، كما كان من عمله المقارنة بين مصروفات السنين المختلفة.

ديوان التحقيق: مراقبة الدواوين الأخرى.

ديوان النظر: وصاحب هذا الديوان له الولاية والعزل وإليه عرض الأرزاق في أوقات معروفة على الخليفة والوزير، وإليه طلب الأموال واستخراجها والمحاسبة عليها.

ديوان الرواتب: وتحفظ به سجلات برواتب الموظفين سواء كانت أموالاً أو رواتب عينية ابتداء من الوزير حتى أصغر موظف، ويقوم الديوان في مستهل كل عام بعمل ميزانية رواتب الموظفين يرفعها إلى ديوان المجلس.

ديوان الأحباس: لا يخدم فيه إلاّ أعيان كتّاب المسلمين من الشهود المعدّلين، وفيه عدّة مدراء بسبب أرباب الرواتب، وكان فيه كاتبان معينان لنظم الاستيمارات، ويورد في استمارة عمل ما في الرقاع والرواتب، وما يجبى له من جهات كل من الوجهين القبلي والبحري.

ديوان الجيش: وكانت تعرض على صاحبه شؤون الأجناد وخيولهم[2].

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص124.

(2) انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص566-569.

ب. ويقال أن أصل هذه التسمية أن كسرى نظر يوما إلى كتاب ديوانه وهم يحسبون على أنفسهم كأنهم يحادثون ، فقال: ديوانه أي مجانين بلغة الفرس ، فسمي موضعهم بذلك وحذفت الهاء لكثرة الاستعمال تخفيفا فقيل ديوان ، ثم نقل هذا الاسم إلى كتاب هذه الأعمال المتضمن للقوانين والحسابات.

وقيل إنه اسم للشياطين بالفارسية ، وسمي بذلك لسرعة نفوذهم في فهم الأمور ووقوفهم على الجلي منها والخفي وجمعهم لما شذ وتفرق ، ثم نقل إلى مكان جلوسهم لتلك الأعمال[1].

أول من وضع الديوان في الإسلام عمر بن الخطاب -رضي الله عنه - واختلف الناس في سبب وضعه له ، فقال قوم سببه أن أبا هريرة قدم عليه بمال من البحرين فقال له عمر : ما الذي جئت به ؟ فقال: خمسمائة ألف درهم فاستكثره عمر ، فقال له: أتدري ما تقول؟ قال: نعم مائة ألف خمس مرات فقال عمر: أطيب هو ؟ فقال: لا أدري ، فصعد عمر المنبر فحمد الله تعالى و أثنى عليه، ثم قال : أيها الناس قد جاءنا مالٌ كثير فان شئتم كلنا لكم كيلا ، وإن شئتم عددنا لكم عدا ، فقام إليه رجل وقال يا أمير المؤمنين قد رأيت الأعاجم يدونون ديواناً لهم فدون أنت لنا ديواناً.

وقال آخرون بل سببه أن عمر بن الخطاب بعث بعثا، وكان عنده الهرمزان فقال لعمر: هذا بعث قد أعطيت أهله الأموال ، فإن تخلف منهم رجل وآجل بمكانه فمن أين يعلم صاحبك به؟ فأثبت لهم ديوانا، فسأله عن الديوان حتى فسره لهم.

وروى عابد بن يحيى عن الحارث بن نفيل أن عمر -رضي الله عنه - استشار المسلمين في تدوين الديوان، فقال له علي بن أبي طالب -رضي الله عنه -: نقسم كل سنة ما اجتمع إليك من المال ولا تمسك منه شيئا . وقال عثمان بن عفان -رضي الله عنه -أرى مالا كثيرا يتبع الناس ، فإن لم يحصوا حتى يعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الأمر ، فقال خالد بن الوليد : قد كنت بالشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديوانا وجندوا جنودا فدون ديوانا وجند جنوداً ، فأخذ بقوله . ودعا عقيل بن أبي طالب ومخرمه بن نوفل وجبير بن مطعم ، وكانوا من شبان قريش وقال: اكتبوا الناس على منازلهم ، فبدءوا ببني هاشم فكتبوهم ، ثم أتبعوهم أبا بكر

---

(1) ابن خلدون، المقدمة، ص243.

وقومه ثم عمر وقومه ، وكتبوا القبائل ووضعوها على الخلافة ثم رفعوه إلى عمر، فلما نظر فيه قال: لا، ما وددت أنه كان هكذا، ولكن ابدؤوا بقرابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم - الأقرب فالأقرب حتى تضعوا ع مر حيث وضعه الله فشكره العباس -رضوان الله عليه- على ذلك وقال وصلت رحمك[1].

وأما ديوان الخراج والجبايات فبقي بعد الإسلام على ما كان عليه من قبل . ديوان العراق بالفارسية، وديوان الإ نشاء بالرومية، وكتاب الدواوين من أهل العهد ، ولما جاء عبدالملك بن مروان واستحال الأمر ملكاً ، وانتقل القوم من غضاضة البداوة إلى رونق الحضارة ، ومن سذاجة الأمية إلى حذق الكتابة، وظهر في العرب ومواليهم مهرةُ في الكتاب ، أمر عبدالملك بن مروان سليمان بن سعد والي الأردن لعهده أن ينقل ديوان الشام إلى العربية، فأكمله لسنةٍ من يوم ابتدائه [2]. وكان ذلك سنة 81هـ، وذكر الماوردي في الأحكام السلطانية سبب نقله أن أحد كتاب الروم في ديوانه أراد أ ماءً لدواته فبال فيها بدلاً من الماء ، فأدبه وأمر سليمان بن سعد أن ينقل الديوان إلى العربية، فسأله أن يعينه بخراج الأردن سنة ففعل ، وولاه الأردن ، وكان خراجه مائة وثمانين ألف دينار فلم تنقضِ السنة حتى فرغ من الديوان فنقله ، وأتى به إلى عبدالملك بن مروان، فدعا سرجون كاتبه فعرضه عليه فضمه وخرج كئيباً فلقيه قوم من كتاب الروم ، فقال لهم: اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة وقد قطعها الله عنكم[3].

وأما ديوان العراق فأمر الحجاج كاتبه صالح بن عبدالرحمن ، وكان يكتب بالعربية والفارسية، ولقن ذلك عن زادان فروخ كاتب الحجاج قبله ، ولما قتل زادان في حرب عبدالرحمن بن الأشعث استخلف الحجاج صالحاً هذا مكانه ، وأمره أن ينقل الديوان من الفارسية إلى العربية ففعل، وكان عبدالحميد بن يحيى يقول : "لله در صالحٍ ما أعظم منته على الكتاب ، ثم جعلت هذه الوظيفة في دولة بني العباس

([1]) الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص249، 25، مقدمة ابن خلدون، ص243-244.

([2]) مقدمة ابن خلدون، ص244.

([3]) الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص253.

مضافاً إلى من كان له النظر فيه ، كما كان شان بني برمك وبني سهل بن نوبخت وغيرهم من وزراء الدولة [1]. وكان سبب نقل ديوان الفارسية بالعراق إلى العربية، أن كاتب الحجاج زادان فروخ كان معه صالح بن عبد الرحمن يكتب بين يديه ، فوصله زادان بالحجاج فخف على قلبه فقال صالح لزادان: إن الحجاج قربني ولا آمن عليك أن يقدمني عليك ، فقال: لاتظن ذلك فهو إلي أحوج مني إليه ، لأنه لا يجد من يكفيه حسابه غيري، فقال صالح لو شئت أن أحول الحساب إلى العربية لفعلت ، قال فحول منه ورقة أو سطراً حتى أرى ففعل، وبعد مقتل زادان واستخلاف الحجاج لصالح مكانه ذكر له ما جرى بينه وبين زادان ، فأمره أن ينقله، فأجابه إلى ذلك وأجله فيه أجلاً حتى نقله إلى العربية ، فلما عرف مروان شاه بن زادان فروخ ذلك بذل له مائة ألف درهم ليظهر للحجاج العجز عنه فلم يفعل فقال له : قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية ، مما دفع بكاتب مروان عبدالحميد بن يحيى أن يقول عبارته المشهورة في صالح "لله در صالح ما أعظم منته على الكتاب[2].

5.1 مراحل تطور ديوان الإنشاء:

اهتم المسلمون منذ ظهور الإسلام بالمراسلات التي عرفت فيما بعد بالمراسلات الديوانية، ثم اتخذت كلمة "الإنشاء" مدلولاً وظائفياً خاصاً ، أي أنها أصبحت وظيفة لها شروطها ، بل إن الشروط التي تطلب توافرها فيمن يشغلها بلغت حداً لم تبلغه أي وظيفة أخرى اللهم إلاّ "الخلافة" حين وضع الفقهاء لها شروطاً لا تنعقد إلاّ بها[3]، وذكر القلقشندي في صبح الأعشى أنه كان لرسول الله -عليه الصلاة والسلام- ما يزيد على ثلاثين كاتباً ، ومن أشهرهم أبو بكر الصديق ، وعمر

([1]) مقدمة ابن خلدون، ص244.

([2]) الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص253.

([3]) ابن شيث، عبدالرحيم بن علي بن شيث القرشي (ت625هـ/1227م)، كتاب معالم الكتابة ومغانم الإصابة. تحقيق محمد حسين شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988م، ص5.

بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب ، وعمرو بن العاص وخالد بن الوليد،ومعاوية بن أبي سفيان...الخ[1]، وذكر القضاعي في تاريخه "عيون المعارف وفنون أخبار الخلائف " أن زيد بن ثابت كان ترجمان النبي -عليه الصلاة والسلام-، وكان كاتبه إلى الملوك لأنه كان يعرف الفارسية واليونانية وأن الزبير بن العوام ، وجهم بن الصلت كانا يكتبان للنبي أموال الصدقات، وأن المغيرة بن شعبه والحصين بن نمير كانا يكتبان المداينات والمعاملات ، فإن صح ذلك فتكون هذه الدواوين قد وضعت في زمنه صلى الله عليه وسلم -[2]. كما أن الخلفاء الراشدين قد ساروا على نهجه في ذلك ، ويمكننا القول إنَّ: هؤلاء الكتاب في ديوان النبي عليه السلام قد شكلوا بذرة أول ديوان للإ نشاء في الإسلام، وإن لم يكن يتخذ هذا الاسم للدلالة عليه[3].وقد كتب لأبي بكر الصديق عثمان بن عفان وزيد بن ثابت ، وكتب لعمر بن الخطاب زيد بن ثابت وعبدالله بن خلف وكتب لعثمان بن عفان مروان بن الحكم ، وكتب لعلي بن أبي طالب عبد الله بن أبي رافع وسعيد بن نجران الهمداني ، وكتب للحسن بن علي، عبدالله بن أبي رافع، وسعيد بن نجران الهمداني[4].

قد ظل الكاتب من أهم الموظفين المدنيين في العصر الأموي ، إذ كان بمثابة الوزير في معاونة الخليفة أو الوالي ، غير أنه كان بمنأى عن الأخطار التي تهددت الوزير العباسي فيما بعد . وكان إلى جانب ذلك يقوم بأنواع الكتابة الإ دارية المختلفة، ومن الثابت أن غير المسلمين كان يشارك المسلمين في القيام بهذه المهمة ، لا سيما قبل نقل الدواوين إلى العربية في عهد عبدالملك بن مروان. وظل لفظ "الكاتب" يطلق طوال عصر بني أمية على متولي أمر المكاتبات حتى ولي الخلافة أبو العباس ، السفاح فاستوزر أبا سلمة الخلال ،وتوالت الوزراء من بعده لخلفاء بني العباس [5].

([1]) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص126.

([2]) القضاعي، محمد بن سلامة بن جعفر الشافعي (ت454هـ/1062م)، عيون المعارف وفنون أخبار الخلائف. تحقيق: جميل عبدالله محمد المصري، 1995، ص238.

([3]) ابن شيث، معالم الكتابة ومغانم الإصابة، ص5-6.

([4]) القلقشندي، صبح الاعشى، ج1، ص126.

([5]) ابن شيث، معالم الكتابة ومغانم الإصابة، ص6.

ومنذ تولي معاوية بن أبي سفيان الخلافة ومن بعده من الخلفاء وأمر ديوان الإنشـــاء في زمن كل واحد منهم مفوض إلى كاتب يقيمه إلى حين انقراض دولـــتهم ، وكـــان الخليفة هو الذي يوقع على القصص بنفسه ، والكاتب يكتب ما يبرز إليه من توقيعـــه ويصرفه بقلمه على حكمه، ومن أشهر كتابهم عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان بن محمد آخر خلفائهم[1].

وفي العصر العباسي زادت المكاتبات الإدارية زيادة دعـــت إلـــى تنظيمهـــا وإسناد مهمتها لديوان خاص أخذت اختصاصاته تتحدد على مر الـــزمن ، وفـــي بداية الأمر كان الإشراف عليه للوزير مباشرة ، إلا أنه نظراً إلى تضخم أعمال الديوان من جهة، وزيادة أعباء الوزير من جهة ثانية ، كان الـــديوان ينفصـــل عـــن إشراف الوزير المباشر أحياناً لينفرد به رئيس خاص.

ثم انتهى الأمر بأن أصبح من القواعد المقررة أن يستقل بالإشراف على هذا الديوان رئيس خاص، كان أقل من الوزير في المرتبة، ويرجع إليه في أموره[2].

وبفضل الكتابة في ديوان العصر العباسي وجد جماعة من البلغـــاء صـــاروا مضرب المثل في الكتابة والبلاغة أمثال: يحيى بن خالد وزير الرشيد ، والحسن بن سهل وزير المأمون، وعمرو بن مسعدة كاتب المأمون ،وابن المقفع ، وســـهل بـــن هارون،وابن العميد وزير ركن الدولة البويهي ،والصاحب بن عباد ،وأبي إســـحاق الصابئ وغيرهم[3].

وكان رئيس الديوان يسمى تبعاً لتسمية الديوان في العصور المختلفة [4] ففـــي أوائل العصر العباسي كان يسمى "صاحب ديوان الرسائل" أو المكاتبات[5] ثم ســـمي

([1]) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص127.

([2])ابن شيث، معالم الكتابة ومغانم الإصابة ، ص6-7؛ حسن باشا، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، ط1، دار النهضة العربية، مصر، 1978م، ص11.

([3]) ابن شيث، معالم الكتابة ومغانم الإصابة، ص7.

([4]) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص137.

([5]) المقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، ج2، ص225.

رئيس أو صاحب ديوان الإنشاء "وقد كان يجمع أحياناً لفظ الديوان فيقال "صاحب دواوين الإنشاء بالممالك الإسلامية" كما كان مصطلح العصر المملوكي[1].

أما في الدولة السامانية حيث عرف الديوان أحياناً باسم "عميد الملك" فقد كان رئيسه يسمى "خواجيء عميد" وفي العصر السلجوقي عرف الديوان باسم "الطغــرا" وأطلق على رئيسه اسم "طغرائي"، وفضلاً عن ذلك فقد لقب رئيس الديوان بألقــاب أخرى فلقب أحياناً بكاتب السر في العصر العباسي ، وبكاتب السر وكاتب الدســت في العصر الفاطمي وبصاحب القلم الأعلى في المغرب [2]. وعلــى نمــط ديــوان الإنشاء في عاصمة الخلافة العباسية قامت في الولايات المختلفة دواوين مماثلة تنظم المكاتبات الإدارية بين الولاية والخلافة وبين الولاية وغيرها من الولايات الأخرى والبلاد الأجنبية[3]. على أن رسوم الكتابة الديوانية المعتبرة (من عناية باللغة وفنون الأدب والبلاغة والتمثل بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأشعار القدماء وأمثــال العرب وهي رسوم ذات طابع عربي) ما لبثت أن زحزحت عن مكانتها تبعاً لتدهور الأوضاع السياسية وضعف قوة العرب ، فحل محلها -بعد سقوط الخلافة العباســية 656هــ- كتابات ديوانية بالمغولية والفارسية حيث آلت مقاليــد الأمــور لهــؤلاء الأعاجم.

على أنه في سياق التدهور الذي أصاب ديوان الإنشاء الإسلامي والكتابــة الديوانية- قدر لمصر أن تشكل استثناءً تاريخياً بارزاً استطاع أن يــنهض بــديوان الإنشاء ويطوره حتى بلغ أعلى درجاته من الكمال والضبط وانتظام القواعــد فــي العصر المملوكي[4].

كانت المرحلة الأولى في قيام الديوان في مصر مصاحبة للفتح العربي لهــا . وفي هذه المرحلة لم يحدث تطور معتبر في الكتابة لقرب مصر من العهد البيزنطي ولغلبة اللسان القبطي على العامة وبعض الخاصة، وقد أعاد القلقشندي صرف الهمة

([1]) حسن الباشا، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، ص11.

([2]) المقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، ج2، ص226.

([3]) ابن شيث، معالم الكتابة ومغانم الإصابة، ص7.

([4]) المرجع السابق، مقدمة المحقق ص8.

عن الديوان في هذه الـ مرحلة إلى أن المسؤولين اقتصروا منذ بداية الفتح العر بـي حتى أوائل ا لدولة الطولونية (م الفتح سنة 21هـ. وبدأ حكم أحمد بن طولون سنة 254 هـ) على المكاتبات لأبواب الخلافة و النزر اليسير من الولايات . قال: (ولذلك ليصدر عنهم ما يدون في ا لكتب ولا يتناقل بالألسنة)[1]. وقد كان الولاة في مصر يقتصرون في أول الأمر على اتخاذ كتاب يتول ون إنشاء الكتب عنهم إلى الخلافة حتى جاء أحمد بن طولون فكان أول من أنشأ ديوان المك اتبات في مصر وذلك على مثال ديوان الإنشاء في عاصمة الخلافة جرياً على سياسته العامة في تنظيم دولته بمصر على منوال الإدارة في بغداد وسامراء [2]، وكذلك كان للأمراء الإخشيديين في مصر ديوان يشرف على مكاتباتهم، وفي أواخر الدولة الإخشيدية نظ كافور ديواناً فرعياً في سوريا وربما كان الأول من نوعه ، وأُسند رياسته إلى يعقوب بن كلس[3].

ومنذ بداية العصر الفاطمي أخذ نفوذ ديوان الإنشاء يزداد تدريجياً، إذ كانت مصر قد أصبحت ذات علاقات تجارية وسياسية مستقلة بكثير من الدول و الولايات ما بين إسلامية ونصرانية كان من مهمة ديوان الرسائل إنشاء المك اتبات الصادرة باسم رئيس الدولة ، وتصديرها، و تسلم يرد إليه من شكاوي وكتب ، وعرضها عليه، وتوجيه تعليقاته عليها إلى الجهات المختصة ،والعمل على تنظيم ذلك كله . ومع ارتفاع شأن ديوان الإنشاء في هذا العهد ،وفي العهود التاليـة، يُعد الديوان يعتبر على حد تعبيرنا اليوم (أميناً عاماً لرئاسة الدولة) مطلعاً على أسرارها، عالما بمسالك علاقاتها الداخلية ودبلوماسياته الخارجية [4]، ولعل ابن الصيرفي يشير إلى ذلك عندما و صف الكتاب بأنهم (رؤساء الدولة)[5]. ومما له مغزاه في الإشارة إلى أهمية ديوان

([1])القلقشدي، صبح الأعشى ، ج1، ص129؛ انظر القلقشندي وكتابه صبح الأعشى : دراسة حسن حبشي عن ديوان الإنشاء وتطوره.

([2]) حسن باشا، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، ص16.

([3]) ابن شيث، معالم الكتابة ومغانم الإصابة، ص9.

([4]) المرجع السابق، ص9.

([5]) ابن الصيرفي، الإشارة لمن نال الوزارة، ص30.

ديوان الإنشاء أن أحد الوزراء الفاطميين وهو محمد بن جعفر المغربي اقتــرح أن يولى ديوان الإنشاء بعد صرفه من الوزارة و كان ذلك خروجاً على العرف ، إذ لم يكن من المعتاد استخدام الوزراء بعد صرفهم[1].

ولم تكن هذه الوظيفة مقصورة على المسلمين في العصر الفاطمي ، بل كــان يليها الكثير من أهل الذمة ، شأنها في ذلك شأن معظم وظائف الدولة التي لا تتصــل اتصالا مباشرا بشؤون الشرع أو الحرب[2].

قد عرف هذا الديوان بأسماء مختلفة في عصر الفاطميين : فقد كان يطلق عليه في أول الأمر اسم ديوان الرسائل ، ومن هنا سمى ابن الصيرفي كتابه (قانون ديوان الرسائل) كما كان يطلق عليه أحيانا اسم ديوان المكاتبات[3] وقد ورد ذلك الاسم في كتاب "الإشارة لمن نال الوزارة "لابن الصيرفي كذلك .كما سماه ابن الصيرفي أيضا ديوان الإنشاء، ولم يعرف الاسم الأخير في مصر قبل العصر الفاطمي[4].

وكان موظفو الديوان من الأهمية بحيث وصفهم ابن الصيرفي بــأنهم رؤســاء الدولة[5] وكثيراً ما كانت وظيفة الكتابة تؤهل للوزارة :فقد سبقت الإشارة إلى تولي يعقوب بن كلس الذي أصبح أول وزير فاطمي - الكتابة بالديوان الفرعــي الــذي أسسه كافور بسوريا كما كتب الجرجرائي في أول حياتــه لقائــد القــواد أســتاذ الأستاذين غين[6] وكان متولياًديوان الإنشاء في العصر الفــاطمي يعــرف بكاتــب الدست، وكاتب السر (ومن اللقب الأخير محرفاً قالوا كاتم الســر) ومــن الألقــاب الفخرية العامة التي خوطب بها لقب الشيخ الأجل[7]، وربما كان لفظ الشيخ رمــزاً

---

(1) حسن باشا، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، ص18.

(2) ابن شيث، معالم الكتابة ومغانم الإصابة، ص9

(3) ابن الصيرفي، أمين الدين أبو القاسم علي بن منجب (ت542هــ/1147م)، قــانون ديــوان الرسائل والإشارة لمن نال الوزارة . تحقيق أيمن فؤاد سيد، ط 1، الدار المصرية اللبنانيــة، 1410/1990م، المقدمة، ص8.

(4) ابن شيث، معالم الكتابة ومغانم الإصابة، ص10.

(5) ابن الصيرفي، الإشارة لمن نال الوزارة، ص30.

(6) المصدر نفسه، ص68.

(7) المقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، ج1، ص402.

لمهمته المدنية، ولفظ الأجل و- هو من ألقاب الوزراء - مشيراً إلى أهميته ورفعة قدره السياسية، وفضلاً عن ذلك لقب كثير من رؤساء الديوان وكتبته بنعوت فخريه خاصة: فكان فهد بن إبراهيم النصراني يلقب بالرئيس[1]، وأبو نصر بن عبدون النصراني بالكافي[2]، وزرعه بن عيسى بن نسطورس النصراني بالشافي[3]، وأخوه صاعد بن عيسى بن نسطورس بالأمين الظهير شرف الملك تاج المعالي ذي الجدين، وأبو الحسين عمار بن محمد بالأمير الخطير رئيس الوزراء، وابن خيران بولي الدولة[4]. هذا وقد اتخذت النعوت الشخصية في أواخر العصر الفاطمي نمطاً خاصاً سرى الأخذ به إلى العصر الأيوبي، حين صاروا يلقبون بالفاضل والرشيد والعماد وما أشبه ذلك، ثم شملهم عموم التلقيب بالإضافة إلى الدين: ذلك التلقيب الذي فشا استعماله في أعقاب العصر السلجوقي. وظل ذلك معمولاً به حتى آخر عصر المماليك[5].

ولا يغيب عن ذهن الباحث أهمية ديوان الإنشاء الفاطمي في تاريخ هذا الديوان بمصر إذ كانت تقاليده في حقيقة الأمر أصلاً لما وجد في العصر الأيوبي وعصر المماليك. فضلاً عن أن كثيراً منها ظل معمولاً به في هذين العصرين حتى فيما يتعلق بمقاطع الورق. وربما يرجع الفضل في ذلك إلى القاضي الفاضل الذي خدم في ديوان الإنشاء الفاطمي، وتمرس بأنظمته قبل أن يستولي صلاح الدين على مقاليد الحكم ويسند إليه رئاسة ديوان الإنشاء بل والإشراف على الحكومة نفسها في بعض الأحيان[6].

انتعش ديوان الإنشاء في بداية عصر الأيوبيين انتعاشاً ملحوظاً كان من مظاهره توسع في اختصاصاته، وضم دواوين الشام إلى إشرافه، وسمو المشرف عليه في

([1]) ابن الصيرفي، الإشارة لمن نال الوزارة، ص58.

([2]) المقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، ج2، ص15.

([3]) المرجع السابق، ج2، ص287.

([4]) ابن الصيرفي، الإشارة لمن نال الوزارة، ص64، 65، 66.

([5]) القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص417.

([6]) حسن باشا، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، ص20.

بعض الأحيان إلى منصب النيابة عن السلطان، وكثرة أعماله نظراً إلى حالة النشاط الذي شمل الدولة في ذلك الوقت مما كان منها علو شأن موظفيه علواً دام لبعضهم مع الأجيال، وأدى هذا كله إلى الإقبال على تعلم فنون الكتابة و التدرب على الإنشاء. و لذلك الانتعاش أسباب بعضها كان في تقاليد الديوان الفاطمي نفسه ، وكفاءة موظفيه، وبعضها جاءت وليدة الظروف الجديدة التي صاحبت تأسيس الدولة الأيوبية(1). وديوان الإنشاء الفاطمي الذي صار أصل الديوان الأيوبي- لم يكن خامل الذكر بل كان على العكس ذا قيمة أدبية عالية -فضلاً عن أهميته الحكومية - فقد كان الفاطميون يولون عناية كبرى لفن الإنشاء،ولا يولُّون ديوان إنشائهم إلا رئيساً على علم تام بأصول هذا الفن، لذا كان كبار موظفي الدولة يدربون أولادهم في هذا الديوان حتى يتعلموا فن الكتابة، ويتدربوا على الإدارة ويلموا بخبرة عملية في كل منها (2) تساعدهم في مستقبل حياتهم الأدبية والإدارية. ولقد ظلت نظم ديوان الإنشاء وتقاليده معمولاً بها في عصر الأيوبيين فقد كان من سياسة صلاح الدين عدم المساس بنظم الفاطميين الإدارية، فأبقى على ديوان الإنشاء بتقاليده وأنظمته.

وساعد على استمرار تقاليد الإنشاء الفاطمية من جهة ، وازدهار شأن الديوان من جهة أخرى أن تولى رئاسته قبيل القضاء على الخلافة الفاطمية وظل مسيطراً عليه بعد مجيء صلاح الدين أديب فذ قدر له أن يلعب أهم الأدوار في تاريخ الحركة الإدارية والأدبية في ذلك العصر ألا وهو القاضي الفاضل(3).

والقاضي الفاضل هو محي الدين أبو علي عبد الرحيم بن علي بن الحسن بن الحسن بن أحمد بن المفرج بن أحمد البيساني الأصل ، وقد ولد في عسقلان سنة 549هـ، حيث ولي أبوه القاضي الأشرف البيساني الحكم والقضاء للفاطميين،

---

(1) ابن شيث، معالم الكتابة ومغانم الإصابة، ص10، 11.

(2) أبو شامه، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل (ت665هـ/1266م)، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، القاهرة، 1287هـ، ج1، ص192.

(3) ابن شيث، معالم الكتابة ومغانم الإصابة، ص11.

وقد أورد أبو شامة توقيعاً كتب إليه في ذي القعدة سنة541هـ عن الخليفة العاضد الفاطمي[1].

وبعد أن حفظ القاضي الفاضل القرآن و ديوان الحماسة بعثه أبوه في خلافة الحافظ إلى القاهرة ليتعلم في ديوان المكاتبات تحت إشراف رئيسه إذ ذاك القاضي الموفق أبي الحجاج يوسف ابن الخلال [2] الذي قام بتدريبه ، وأشرف على تعليمه فنون الإنشاء، وكلفه بأن يحل شعر الحماسة -أي ينثره-[3] وفضلاً عن ذلك اشتغل أيضاً مع القاضي أبي الفتح محمود بن إسماعيل بن قادوس كاتب الإنشاء بالحضرة المصرية: فكان يسايره أثناء ركوبه من القصر و إليه يحاوره في فنون الكتابة والأدب والشعر[4].

وبعد أن نجح القاضي الفاضل في إثبات كفايته في مباشرة وظيفة الكتابة التحق بخدمة الديوان وتدرج في عدة وظائف إدارية منها وظيفة كاتب بمال مصر [5] وفي ديوان الجيش بالقاهرة وفي ديوان الإنشاء بالإسكندرية[6]، ثم استقر في وظيفة كاتب الإنشاء لأسد الدين شيركوه بعد استقلاله بالوزارة، فأظهر كفاءة نادرة . فلما خلف صلاح الدين عمه في وزارة العاضد استبقاه في رئاسة ديوان الإنشاء وقربه إليه. وأخذ مركز القاضي الفاضل يرتفع عند السلطان صلاح الدين الأيوبي حتى عهد إليه بالإشراف على الإدارة في مصر و ركن إلى آرائه في أهم أمور الحرب والسياسة[7] ثم أنابه في حكم مصر حين انصرف إلى حرب الصليبيين عند عكا.

([1]) أبو شامه، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، ج1، ص50.

([2]) الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت764هـ/1362م)، الوافي بالوفيات. الآستانه، 1931، ج15، ص16.

([3]) أبو شامه، الروضتين في أخبار الدولتين، ج1، ص192.

([4]) أبو شامه، الروضتين في أخبار الدولتين، ص103.

([5])ابن خلكان، ج 1، ص284-286، أبو شامة، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ، ج1، ص130.

([6]) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج15، 16.

([7]) أبو شامه، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، ج1، ص273، ج2، ص176.

لقد وصل القاضي الفاضل إلى ما وصل إليه من مركز ممتاز عند صلاح الدين ببراعته في الإ نشاء، ولمامه بفنون الكتابة ، إلى جانب خلاصه وكرم أخلاقه ، وحسن رأيه. ولقد بلغ عجاب صلاح الدي ن بمكاتبات القاضي الفاضل أن كان يقول "فتحت البلاد بمكاتبات القاضي الفاضل لا بالعساكر [1]. ولقد ذاع صيت رسائل القاضي الفاضل حتى أقبل الأباء على اقتنائها وجمعها في مجلدات واتخاذها مثالاً يحتذون به ويستشهدون به.

وكان لتعاون القاضي الفاضل مع عماد الدين الكاتب الأصبهاني أثر كبير في التوفيق بين تقاليد الديوانين : الفاطمي والعباسي ، بحيث استفاد الديوان الأيوبي من غنى التجربتين معاً . والبعض يعتبر أن العماد الأصبهاني هو الركن الثاني الذي قام عليه ديوان الإنشاء الأيوبي[2].

وفضلاً عن هاتين الشخصيتين اللتين لعبتا دورهما في الرقي بديوان الإنشاء وطبعه بطابع خاص ظل ملازماً له حتى عصر المماليك، عملت ظروف أخرى على ازدياد العناية بديوان الإنشاء في هذا العصر ،ولعل أهمها كان محاربة صلاح الدين للفلسفة والأبحاث العقلية الـ تي كانت إحدى وسائل الدعاية لى المذهب الفاطمي ، والتي كانت بغيضة عند فقهاء السن ة حتى لقد ورد عن الشافعي قوله "لئن ألقى الله بكل خطيئة -عدا الشرك- أهون من أن ألقاه بعلم الكلام[3].

وانصرف العلماء لميادين أخرى من ميادين العلم يستنفدون فيها طاقاتهم ، ووجدوا متسعاً لهم في فنون الكتابة والإنشاء : فأقبلوا على التأليف فيها والتفنن في وضع القوانين المنظمة لمصطلحها ، والتي اتخذت في غالب الأحيان صورة توجيهات لكتاب ديوان الإ نشاء وقد شهد عصر الأيوبي ين، ومن بعده عصر المماليك، أساطين المقننين لديوان الإنشاء أمثال: ابن الأثير في كتابه "المثل السائر" وابن شيث في كتابه "معالم الكتابة ومغانم الإ صابة" وشهاب الدين ابن فضل الله

([1]) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج15، ص16.

([2]) حسن باشا، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، ص24.

([3]) المرجع السابق، ص27.

العمري في كتابه "التعريف بالمصطلح الشريف" والقلقشندي في موسوعته الكتابية "صبح الأعشى في صناعة الإنشا"[1].

ولما قامت دولة المماليك أصبح متولي ديوان الإنشاء من المكانة المرموقة في الدولة بحيث يصاحب السلطان في حله وترحاله ويرافقه في حروبه وغزواته، ويعرف من أسرار الدولة ما قد يخفي على الخاصة من أعوان السلطان. وفي هذا العصر أصبح صاحب ديوان الإنشاء ينقل من مصر إلى الشام -إذ كان هذان الجناحان للعالم الإسلامي قد اجتمعا منذ مدة طويلة تحت سلطة مركزية واحدة- فقد نقل الناصر محمد بن قلاوون القاضي شرف الدين بن فضل الله العمري من مصر إلى كتابة السر في دمشق بعد أن كان قد كتب للأشرف بن قلاوون وأخيه الناصر محمد وللعادل كتبغا والمنصور لاجين والمظفر بيبرس[2].

وثمة ظاهرة بارزة في العصر المملوكي وهي التفريع الهائل في الإدارة وتضخم جهازها، وقد رافق هذه الظاهرة اتجاه إلى تجميع السلطة الإدارية في ديوان الإنشاء، وبذلك نستطيع أن نتصور الأعباء الكبيرة التي كانت ملقاة على عاتق هذا الجهاز، وفي الوقت نفسه علينا أن نلاحظ مستوى القدرات الأدبية والإدارية التي كان يتوجب توفرها فيمن يكون على رأسه.

وحفلت هذه الفترة بأسماء كثيرين من كتاب الإنشاء قد يرجع البعض منهم إلى أسرة واحدة، ويأخذ كل منهم نفسه بالاهتمام بالفنون اللازمة التي تهيئه لتولي وظيفة كاتب السر، ولعل أبرز هؤلاء أسرة ابن فضل الله العمري التي تولى خمسة أفراد منها وظيفة صاحب ديوان الإنشاء أو كاتب السر في دولتي المماليك البحرية والبرجية لمدة تزيد على القرن من الزمان، وقد شغل أفراد هذه الأسرة هذه الوظيفة عن جدارة أدبية واستحقاق لا يرقى إليهما الشك[3].

يجب الإشارة إلى أن الإنشاء الديواني في كل القرون كان على نسق واحد لم يتغير تغيراً يذكر إلاّ في عصر الانحطاط اللغوي ومن مشاهيره.

([1]) ابن شيث، معالم الكتابة ومغانم الإصابة، ص12.

([2]) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص131.

([3]) المرجع السابق، ج1، ص131، 132.

1. ابن العميد من أهل القرن الرابع وزير بني بويه في فارس.
2. الصابي من أهل القرن الرابع كاتب الخلافة في بغداد.
3. القاضي الفاضل من أهل القرن السادس وزير الدولة الأيوبية بمصر.
4. ابن الخطيب من أهل القرن الثامن وزير غرناطة وأديب الأندلس.

ويمكننا القول إنَّ ديوان الإنشاء -من حيث التنظيم والفاعلية والدور القيادي على مستوى الإدارة في الدولة- وأن مصطلح الكتابة -من حيث التقنين والدقة والضبط- قد بلغا أوجهما حتى استطاع خليل الظاهري أن يقرر في أواخر العصر المملوكي بأن العناية بمصطلح الكتابة بلغت من الدقة والضبط بحيث صار لا يمكن التلاعب بها أو التغيير أو التبديل فيما كان يصدر من ديوان الإنشاء ، حيث أصبح هذا الديوان "على الأوضاع المحكمة والقانون المستقيم بين رتب الناس ومنازلهم"[1].

(1) الظاهري، خليل بن شاهين (لا تا)، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، اعتنى بتصحيحه بولس رآويس، طبعة باريس، 1894م، ص101.

الفصل الثاني
شروط الكتاب وصفاتهم في ديوان الإنشاء

كان لاتساع نطاق ديوان الإنشاء وللأهمية الكبرى التي احتلها صاحبه أن حددت له شروط ومواصفات جعلت الشخص الذي يحتل هذا المنصب يختار من فئة معينة ووفقا لشروط محددة، ومن أهم الصفات التي اتخذت لصاحب ديوان الإنشاء ما يأتي:

1. صفات شخصية 2. صفات خلقية 3. ومؤهلات معرفية.

1.2 الصفات الشخصية:

الصفة الأولى: الإسلام:

لقد شدّد ابن الصيرفي في كتابه الذي يعد دستورا لديوان الإنشاء الفاطمي على هذه الصفة حيث يقول "يجب أن يكون دينه الإسلام ، لأنه من الملك بمنزلة الوزير، والوزير مشتق من المؤازرة، والمؤازرة هي المساعدة والمعاونة والمظاهرة. ولا يجب أن يتخذ لهذا الأمر من يخرج عن دين الإسلام"[1]. لقوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾[2] والمقصود بالبطانة من يطلع على حال المسلمين كالاطلاع على مقدار خزائنهم من المال، وإعداد جيشهم من الخيل والرجال.

وأول ما يتجنب الملك من نهى الله جل جلاله عن اتخاذه غير المسلم ولياً، بل الواجب على الإطلاق وخاصة بحكم الوقت الحاضر أن لايطّلع على أسراره من

(1) ابن الصيرفي، قانون ديوان الرسائل، ص 8، وقد تولى ديوان الإنشاء الفاطمي جماعة من أفاضل الكتاب وبلغائهم ما بين مسلم وذمي على عكس ما شرط ابن الصيرفي . راجع القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص130؛ السيوطي، حسن، المحاضرة ج2: ص232.

(2) سورة المائدة، آية رقم 51.

يخالف شريعة الاسلام لقرب دار العدو. قال أبو الفضل الصوري[1] في تذكرته" وإن من الفطرة التي جبل كل أحد عليها حنين كل شخص من الناس الى من يرى رأيه ويدين دينه، وهذا أمر يجده كل أحد في نفسه "[2] ومع ذلك فإن كاتب الرسائل أحوج الناس إلى الاستشهاد بكلام الله تعالى في أثناء محاوراته وفصول مكاتباته ، والتمثل بنواهيه وأوامره، والذكر لقوارعه وزواجره، وهو حلية الرسائل وزينة الإنشاءات، وهو الذي تشدّ قوى الكلام ويثبت صحته في الإفهام؛ فمتى خلت منه كانت عاطلة من المحاسن عارية من الفضائل ؛ لأنه الحجة التي لا تدحض، والحقيقة التي لا ترفض[3].

فإذا كان الكاتب من الذمة لم يكن لديه من ذلك شيء ، وأتت كتبه مغسولة من أفضل الكلام، وخالية مما يتبرك به أهل الإيمان والإسلام، ومقصرة عن رتبة الكمال، ومنسوبة إلى العجز والإخلال[4].

ويقول القلقشندي: فإن تُعاطى الكاتب الذمي حفظ شيء منه وكتبه فقد أبيحت حرمة كتاب الله تعالى وانتهكت ولمكن منه من يتخذه هزواً ولعباً ، والله سبحانه وتعالى يقول﴿لا يمسه إلا المطهرون﴾ [5] فقد صح أنه لا يجوز أن يرقى إلى هذه الرتبة إلا مسلم"[6].

الصفة الثانية: وفور العقل وجزالة الرأي:

فإن العقل أسّ الفضائل وأصل المناقب ومن لا عقل له فلا انتفاع به ، وكيف لا يكون كذلك وهو المستشار في كبار الأمور والمشارك في النظر في سداد الثغور ، وإنما كلام المرء ورأيه على قدر عقله ، فإذا كان تام العقل كامل الرأي وضع الأشياء في مكاتباته ومخاطباته مواضعها وأتى بالكلام من وجهه ، وخاطب كل أحد

([1]) أحد كتاب الإنشاء أيام القاضي الفاضل.

([2]) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص93.

([3]) ابن الصيرفي، قانون ديوان الرسائل، ص8.

([4]) المصدر السابق، ص9.

([5]) سورة الواقعة، آية79.

([6]) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص95.

عن السلطان بما تقتضيه الحال التي يكون عليها ، فيشدّ ما كانت الشدة نافعة، ويلين حين يكون إلى اللين محتاجاً ، ويوبخ من لا يقتضي فعله أكثر من التوبيخ، ويذم من تعدى إلى ما يستوجب الذم ويأتي بأصناف المكاتبات التي تقتضيها اختلاف الحالات واقعة مواقعها صائبة مراميها[1].

الصفة الثالثة: قوة العزم وعلو الهمة، وشرف النفس:

فإنه يكاتب الملوك عن ملكه و كل كاتب يجذبه طبعه وجِبِلَّتُهُ وخيمُهُ [2] في الكتابة إلى ما يميل إليه، ومكاتبة الملوك أحوج لشيء إلى التفخيم والتعظيم، وذكر التهاويل الرائعة والأشياء المرغِّبة، فكلما كان الكاتب أقوى نفساً وأشد عزماً وأعلى همة، كان في ذلك أمضى وعليه أقدر، ومهما نقص في ذلك نقصت من كتابته[3].

الصفة الرابعة: العلم بمواد الأحكام الشرعية، والفنون الأدبية وغيرها:

إذ الجاهل لا تمييز له بين الحق والباطل، ولا معرفة ترشده إلى الطرق المعتبرة في الكتابة، ومن سلك طريقا بغير دليل ضل، أو تمسك بغير أصل زل[4].

الصفة الخامسة: الكفاية لما يتولاه:

لأن العاجز يدخل الضرر على المملكة ويوجب الوهن في أمر المسلمين ، وربما عاد عليهم عجزه بالوبال، أو أدى بهم ضعفه إلى الاضطراب والاختلال[5].

الصفة السادسة: التكليف:

كما في كاتب القاضي فلا يعول على الصبي في الكتابة إذ لا وثوق به ولا اعتماد عليه[6].

---

(1) ابن الصيرفي، قانون ديوان الرسائل، ص10.

(2) الخيم: أي السجية، البستان، 736/1.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص100.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص99.

(5) المصدر السابق، ص99.

(6) المصدر السابق، ص97.

الصفة السابعة: الحرية:

فقط شرطوا في كاتب القاضي أن يكون حرّ ا لما في العبد من النقص ، فلا يعتمد في كل القضايا ولا يوثق به في كل الأحوال ، فكاتب السلطان كذلك بل أولى كما تقدم[1].

الصفة الثامنة: العدالة:

فلا يجوز أن يكون الكاتب فاسقا فإنه بمنزلة كبيرة ،ورتبة خطيرة ، يحكم بها في أرواح الناس وأموالهم لأنه لو زاد أدنى كلمة أو حذف أيسر حرف ، أو كتم شيئا قد علمه أو تأول لفظا بغير معناه أو حرَّفه من جهته، أدى ذلك إلى ضرر من لا يستوجب الضرر، ونفع من يجب الإضرار به ، وكان قد موّه على الملك حتى مدح المذموم،وذم الممدوح فمتى لم يكن له دين يحجزه عن ارتكاب المآثم ويزعه عن احتقاب المحارم[2] كان الضرر به أكثر من الانتفاع ، وأثر فعله من الاضرار ما لم تؤثره السيوف ولله القائل:

ولضربة من كاتب ببنانه	أمضى وأقطع من رقيق حسام
قوم إذا عزموا عداوة حاسد	سفكوا الدما بأسنة الأقلام

وأيضا فانه لا يقبل قول الفاسق فتضيع به المصالح ، وربما حمله الفسق وعدم الاكتراث بأمور الدين على وهن يدخله على الدين بقلمه، أو ضرر يجلبه للسانه.

وأيضاً فالكتابة ولاية شرعية والفاسق لا تصح توليته شيئا من أمور المسلمين، وقد أطلق القاضي أبو الطيب والماوردي من أصحابنا الشافعية باشتراط العدالة في كاتب القاضي فيجب مثله في كاتب السلطان بل أولى على ما تقدم[3].

([1]) المصدر السابق، ص97.

([2]) احتقاب: احتقب فلان المحارم: جمعها (البستان 550/1).

([3]) المصدر السابق، ص 97، 98.

الصفة التاسعة: الذكورة:

فقد صرح الشافعية، بانه يشترط في كاتب القاضي أن يكون ذكرا وإذا اشترط ذلك في كاتب القاضي ففي كاتب السلطان أولى كما تقدم من عموم النفع والضرر به[1].

2.2 الصفات الخَلْقية والخُلُقية:

ذكر ابن مماتي في كتابه ((قوانين الدواوين)): "ينبغي أن يكون أديبا، حاد الذهن، قوي النفس، حاضر الحس، جيد الحدس، حلو اللسان، له جراءة يبث[2] بها الأمور على حكم البديهة، وفيه تؤدة يقف بها فيما لا يظهر له على حد الروية شريف الأنفة، عظيم النزاهة، كريم الأخلاق، مأمون الغائلة"[3].

قال محمد بن إبراهيم الشيباني[4]: من صفة الكاتب اعتدال القامة، وصغر الهامة وخفة اللهازم[5] وكثاثة اللحية، وصدق الحس ولطف المذهب، وحلاوة الشمائل، وخطف الإشارة، وملاحة الزي. قال: ومن حاله أيضا أن يكون بهي الملبس، نظيف المجلس، ظاهر المروءة، عطر الرائحة، دقيق الذهن، حسن البيان، رقيق حواشي اللسان، حلو الإشارة، مليح الإستعارة، لطيف المسلك، مستفره[6]، المركب، ولا يكون مع ذلك فضفاض الجثة، متفاوت الأجزاء، طويل اللحية، فإنهم زعموا إن هذه الصفات لا يليق بصاحبها الذكاء والفطنة، ولله القائل:

([1]) الشافعي، محمد بن إدريس (150هـ-204هـ)، الأم، دار المعرفة، بيروت، ج6، ص210؛ الخالدي، بهاء الدين بن لطف الله، المقصد الرفيع المنشأ الهادي لديوان الانشاء، مخطوط رقم 1027، مكتبة الجامعة الأردنية، ص85.

([2]) لعل صحة العبارة "يبت بها في الأمور.

([3]) ابن مماتي، شرف الدين أبي المكارم (ت606هـ/1209م)، قوانين الدواوين، جمع وتحقيق، عزيز سوريا عطية، مطبعة مصر، 1943م، ص66.

([4]) محمد بن إ براهيم الشيباني، أديب أندلسي من كتاب الولاة من أهل قرطبة بمراكش 564هـ/1168م، الأعلام 296/5.

([5]) مفردها لهزمه، وهو عظم ناتيء في اللحي تحت الأذن (البستان، 2206/2).

([6]) أي يركب دابه فارهة نشيطة (اللسان، 521/3).

وشمول كأنما اعتصروها   من معاني شمائل الكتاب

وقال ابو الفضل الصوري [1]ينبغّي أن يكون الكاتب فصيحا بليغا أد يبا سنيَّ الرتبة،قوي الحجة ،شديد العارضة [2]حسن الألفاظ ، له ملكة يقتدر بها على مــدح المذموم وذم المحمود[3].

قال ابن مماتي : "أمّا حسن الهيئة ، فانه يرجع في ذلك إلى ما يعلمه من حال مخدومه من ايثار نعمته على من هو في خدمته او اخفائها "[4].

وهذا قد يخالف ما تق دم: من أنه ينبغي أن يكون الكاتب بهي الملبس. وبالجملة ففصاحة اللسان،وقوة البيان ، والتقدم في صناعة الكتابة هو الــذي يرفــع الرجــل ويعظمه دون أثوابه البهية ،وهيئته الزاهية ، بل ربما كان التعظيم في الفضل لــرث الحالة المنحط الجانب أكثر، وترجيحه على غيره أقرب [5].

3.2 الشروط الفنية المطلوب توافرها في كتاب ديوان الإنشاء:

أول وأعظم صفة لمتولي كتابة ديوان الإنشاء هي حفظ كتاب الله عز وجل

– فنجد عبد الحميد الكاتب الذي يعد من أوائل المهتمين بقواعد الكتابة يقــرر فــي رسالته التي يوجهها للكتاب في عصره أنه ينبغي على من يريد مزا   ولة هذه المهنــة أن يبدأ بعلم كتاب الله فقال :"تنافسوا معشر الكتــاب فــي صــ نوف العلــم والآداب وتفهموا في الدين وابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل "[6].

([1]) أبو الفضل الصوري، أحد كتاب الإنشاء أيام القاضي الفاضل.

([2]) هي اللسن والبيان والبديهة (البستان، 1554/2).

([3]) القلقشندي، صبح الأعشى، ص100.

([4]) ابن مماتي، قوانين الدواوين، ص66.

([5]) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص100، 101.

([6]) الجهشياري، أبي عبدالله محمد بن عبدوس (ت331هــ/942م):الوزراء والكتاب، تحقيــق : مصطفى السقا وآخرون، ط2؛ مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1980، ص75.

وهذا ابن قتيبة ينكر على الأدباء الذين لا ينظرون في كتاب الله حيث يقول ولكنه طال عليه أن ينظر في علم الكتاب"[1].

ونجد أيضا ابن الصيرفي يولي هذه الصفة اهتماما كبيرا حيث يقول : ويجب أن يكون حافظا لكتاب الله – تعالى – أو قيما بقراءته إذا قرأه، فإنه شديد الحاجة إليه"[2].

ولكن ابن الأثير جعلها الأداة السادسة من الأدوات التي يفتقر إليها الكاتب فقال: فإذا ركّب الله تعالى في الإنسان طبعا قابلا لهذا الفن فيفتقر حينئذ إلى ثمانية أنواع من الآلات "[3].

وعدَّدها "وذكر النوع السادس وهو حفظ كتاب الله و والتدرب باستعماله وإدراجه في مطاوي الكلام "[4] وهذا الشهاب محمود الدين الحلبي في كتابه حسن التوسل، إلى صناعة الترسل يقول " وأول ما يبدأ به من ذلك " حفظ كتاب الله وادامة قراءته وملازمة درسه وتدبر معانيه حتى لا يزال مصورا في فكره، دائرا على لسانه ممثلا في قلبه ، ذاكراً له في كل ما يرد إليه من الوقائع التي تحتاج إلى الاستشهاد به فيها ويفتقر إلى إقامة الأدلة القاطعة به عليها وكفى بذلك معينا في قصده، ومغنيا له عن غيره"[5].

---

(1) ابن قتيبة، أبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، الكوفي (ت276هـ/889م): أدب الكاتب، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المقدمة، ص3.

(2) ابن الصيرفي، قانون ديوان الرسائل، ص11.

(3) ابن الأثير الجزري (ت637هـ/1239م): المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تقديم : روحي الفيصل، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية السورية، دمشق، 1996، ج1، ص32.

(4) المصدر السابق، ص33.

(5) محمود الحلبي، شهاب الدين محمود الحلبي (ت725هـ/ 1324م): حسن التوسل في صناعة الترسل. تحقيق ودراسة: أكرم عثمان يوسف، منشورات الثقافة والإعلام، دار الرشيد، العراق،1987م، ص72؛ الخالدي، المقصد الرفيع المنشأ الهادي لديوان الإنشا، ص17.

قال تعالى: "ما فرطنا في الكتاب من شيء"[1].

الثاني:حفظ أحاديث وأخبار الرسول : وحول ذلك يقول ابن الصيرفي " ويكون حافظا لأخبار الرسول والأئمة من ذريته – صلى الله عليهم أجمعين – قيما بها أو بأكثرها "[2]وبالنسبة لعبارة الأئمة من ذريته قد قالها بسبب تشيعه – إن ثبت أنه كان شيعيا –ولرب سائل يسأل لماذا لم يأخذ عبدالحميد الكاتب بهذه الصفة ويعدها شرطا لازما لمن يريد مزاولة هذه المهنة ، فيجيب إحسان عباس بقوله: "إن هذه الرسالة صدرت في فترة لم يكن فيها الاهتمام بتدوين الحديث قد بدأ"[3].

أما ابن الأثير فقد جعل هذه الصفة نوعا سابعا حيث يقول : " حفظ ما يحتاج إليه من الأخبار الواردة عن النبي – صلى الله عليه وسلم – والسلوك بها مسلك القران الكريم في الاستعمال "[4] ويقرر الشهاب محمود هذه الصفة ويجعلها في المرتبة الثانية حيث يقول : " ويتلو ذلك الاستكثار من حفظ الأحاديث النبوية ، - صلوات الله على قائلها وسلامه - وخصوصا في السير والمغازي والأحكام ، والنظر في معانيها وغريبها وفصاحتها وفقه ما لابد من معرفته من أحكامها ، لينفق منها عن سعة ويستشهد بكل شيء في موضعه ويحتج بمكان الحجة ويستدل بموضع الدليل، ويتصرف عن علم بموضوع اللفظ ومعناه "[5]. وينكر ابن قتيبة في مقدمة كتابه على الكاتب ان لايتحلى بهذه الصفة حيث يقول " ولكنه طال عليه أن ينظر في علم الكتاب وفي أخبار الرسول _ صلى الله عليه وسلم وصحابته "[6].

---

(1) الأنعام، آية38.

(2) ابن الصيرفي، قانون ديوان الرسائل، ص11.

(3) إحسان عباس، يحيى الكاتب، وما يتبقى من رسائله ورسائل سالم أبي العلاء، ط 1، دار الشروق، عمان، 1988، ص185.

(4) ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب، ص33.

(5) شهاب الدين الحلبي، حسن التوسل إلى صناعة الترسل، ص 78.انظر الخالدي : المقصد الرفيع، ص18.

(6) ابن قتيبة، أدب الكاتب، المقدمة، ص3.

ويرى ابن قتيبة أنّ الأحاديث التي ينبغي للكاتب حفظها الأحاديث المتعلقة بالفقه وأحكامه: كقوله – صلى الله عليه وسلم – البينة على المدعي، واليمين على المدَّعَى عليه، والخراج بالضمان .....إلخ "[1] وحاجة الكاتب لا تختص بأحاديث الأحكام ودلائل الفقه، بل تتعلق بما هو أعم من ذلك خصوصا الحكم والأمثال والسير وما أشبه ذلك مما يكثر الاستشهاد به في الكتابة والاقتباس من معانيه"[2].

ويضيف ابن الأثير حيث يقول: "واعلم أن أكثر الأحاديث تدخل في الاستعمال، ولا يخرج عنه إلا القليل النادر، ولقد دار بيني وبين بعض علماء الأدب في هذا الأسلوب كلام فاستوعروه واستنكروه، وقال هذا لا يتهيأ إلا في الشيء اليسير من الأخبار النبوية – فقلت لا بل يتهيأ في الأكثر منها"[3].

الثالث: معرفة تاريخ العرب والعجم وأيام الملوك، فلقد طلب عبد الحميد الكاتب في رسالته إلى الكتاب بأن يطلعوا على ذلك حيث يقول: مخاطباً الكتاب: "ورووا الأشعار، وأعرفوا غريبها ومعانيها، وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرتها، فإن ذلك معين لكم على ما تسمون إليه بهممكم"[4] وقد عدَّ عبدالحميد الكاتب علم التاريخ من العلوم الثمانية، التي تمثل الأساس الثقافي الذي يصلح أن يكون متكأً للمسؤولية[5] يعني مسؤولية الكتابة ويتشدد ابن قتيبة في ذلك حيث يقول "ولا بد له -أي الكاتب- مع ذلك من دراسة أخبار الناس"[6] أما ابن الصيرفي فيشترط على من يتولى ديوان الرسائل أن يكون راوياً لأخبار الملوك وأيام العرب ووقائعهم وأخبار العجم وسائر الأمم وما جرى في أيام الملوك الماضين، وما حدث من وزرائهم وكتابهم وقوّادهم وأخبارهم، فإنه أحوج الناس إلى ذلك" وتسمى هذه الثقافة بالثقافة التاريخية الواسعة.

([1])ابن قتيبة، أدب الكاتب، المقدمة، ص11.

([2]) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص245، 246.

([3]) ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص128–129.

([4]) الجهشياري، الوزراء الكتاب، ص75.

([5]) إحسان عباس، عبدالحميد الكاتب، ص184.

([6]) ابن قتيبة، أدب الكاتب، المقدمة، ص11.

أما ابن الأثير فقد دمج شرطين في شرط واحد فقال : " والنوع الثالث معرفة أمثال العرب وأيامهم ومعرفة الوقائع التي وردت في حوادث خاصة بأقوام "[1]

ويهمنا من هذا الشاهد هو الجانب التاريخي الذي يختص بأيام العرب ووقائعهم وهذا لا غنى لمن يريد مزاولة الكتابة.

وأما شهاب الدين محمود الحلبي فقد قال:" ثم النظر في أيام العرب ووقائعهم وحروبهم وتسمية الأيام التي كانت بينهم ومعرفة يوم كل قبيلة على الأخرى ، وما جرى بينهم في ذلك من الأشعار والمناقضات، لما في ذلك من العلم ، بما يستشهد به من واقعة قديمة أو يرد عليه في مكاتبه من ذكر أيام مشهورة ، أو ذكر فارس معين"[2].

ولما كان كتابه "حسن التوسل في صناعة الترسل" كتاباً تعليمياً فقد أورد فيه بعض الأمثلة التي يمكن اتخاذها من قبل الناشئ نموذجاً للمحاكاة.

ثم يشترط في موضع آخر بما يعرف بالثقافة التاريخية حيث يقول : " ثم النظر في التواريخ ، ومعرفة أخبار الدول، لما في ذلك من الاطلاع على سير الملوك وسياساتهم وذكر وقائعهم ومكائدهم ، في حروبهم "[3] فإن الكاتب إذا لم يكن عارفاً بالوقائع عالماً بما جرى منها لم يدر كيف يجيب عما يرد عليه من مثلها ، ولا يقول إذا سئل عنها.

الرابع: حفظ الأشعار:

يرى عبد الحميد الكاتب أن معرفة الشعر وعلومه من الأساسيات التي لا غنى للكاتب عنها. إذ يقول:" وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها "[4].

أما ابن الصيرفي فقد اشترط هذه الصفة واعتبرها ضرورية للكاتب وقال:"يجب أن يكون حافظاً للأشعار ، راوياً للكثير منها ، يستشهد بما عساه يحسن

([1]) ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ص32.

([2]) شهاب الدين محمود الحلبي، حسن التوسل، ص 86. انظر الخالدي، المقصد الرفيع المنشأ الهادي لديوان الإنشا، ص28.

([3]) المصدر السابق، ص88.

([4]) الجهشياري، الوزراء الكتاب، ص75.

الاستشهاد به في بعض المواضع ، فإنه للمنظوم من البهجة في النفس والوقع في القلب ما ليس للمنثور ، وربما حل منه ما يحتاج إليه فأتى به منثوراً في أثناء رسائله، وطي انشاءاته فكم معنى بديع رائع قد حظي به المنظوم دون المنثور . وإن كمل لأن يكون محسناً لنظم الشعر مجيداً فيه كان أجمل لصفاته وأكمل لأدواته "[1].

أما ابن الأثير فقد اعتبرها الآلة الرابعة من الآلات التي يفتقر إليها الكاتب :- الاطّلاع على تأليفات من تقدمه من أرباب هذه الصناعة المنظومة منه والمنثورة ، والتحفظ للكثير منه "[2] وأخذ ابن الأثير يعدد الفوائد المتوخاة من ذلك ومنها :"إنه يعلم منه أغراض الناس ونتائج أفكارهم ، وتصبح المعاني ملقاة بين يديه يأخذ منها ما يريد ويترك ما لا يريد وهنا نلمح تركيز ابن الأثير على المعاني، ثم إن اطلاعه على المنظوم والمنثور يشحذ قريحته ويذكي فطنته "[3].

واشترط الشهاب محمود على الكاتب الذي يريد مزاولة صناعة الكتابة أن يحفظ أشعار العرب ،ومطالعة شروحها ،واستكشاف غوامضها ، والتوفر على ما ختاره العلماء بها منها :-"الحماسة" و"المفضليات"و"الأصمعيات" و"ديوان الهذليين " وقد عبر الشهاب محمود عن الفوائد المتوخاه من حفظ الأشعار في نظره ليست كالفوائد التي عند ابن الأثير فهي عنده الاستشهاد ،وكثرة النقل ، وصقل مرآة العقل وافتزاع الأمثال، والاحتذاء في اختراع المعاني ، والاطلاع على أصول اللغة وشواهدها ويذكر الأمثلة على ذلك من أقوال الصحابة وأخبارهم ويذكر بعض شعراء العرب الذين كانوا يضمنون قصائدهم بأنصاف أبيات للعرب ويذكر بعض أشعارهم[4].

واشترط أيضاً حفظ جانب جيد من شعر المحدثين كأبي تمام والبحتري وابن الرومي معللاً ذلك بدوران الصناعة في كلامهم ،ودقة توليد المعاني في أشعارهم ، وقرب أسلوبهم من أسلوب الخطابة والكتابة وخصوصاً المتنبي الذي كأنه ينطق عن

([1]) ابن الصيرفي، قانون ديوان الرسائل، ص11.

([2]) ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج1، ص32.

([3]) المصدر السابق، ج1، ص50.

([4]) الشهاب محمود، حسن التوسل في صناعة الترسل، ص89-91.

ألسنة الناس في محاوراتهم ، وقد يكتفي بالبيت الواحد عنده في الدلالة على المقصد، أو بلوغ الغرض في الجواب "[(1)] "ويستخدم الكاتب الشعر في كتاباته بثلاثة طرق:

أ- الاستشهاد: وهو أن يورد البيت من الشعر أو غيره من خلال الكلام المنثور.

ب- التضمين: وهو أن يضمن البيت الكامل من الشعر لبعض القرينه.

جـ - الحل: وهو أن ينثر الشاعر بيت الشعر ويستعين بها في كلامه المنثــور، وحله بأخذ الناثر البيت من الشعر فينثره بلفظه من غير زيادة وهو أدنى مراتب الحل"[(2)].

ولم يكتف بحفظ الشعر بل طالب الكاتب بالنظر في رسائل المتقــدمين، دون حفظها، لما في النظر فيها من تنقيح القريحة وإرشاد الخاطر والنسج علــى منــوال جيد، ويعلل النهي عن حفظها بمخافة أن يتكل الخاطر على ما في حاصله ويســتند الفكر إلى ما في مودعه، ويستشهد علىذلك ما كتبه إبراهيم بن العباس الصــولي، "إذا كان للمحسن من الثواب ما يقنعه، وللمسيء من النكال ما يقمعه، بذل المحسن ما يجب عليه رغبة، وإنقاذ المسيء إلى ما كلفه رهبة".

ويستشهد بأقوال كثيرة منها لأبي نصر العتبــي وبــديع الزمــان الهمــذاني والقاضي الفاضل، ولكنه فضل حفظها لمن أراد المحاضرة دون الإنشاء" [(3)].

الخامس: علوم اللغة العربية:

لقد اهتم عبد الحميد في رسالته إلى الكتاب بعلوم اللغة العربية ، فقد عدَّها من العلوم المهمة والضرورية التي تلزم كاتب الرسائلفقال : " وابدأوا بعلم كتاب الله – عز وجلوالفرائض ثم العربية فإنها ثقاف ألسنتكم "[(4)]. أي بها تســتوي وتســتقيم ألسنتكم.

وينكر ابن قتيبة في مقدمة كتابه على الكاتب الذي لا ينظر في علم اللغة حيث يقول:لكنّه طال عليه أن ينظر في علم الكتاب .... وفي علوم العرب ولغاتها

([1]) شهاب الدين محمود، حسن التوسل في صناعة الترسل، ص92-94.

([2]) ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج1، ص128.

([3]) شهاب الدين محمود، حسن التوسل في صناعة الترسل، ص94-95.

([4]) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص75.

وآدابها"(1)كذلك اشترط ابن الصيرفي على الكاتب أن يكون قد قرأ من العربية والتصريف أكثرها حيث يقول :"فإنه أحوج الناس إلى هذه العلوم . فإن كان مبرزاً فيها قيماً بها على الكمال فزيادة في فضله، وإن حصل منها أن يكون متكلماً بألفاظ الفصحاء لاحقاً برتبة البلغاء لا يخفى عنه شيء مما يجري في المكاتبات ويكثر في المحاورات من غير أن يتبع حوشيّ الكلام(2) ووحشيّ الألفاظ وغريب اللغة(3).

واهتم ابن الأثير بهذه الصفة ووضعها في كتابه في المرتبة الأولى فقال عن علم النحو إنه "في علم البيان من المنظوم والمنثور بمنزلة أبجد في تعليم الخط، وهو أول ما ينبغي إتقان معرفته لكل أحد ينطق با للسان العربي ليأمن معرة اللحن ، ولكنه لم يشترط الإلمام بكل جزئياته وفروعه ،بل اشترط معرفة النحو إذا كان ضابطاً لمعاني الكلام حافظاً لها من الاختلاف "(4).

وكذلك بالنسبة لعلم الصرف"فإنه إذا لم يكن عارفاً به لم تفسد عليه معاني كلامه وإنما تفسد عليه الأوضاع ، وإن كانت المعاني صحيحة ،وقد تطرق إلى ذكر أبي نافع بن أبي نعيم وهو من أكبر القرّاء السبعة قدراً –وأفخمهم شأناً - قال في "معايش ": "معائش" بالهمزة؟ ولم يعلم الأصل في ذلك،وإذا كان هذا شأن أولي العلم فكيف الجهال الذين لا معرفة لهم بها"(5).

ويحتاج الكاتب إليه أي النحو والصرف،لأنه قانون اللغة ، وهو أول شيء يجب على دارس اللغة العربية أن يتقنه " وهو أول ما ينبغي معرفته لكل أحد ينطق باللسان العربي "(6).

واشترط الشهاب محمود هذا الشرط فقال :"ويتبع ذلك قراءة ما يتفق من كتب النحو التي يحصل لها المقصود من معرفة العربية ، ويكب على الإ عراب ويلازمه

---

(1) ابن قتيبة، أدب الكاتب، المقدمة ص3.

(2) حوشيّ الكلام: وحشية وغريبة، لسان العرب، باب حوش.

(3) ابن الصيرفي، قانون ديوان الرسائل، ص11-12.

(4) ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج1، ص33-35.

(5) المصدر السابق، ج1، ص38-40.

(6) الخالدي "المقصد الرفيع المنشأ الهادي لديوان الإنشا" مخطوط، ص120.

ويجعله دأبه ليرتسم في فكره ،ويدور على لسانه،وينطلق به عقال قلمه وكلمه .... ويكون على بصيرة من عباراته ، فإنه لو أتى من البلاغة بأتم ما يكون ولحن ذهبت محاسن ما أتى به ،وانهدمت طبقة كلامه ، ونصحه بقراءة ما يتهيأ من كتب مختصرات اللغة مثل الفصيح، وكفاية المتحفظ، وغير ذلك من كتب الألفاظ[1].

السادس: البلاغة والفصاحة.

يرى ابن الصيرفي في من يتولى كتابة الإنشاء " أن يكون من البلاغة والفصاحة إلى أعلى رتبة وأسمى منزلة ، لأنه لسان السلطان الذي ينطق به ويده التي يكتب بها ورب كاتب بليغ أصاب الغرض في كتابته فأغنى صاحبه عن الكتائب،فإذا كان جيد الفطرة صائب الرأي ،حسن الألفاظ،تتأتى له المعاني الجزلة ، فيجلوها في الألفاظ السهلة، ويختصر بحيث يكون الاختصار كافياً ويطيل حين لايجد من الإطالة بدّا، ويهدد فيملأ القلوب روعة، ويشكر فيلقي على النفوس جذلاً ومسرة.

ثم إن كتب إلى ملك كبير ،وذي رتبه خطير ، عظّم مملكة صاحبه وفخمها في معاريض كلامه من غير أن يوجد أن ذلك قصده، واستصفى نية الكاتب واستجلب مودته في أثناء الخطاب وإن لم يظهر ذلك مطلبه بل يريه أن الحظ والنصيب الأوفى إذا تم ذلك معه"[2].

ويرى أبو الهلال العسكري فضائل هذا العلم فيقول : " ولهذا العلم فضائل مشهورة، منها أن صاحب العربيه إذا أخل بطلبه، وفرّط في التماسه، ففاتته فضيلته وعلقت به رذيلة فوته، عفّى على جميع محاسنه وعمّى سائر فضائله ...ثم قال : وقبيح لعمري بالعربي الصليب والقرشي الصريح ألا يعرف إعجاز كتاب الله إلاّ من الجهة التي يعرفه منها الزنجيّ والنبطيّ، أو أن يستدل عليه بما استدل به الجاهل الغبيّ"[3].

([1]) الشهاب محمود، حسن التوسل في صناعة الترسل، ص80-81.

([2]) ابن الصيرفي، قانون ديوان الرسائل، ص10.

([3]) أبو هلال العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل (ت395هـ/ 1004م): كتاب الصناعتين الكتابة والشعر . تحقيق:مفيد ميحه، ط 2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1984، ص10.

ويرى الشهاب محمود " أن من الامور الخاصة التي تزيد معرفتها قدرة ويزين العلم بها نظمه ونثره فإنها من المكملات لهذا الفن ،وإن لم يضطر إليها ذو الذهن الثاقب،والطبع السليم، والقريحة المطاوعه،والفكرة المنقحه ، والبديهه المجيبة والرواية المتصرفة لكن العالم بها متمكن من أزمة المعاني يقول عن علم، ويتصرف عن معرفه، وينتقد بحجه،ويتخير بدليل ، ويستحسن ببرهان، ويصوغ الكلام بترتيب فمن ذلك علم المعاني البيان والبديع والكتب المؤلفه في إعجاز الكتاب العزيز المجيد"[1].

وقال القلقشندي:" اعلم أنه لما كانت صناعة الكتابة مبنية على سلوك سبل الفصاحة واقتفاء سنن البلاغة ، وكانت هذه العلوم هي قاعدة عمود الفصاحة ومسقط حجر البلاغة، اضطر الكاتب إلى معرفتها ،والإحاطة بمقاصدها، ليتوصل بذلك إلى فهم الخطاب وإنشاء الجواب،جارياً في ذلك على قوانين اللغة في التركيب "[2].

وهذا العلم وإن شحن به أئمة الكتاب كتبهم - فإنه ليس مختصاً بفن الكتابة، بل هو آله لكل كلام اقتضى البلاغة، كما أن المنطق آله لكل العلوم العقلية التي يحتاج فيها إلى تصحيح الفكر، وقد أكثر الناس من المصنفات فيه كالرّماني والجرجاني وغيرهما، وأكثر اعتماد أهل الزمان فيه على " تلخيص المفتاح" للقاضي جلال الدين القزويني[3].

وقد اختلف القدماء في تحديد صفة البلاغة فقال ابن المقفع، : " البلاغة اسم يجري في وجوه كثيرة منها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون شعراً، ومنها ما يكون سجعاً، ومنها مايكون خطباً ... والإيجاز هو

([1]) شهاب الدين محمود، حسن التوسل في صناعة الترسل، ص100.

([2]) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 1، ص219، 220. انظر الخالدي، المقصد الرفيع المنشأ الهادي لديوان الإنشا، ص20.

([3]) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص223-224.

البلاغة"[1]وقال ابن المعتز :- "البلاغة هي البلوغ إلى المعنى، ولمـــا يطـــل ســـفر الكلام"[2].

السابع: حفظ خطب البلغاء من الصحابة وغيرهم (ومخاطباتهم).

قال أبو جعفر النحاس : " وهي آكها يحتاج الكتّاب إليه [3] وذلك أن الخطب من مستودعات سر البلاغة، ومجامع الحكم بها تفاخرت العرب في مشاهدهم، وبها نطق الخلفاء والأمراء على منابرهم، بها يتميز الكلام ، وبها يخاطب الخاص والعام، وعلى منوال الخطابة نسجت الكتابة، وعلى طريق الخطباء مشت الكتّاب " [4].

إن ما تكلمت به العرب من أهل المدر والوبر من جيد المنثـــور ومـــزدوج الكلام، أكثر مما تكلمت به من الموزون إلاّ أنه لم يحفظ من الـ منثـــور عشـــرة ولا ضاع من الموزون عُ شره، لأن الخطيب إنما كان يخطب في المقام الذي يقوم فيـــه مشافهة الملوك، أو الحالات، أو الإ صلاح بين العشائر، أو خطبة النكاح، فإذا انقضى المقام حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه، بخلاف الشعر فإنه لا يضـــيع منـــه بيـــت واحد[5].

وهناك سبب آخر لرفض النثر وقلة اعتنائهم به، بل لسهولة حفـــظ الشـــعر وشيوعه في حاضرهم وباديهم وخاصهم وعامهم بخلاف الخطابة فانه لـــم يتعاطهـــا منهم إلاّ القليل النادر من الفصحاء المصاقع، فلذلك عز حفظها وقلّ عنهم نقلها[6].

ويشترط الشهاب محمود في كتابه حسن التوسل حيث يقول : " ويتصل بذلك حفـــظ خطب البلغاء من الصحابة وغيرهم ومخاطبتهم، ومحاورتهم، ومكاتباتهم، وما ادعاه

---

(1) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت255هـــ/868م): البيان والتبيين. تحقيـــق: درويـــش جويدي، ط1، المكتبة العصرية، صيدا، 1999، ص79.

(2) ابن شيث، معالم الكتابة ومغانم الإصابة، ص92.

(3) النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل (ت338هـــ/949م): صناعة الكتاب. تحقيق: بدر أحمد ضيف، ط1، دار العلوم العربية، بيروت، 1990، ص253.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص253.

(5) المرجع السابق، ج1، ص254.

(6) المصدر السابق، ص254.

كل منهم لنفسه أو لقومه وما ينقضه عليه خصمه، لما في ذلك من معرفة الوقائع بنظائرها وتلقي الحوادث بما شاكلها، واقتداء بطريقة من فلج على خصمه واقتفاء آثارمن اضطر إلى عذر، أو إبطال دعوى، أو إثباتها، فلحن بحجته، وتخلص بلطف مما أخذه، ودقة مسلكه، وحسن عبارته"[1].

الثامن: حفظ الأمثال:

إن الكاتب يحتاج إلى النظر في كتب الأمثال الواردة عند العرب، نثراً ونظماً، في الكتب المصنفة في ذلك، كأمثال الميداني، والمفضل بن سلمة الضبيّ وحمزة الأصبهاني، وغيرهم ... وذلك أن المثل له مقدمات وأسباب قد عرفت، وصارت مشهورة بين الناس معلومة عندهم؛ وهذه الألفاظ الواردة في المثل دالة عليها بأخصر لفظ وأوجزه . ولولا تلك المقدمات المعلومة والأسباب المعروفة لما فهم من هذه الألفاظ القلائل تلك الوقائع المطوّلات [2] وقال ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد: "والأمثال هي وشيُ الكلام وجوهر اللفظ وحَلي المعاني، والتي تخيرتها العرب وقدّمتها العجم ، ونطق بها كل زمان وعلى كل لسان ؛ فهي أبقى من الشعر ، وأشرف من الخطابة؛ لم يسرِ شيء مسيرها ولا عمّ عمومها، حتى قيل: " أسيرُ من مثل ". وقال الشاعر:

ما أنت إلا المثل السائرٌ يعرفه الجاهل والخابِرُ[3]

وقال أبو الهلال العسكري : "... ثم إني ما رأيت حاجة الشريف إلى شيء من أدب اللسان بعد سلامته من اللحن كحاجته إلى الشاهد والمثل ، والشذرة والكلمة السائرة ، فإن ذلك يزيد المنطق تفخيماً ، ويكسبه قبولاً، ويجعل له قدراً في النفوس، وحلاوة في الصدور؛ وإنما هو في الكلام كالتفصيل في العقد ، والتنوير في الروض، والتسهيم في البُرْد. على أن كل من لم يعنَ بها من الأدباء عناية تبلغه أقصى غاياتها ،

---

(1) الشهاب محمود، حسن التوسل في صناعة الترسل، ص81.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى،ج1، ص346، 347.

(3) ابن عبدربه، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، (ت328هـ/939م): العقد الفريد. تحقيق محمد بن عبد القادر شاهين، المكتبة العصرية، بيروت، 1432هـ/2003م، ج3، ص5؛ القائل أبو تمام.

وأبعد نهاياتها،كان منقوص الأدب ،غير تامّ الآلة فيه ،ولا موفور الحظ منه ...

وضرب المثل جعله يسير في البلاد؛ من قولك ضرب في الأرض، إذا سار فيها ، ومنه سمّي المضارب مضارباً. ويقولون: الأمثال تحكى ؛ يعنون بذلك أنها تضرب على ماجاءت عن العرب ،ولا تغيّر صيغتها ،فتقول للرجل :" الصّيفَ ضيَّعْتِ اللبن " فتكسر التاء، لأنها حكاية " [1].وقال النّظام [2]: " يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام : إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية، فهو نهاية البلاغة". ويرى ابن الأثير النوع الثالث معرفة أمثال العرب وأيامهم ومعرفة الوقائع التي وردت في حوادث خاصة بأقوام [3] والشاهد في ذلك " معرفة أمثال العرب"فإذا أكثر صاحب هذه الصناعة من حفظ الأمثال السائغ استعمالها، انقادت اليه معانيها، وسيقت اليه ألفاظها، في وقت الاحتياج الى نظائرها من الوقائع والأحوال، فأودعها في مكانها واستشهد بها في موضعها ، والطريق في استعمالها في كالنثرفي حل الأشعار واستعمالها؛ إلاّ أن الأمثال لا يجوز تبديل ألفاظها، ولا تغيير أوضاعها لأنها بذلك قد عرفت واشتهرت[4].

التاسع: معرفة الحلال والحرام.

ونجد أول ما بدأ به عبد الحميد رسالته الى الكتاب طالباً منهم التفقه في الدين حيث يقول: "وتفقهوا في الدين وابدءوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض"[5].

---

(1) أبو هلال العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل (ت395هـ/ 1004م): جمهرة الأمثال، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعبدالمجيد قطامش، المؤسسة العربية الحديثة، 1964، ج1، 4، 5، 7.

(2) النظام: إبراهيم بن سيّار، (ت231هـ /845) تلميذ أبي الهذيل العلاّف، متكلم معتزلي، نشأ في البصرة، وأقام في بغداد، منطقي وشاعر، ترك أثرا كبيرا في تاريخ الفكر الإسلامي معلم الجاحظ. عارض الفقهاء وانتقد الجبرية والمرجئة، إليه تنسب النظامية من فرق المعتزلة. (المنجد في الأعلام).

(3)ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج1، ص50، 51

(4) القلقشندي، صبح الاعشى، ج1، ص353، 354.

(5) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص75

ويرى ابن الصيرفي " أنه يجب على الكاتب أن يكون لديه شيء من معرفة الحلال والحرام واجداً له متى دفع إلى أن يسأل عنه " (1).

وليس غريباً أن يجعل ابن الصيرفي معرفة الحلال والحرام واجباً على الكاتب، فقد كان الفقه جزءاً من ثقافته (2).

العاشر: إتقان الخط

ونرى عبد الحميد الكاتب في رسالته الى الكتاب يأمرهم بإجادة الخط حيث يقول:" ثم أجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم "(3).

وهذا ابن الصيرفي يشترط على الكاتب" ألاّ يتوجه عليه لحن في الخط "(4).

أما ابن شيث فنجده يخصص باباً منفرداً في كتابه " معالم الكتابة ومغانم الإصابة للحديث عن الخط وحروفه وبري القلم وإمساكه مما لا يستغني الكاتب عنه" (5).

والغريب أن الشهاب محمود لم يهتم بالخط ولم يجعله شرطاً على من أراد مزاولة الكتابة، ووجوه الاستغراب تتأتى من عدة أمور:-

أولها: أن الشهاب محمود الحلبي كان له إلمام بمعرفة خطوط الكتاب (6) وقد كتب المنسوب ونسخ الكثير(7) وكان له إجادة نظر في معرفة الخطوط، ذكر ذلك تلميذه العمري(8).

ثانيها: إن هذا العصر كان يعطي الخط اهتماماً كبيراً.

---

(1) ابن الصيرفي، قانون ديوان الرسائل، ص11

(2) الجويني، مصطفى الصاوي، ملامح الشخصية المصرية في الدراسات البيانية في القرن السابع الهجري، الهيئة العامة للتأليف والنشر، القاهرة، 1390هـ/1970م، ص306.

(3) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص75.

(4) ابن الصيرفي، قانون ديوان الرسائل، ص12.

(5) ابن شيث، معالم الكتابة ومغانم الإصابة، ص40.

(6) ابن شاكر، فوات الوفيات ج4، ص82.

(7) ابن حجر، الدرر،ج4، ص324.

(8) ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت749هـ/1348م) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، مكتبة السليمانية، استانبول، 1408هـ/1988م، ج12، ص303.

لقد وضع كل من عبد الحميد الكاتب وابن قتيبة وابن الصيرفي، وابن شـيث مجموعة من الأخلاق لا غنى للكاتب عنها، بل يجب أن يتصف بها.

فهذا عبدالحميد الكاتب يطلب في رسالته مخاطبا الكتّاب "أن يكون حليما فـي موضع الحلم فقيها في موضع الحكم، مقداما في موضع الإقدام، ومحجما في موضع الإحجام، لينا في موضع اللين شديدا في موضع الشـدة ،مؤثرا للعفـاف والعـدل والانصاف،كتوما للأسرار وفيا عند الشدائد، عالما بما يأتي ويذر ، ويضع الأمور في مواضعها قد نظر في كل صنف من صنوف العلم فأحكمه، فان لم يحكمه شـدا منه شدوا يكتفي به يكاد يعرف بغريزة عقله، وحسن أدبه"[1].

أما ابن قتيبة فانه يرى أن الكاتب لابد له "أن يؤدب نفسه قبل أن يؤدب لسانه ويهذب أخلاقه قبل أن يهذب ألفاظه،ويصون مروءته "[2]إلى أن يقول :"فمن تكاملت له الأدوات وأمده الله بآداب النفس من العفاف والحلم ، والصبر والتواضع للحق وسكون الطائر، و خفض الجناح فهذا المتناهي في الفضل "[3].

ويرى ابن الصيرفي أن الكاتب يجب أن يكون وقورا ، حليما، مـؤثرا الجـد على الهزل، محبا للشغل أكثر من محبته للفراغ كثير الأناة ، والرفق، قليل العجلة و الخرق،نزر الضحك ،وقور النادي ، حسن اللقاء، لطيف الإجابـة،شـديد الـذكاء ، متوقد الفهم حسن الكلام إذا حدّث حسن الإصغاء إذا حُدّث، سريع الرضا بطـيء الغضب، رؤوفا بأهل الدين محبا لذوي العلم والأدب، راغبا فـي نفعهـم ، يهـدي النصيحه للملك من غير أن يوجد فيما تقدم من رأيه فسادا أو نقصا.

ويكون من كتمان السر بالمنزلة التي لا يدانيه منه أحد[4].

([1]) الجهشاري، الوزراء والكتاب، ص74، 75.

([2]) ابن قتيبة، أدب الكاتب، ص11.

([3]) المصدر السابق، ص16.

([4]) ابن الصيرفي، قانون ديوان الرسائل، ص13،12.

أما ابن شيث فإنه لا يرى الكاتب أن يلقب كاتبا إلا إذا تحلى بــــ "التقــوى واسلاس النصيحة "ثم[1] يطلب منه أن يتحلى بالأخلاق التاليــة ، غــض البصــر، وكتمان السر، والأمانة، و تركيز النظر إلى المحدث"[2].

وقد حذر هؤلاء؛ الكّتاب من الأخلاق الذميمة، طــالبين مــنهم تحاشــيها و الابتعاد عنها:

فهذا عبد الحميد الكاتب يحذر الكّتاب في رسالته من "واربأوا بأنفسكم عن الســعاية و النميمة و ما فيه أهل الدناءة والجهاله، وإياكم والكبر و العظمة، فإنها عداو ة مجتلبة بغير إحنه"[3].

ويحذر ابن قتيبة الكتاب من ذميم الأخلاق التالية " يصون مروءته عن دناءة الغيبة، وصناعته عن شين الكذب، ورفث المزح: كان رسول الله – صلى الله عليــه وسلم -ولنا فيه أسوة حسنة - يمزح ولا يقول إلا حقاً " [4]. فأمــا السّــباب وشــتم السلف وذكر الأ عراض بكبير الفواحش فما لا نرضاه لخســاس العبيــد وصــغار الولدان[5].

كما حذر ابن شيث الكُ تّاب من الأخلاق التالية "تجنب الرشى، والتصنت إلــى من يصحبه ولا يناهب صاحبه الكلام ، وتجنب المــزاح، ولا يــزري بأحــد عنــد صاحبه، ولا يفاجئ صاحبه بالشكر، وتجنب التعسف عن الصاحب " [6].

بل نجد ابن شيث في كتابه معالم الكتابة قد جعل آداباً تتعلق بالتصرف منها:

ألا يخلل أسنانه في مجالس صاحبه ، ولا يتنخم ولا يشير بالتمخط أو بالتبصــق ولا يتثاءب ولا يأكل الأشياء التي تكره رائحة الفم.

وآداباً للملبس: منها ألا يتزوق بالملبوس الغريب وألا يخرج عن زيه.

([1]) ابن شيث، معالم الكتابة معالم الكتابة ومغانم الإصابة، ص27.

([2]) المرجع السابق، ص28، 30، 31.

([3]) الجهشياري، الوزراء و الكتاب، ص75.

([4]) ابن قتيبة، أدب الكاتب، ص11.

([5]) المصدر السابق، ص12.

([6]) انظر ابن شيث، معالم الكتابة معالم الكتابة ومغانم الإصابة، ص28-31.

وآداباً للسان والكلام : منها تجنب الهرج والمناهبة في الكـــلام، والنطـــق بالألفـــاظ المتحاشاه.

ثم يذكرابن شيث آداب صناعة الكتابة، حيث يرى ابن شيث أن الكاتب لا بد لـــه أن يتقن صنعة الكتابة وألا يشغل نفسه برونق الخط ، ولا بد أن يتـــدرب فـــي معرفـــة الخطوط السقيمة والحروف الناقصة،وأن يكون ماهراً في قراءة الكتاب وأن يكـــون سريع الخاطر وأن يكثر من مطالعة التاريخ وأن يتأمل المعاني المطروحة يســـتفيد منها وأن يكون له تعليق يشمل نعوت الناس وأسماءهم"[1].

الحادي عشر: آداب عشرة الملوك والعظماء

قال علي بن خلف : ولا يقوم بآدابها وأكمل رسومها إلا من علت فـــي الأدب درجته وسمت في رجاحة العقل منزلته، وتميز بغريزة فاضلة، وأدب مكتسب،وصبر على المشاق في التحلي بالهمم الشريفة والسمو إلى المنازل اللطيفة[2].

لأن صحبة السلطان أمر عظيم وصاحبه راكب خطر جسيم ،وأول ما يجـــب على المتصل بخدمة السلطان النظر في عواقب أموره ، وحفظ نفسه مـــن جريـــرة يجرها عليها بغفاله فرضاً من فروض طاعته ، وتضييعة المحافظة علـــى حقـــوق خدمته والعلم بأن لكل مصحوب خلقاً يغلب عليه ويرجع بغريزة الطبع إليه ، فـــإن الملوك والرؤساء لا يقابلون بلوم على خلق ذميم بل جرت العادة في خـــدمتهم ، أن يصوّبوا ما يركبونه من خطأ ، ويحسنوا ما يواقعونه من قبح، فعليه أن ينـــزل عـــن أخلاقه لأخلاق سلطانه، وأن ينزل عن هواه لهواه ويتبع فيما يسخطه ويأبـــاه ، مـــا يؤثره سلطانه ويرضاه، وينبغي أن لا يعرض نفسه لما يسقط منزلته ويفسد عاقبته ، ولا يوجد للزمن طريقاً إلى التنكر له ثم يضيف قائلاً : ويلزمه بعد الاحتيـــاط فيمـــا تقدم عدة خصال منها:-

- الإخلاص: وهو قوام الأمر في المصاحبه ، فإن من صحب سلطاناً بعقيدة مدخولـــة في ولايته، مشوبة في محبته،لم ينتظم له ولا لسلطانه أمر.

([1]) ابن شيث، معالم الكتابة ومغانم الإصابة، ص32-42.

([2]) علي بن خلف، مواد البيان، ص

• النصيحة: وهي ترب الإخلاص والطريق الموصل إلى التوفية بها ، وأن يطالع السلطان بكل ما يفتقر إلى العلم به من خاص أموره وعامّها ، وعلى من استخلصه السلطان لنفسه وأْتمنه على رعيته ، أن لا يستر عنه دقيقاً ولا جليلاً من أحوال ما فوّضه إليه، ولا يحمله فرط النصح له على الإضرار برعيته، ولا الرغبة في إثبات حقه على تضييع حقوقها.

• ومنها الاجتهاد فيما يباشره من أحوال سلطانه بما يعود عليه نفعه بحيث لا يبقي في ذلك ممكناً

• ومنها كتمان السر : وهو أفضل الآداب في صحبة السلطان وغيره وأعودها بالفلاح على صاحبها، على أن إفشاء السر من الأخلاق التي طبع أكثر الناس عليها ، وحيل بينهم وبين الإقلاع عنها . فمن علم في نفسه ذلك فليحذر معاملة السلطان في أسراره وبواطن أموره.

• ومنها الشكر: فإنه وإن كان واجباً على الانسان مع أكفائه ونظرائه ، فإنه مع السلطان الذي يستظل بظله ويستدرّ أخلاف فضله أوجب . ولا يقدر على مكافأة سلطانه إلا بشكر نعمته، والمحافظة على حقوق خدمته(1).

• ومنها الوفاء: هو من أهم الخصال وآكدها ، إذ هو الطريق إلى صلاح العباد وعمارة البلاد بل هو رأس مال الكاتب وربحه ودوام عمله ، والسبب الذي لأجله ترغب السلاطين في صحبته ويكون الوفاء بإظهار النصيحة ، وبذل الاجتهاد وقصد المخالصة ومن الشروط الوفاء أن يلتزمه صاحبه لسلطانه في حال سعادته وإقبال دولته، وفي حال توليها عنه وعطلته ، أما في حال إقبال الدولة عليه فأن يصحبه بقلبه دون بدنه ، ولا يتطلب صاحباً غيره ينتقل إلى صحبته وسيتبدل بخدمته من خدمته، ولا يحدث نفسه بأنه متى وجد أنفع منه عدل إليه.

وأما في حال انصراف الدولة عن صاحبه فإنه لايباينه مباينة المساعد للزمان عليه، الموافق للمقادير عليه، ولا يخونه عند حاجته إليه، ولا يضيع حقوقه عنده وصنائعه لديه.

---

(1) انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص106-109 بتصرف.

- ومنها مجانبة الادلال إذ الدالّة على السلطان والرئيس من أعظم مصارع التلف وأقرب الاشياء إلى زوال النعم ، ولأجلها هلك من هلك من بطانة السلطان وخاصته ووزرائه. وعليه أن يعول في الاعتداد بخدمه ونصائحه له على اشتهارها وظهورها ولا يفيض في تعديدها وذكرها ، ولا يواصل التثقيل بأغراضه والالحاف بأسئلته ولا يظهر التشحب عند التقصر به ولا الغضب اتكالاً على سالف خدمة ، وقليل حرمة وأن يتناسى ما أسلفه من الخدمة والصحبة ، فإن السلطان مجبول على أنفة النفس وعزتها.
- ومنها التمسك بآداب الخدمة والمواظبة عليها وصرف الاهتمام إليها ، إذ هي أعظم الذرائع إلى نيل الرتب وبلوغ المآرب ، والسبب الذي يقرب البعداء ويرفعهم على أهل الوسائل والحرم وما نال أحد عند السلطان رتبة إلا والمواظبة على خدمته سببها والمواصلة موجبها وأولى الناس بلزوم السلطان كتّابه الذي لا غنى به عن حضورهم في ليله ونهاره وأبّان شغله وفراغه . فيجب أن يخص سلطانه من زمانه بالقسم الأوفر، ولا يؤثر نيل لذة عليه.
- ومنها التمسك إذا حضر بين يدي سلطانه أو رئيسه في المجلس الخاص به أو العام أن يتعمد مقابلته بالإ جلال والإعظام والتوقير والإ كرام، ولايحمله تأكد الخدمة وتطاول الصحبة على إهمال ذلك بل يحفظ رسمه، ولا يغير عادته.
- ومنها أن يتخير لخطابه في الأغراض والأوطار أوقاتاً يعلم خلو سّره فيها ، وفراغ باله وانشراح صد ره إلاّ إن كان ما يخاطبه فيه أمراً عائداً بانتظام سلطانه واستقامة زمانه، داخلاً في مهمات أعماله التي متى أخرها نسب إلى التقصير، فيقدم الكلام فيها خفّ أو ثقُل وإذا خاطبه رئيسه في أمر من الأمور فعليه أن يراعيه بعينه وينصت إليه سمعه، ويشغل به فكره، ولا يستعمله فيما يعوقه عنه حتى يستوعب ما يلقيه إليه ويجيبه عنه أحسن الجواب ، ولا يلتفت في حال إقباله عليه إلى غيره ولا يصغي إلى كلام متكلم ولا حديث متحدث ، فإن التقصير في ذلك مما ينكره الملوك والرؤساء ويستدلون به على ضعف المخاطب [1].

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص109-112 بتصرف.

• ومنها أن يجري في الحال في مجا لسه على ما يعود بوفائه وإرادته : فإن مال إلى الانبساط أطلق عنانه فيه إطلاق المتجنب للهجر [(1)] والفحش،ورفث القول [(2)] تابعاً لإيثاره،قاضياً لأوطاره ، وإن أظهر الانقباض ذهب مذهبه في ذلك ولا ينبغي أن يخالفه في حال من أحواله.

• ومنها أن لا يحضر سلطانه في ملابسه التي جرت العادة أن ينفرد بها ، كالوشي ونحوه ؛ إلا أن يكون هو الذي يشرفه بها ، وأن يقتصد في لباسه، فينحط عما يلبسه سلطانه ويرتفع عما يلبسه السّوقة ، ويصرف عنايته الى التنظف والتعطر ، وقطع الرائحة الكريهة من العرق وغيره في حال دونه منه ، ويواصل استعمال الطيب والبخور فإن الملوك ترى أن من أغفل تعهد نفسه كان لغيرها أشد إغفالاً.

• ومنها أن يتجنب التفاصح والتعمق في مخاطبة رئيسه والافتخار عليه بالبلاغة والبيان، فإن في ذلك من الترفع عليه في الكلام ، بل يجعل ما يلقيه إليه ضمن ألفاظ تدل على معانيها بسهولة مع غضّ من صوته، وخفض من طرفه، وسكون من أعضائه.

• ومنها أنه إذا تميز عند رئيسه وارتفعت رتبته لديه أن يجمل القول في خاصته وعامته، ويحسن الوساطة لحاشيته ورعيته ، ويتجنب القدح عنده في أكفائه ونظرائه من بطانته ، والمقربين من حضرته ، ليكون ذلك داعياً إلى محبته والثناء عليه مكافأةً له وإمساك الألسن عن الطعن فيه.

• ومنها أن يبادر إلى المشورة عليه بالصواب فيما يستشيره فيه ، ويورده إيراد مستفيد لا مفيد ، ومتعلم لا معلم ، فإن من عادة الملوك والرؤساء الأنفة من الانقياد إلى ما ينتحله غيرهم من الآراء ولو كانت صائبة [(3)].

• ويعدّ علي بن خلف أول من ألف في هذا الفن في مصر الفاطمية في كتابه "مواد البيان" حيث قنن فيه لفن الكتابة بوجه عام ولفن كتابة الإنشاء بوجه خاص، فهو يضع القوانين ويقعد القواعد التي يجب أن تتبع عند كتابة كل نوع من أنواع

([1]) الهُجر: القبيح من الكلام. (اللسان 253/5).

([2]) رفث في كلامه: أي أفحش (اللسان 154/2).

([3]) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص113-114.

الرسائل والوثائق. وقد عاش ابن خلف في النصف الأول من تاريخ الدولة الفاطمية،ثم كتب بعده ابن الصيرفي كتابه القيم "قانون ديوان الرسائل " فهو كاتب ومؤرخ فاطمي تولى الكتابة في ديوان الإنشاء الفاطمي ثم رئاسته وظل يشغل هذا المنصب قرابة نصف قرن من الزمان ، فقد أوضح ابن الصيرفي أن غرضه من هذا الكتاب أن يكون قانوناً يسترشد به العاملون بهذا الديوان، فقد اهتم فيه بذكر الشروط التي يجب أن تتوفر في موظفي هذا الديوان.

لقد بلغت الدول الإسلامية عامة والدولة الفاطمية خاصة من الاتساع و الجاه ما تطلب قيام جهاز حكومي يتناسب و عظمة تلك الدولة ،فكان ديوان الإنشاء يضاف تارة إلى الوزارة، والوزيرهو الذي يتولى أحواله بنفسه وينفذ أموره بقلمه،وتارة ينفرد عنه بكاتب ينظر في أمره ، ويكون الوزير هو الذي ينفذ أموره بكلامه ويصدقها بتوقيعه ؛ فكان صاحب ديوان الإنشاء يعتمد ما يرد عليه من ديوان الوزارة ويصرفها بتوقيعه.

والمعروف في مصر أنها بقيت جزءاً من الخلافة الإسلامية ، تأتمر بأمر ولاة يتلقون أوامره من الخليفة في دمشق أو بغداد إلى أن قامت الدولة الطولونية 292/254 هـ - 905/868م فكانت أول من أخذت ترتيب الملك وإقامة شعائر السلطنة في مصر.

وكان طبيعياً أن يعنى أحمد بن طولون بديوان الإنشاء بوصفه مظهراً لسيادته واستغلاله.وفي ذلك يقول القلقشندي أن أحمد بن طولون لما علا سلطانه وارتفع بها شأنه، أخذ في ترتيب ديوان الإنشاء لما يحتاج إليه في المكاتبات والولايات.

وظل الحال كذلك حتى قامت الدولة الفاطمية وهي دولة قامت على أساس الدعوى والرعاية الشيعيتين فوجه الفاطميون مزيد اهتمامهم وعنايتهم بديوان الإنشاء وكتابه، فارتفع بهم قدره وشاع في الآفاق ذكره وتولى رئاسته أفاضل الكتاب وبلغاؤهم ما بين مسلم وذمي ، وتولى غيرها شؤونه من أكابر وأرباب الأقلام فينهضون ويعملون على بلوغه حد الكمال فقد بلغ هؤلاء الكتاب ذروة مجدهم إبان هذا العصر (الفاطمي).فقد أولاهم الخلفاء مزيداً من الرعاية والاهتمام وحاطوهم بهالة من التعظيم، وذلك لأن الخلفاء الفاطميين كانوا شيعي المذهب فعملوا على

كسب الكتاب إلى جانبهم حتى يكونوا لهم سنداً يقوون به شوكتهم وينشرون مــذهبهم فهم أيديهم الكاتبه وعقولهم المفكرة فلا أقل من غرس مذهبهم فــ ي عقــول هــؤلاء الكتاب وهم بدورهم سيقومون بنشر ذلك المذهب والترويج له وإشاعته بين الناس.

فكان ديوان الإنشاء جهازاً إدارياً حكومياً ، وجميع مراسلاته وأعماله متصــله بالسلطان الحاكم ويعتبر كل ما يصدر عنه تعبيراً عن السياسة العامة التي تنتهجهــا الدولة.

فكان ديوان الإنشاء أشبه اليوم بـأمين رئاسة الدولة في العصر الحديث التــي تمثل الجهاز الذي يشرف على كل الشؤون الخارجية من علاقات ثقافية ودبلوم اسية وعسكرية ومراسلات.....الخ.

إذن فصاحب الديوان يتمتع بمركز قيادي خطر في الدولة . فكان يراعي فــي اختياره مواصفات محددة وهامة وله صد فات لا بد أن يتحلى بها لأنــه يعبــر عــن سياسة الدولة تجاه القوى والبلاد الأخرى.

تبارى الكتاب في العصر الفاطمي بوضع شروط وصفات لكتــاب الــديوان ، كانت لأهميتها وعظمها أشبه بالدستور الذي سار عليه الكتاب فــي العصــر بــين العصرين الأيوبي والمملوكي.

لذا نستطيع القول إ ن ديوان الإنشاء الأ يوبي والمملوكي كان امتداداً لــديوان الإنشاء في العصر الفاطمي ، وساروا على النهج الذي رسمه الكتاب فــي العصــر الفاطمي.

الفصل الثالث

الجهود الكتابية لديوان الإنشاء وما صدر عنه من مكاتبات

1.3 الجهود الكتابية لديوان الإنشاء:

إن الكتابة تساير حياة الأمم في حضارتها وهي صورة للدول ومرآة لميول أفرادها تسير من حيث الأغراض في اتجاهين أساسيين:

أولها: **فردي** يرتبط بمقاصد الأشخاص وميولهم.

الثاني: **اجتماعي** يتصل بالدولة وبالشؤون العامة للمجتمع.

فأما الفردي فإنه يتجلى في الرسائل الإخوانية في شتّى الأغراض وفي ميول الكتّاب إلى إظهار مواهبهم البيانية ومقدرتهم في مناحي البلاغة والإبانة عن خلجات نفوسهم وما تتطلبه حياتهم.

أما الاجتماعي فإنه يرجع إلى ما تحتاج إليه الدولة في إدارتها ونظامها وما تتطلبه قيادة الشعوب وتوجيهها من إرشاد إلى ما ينهض بالحياة ومرافقها.

فالكتابة إذن أداة الدولة وعون للأفراد وموضوعاتها ترتبط بالفرد وميوله وأغراضه ووجدانه بالمجتمع ونظامه وشؤونه[1].

وكانت الكتابة في عهد الفاطميين تلي الوزارة في الرتبة، وكان الخلفاء لا يسندونها إلا لمن أنِسوا فيهم الكفاية والقدرة على معالجة الأمور، فإذا حاز صاحبها رضى الخليفة رشّحه للوزارة في أي وقت[2].

وعندما تولى الفاطميون أمر مصر ، نهضت الكتابة فيها قوية مزدهرة، تضاعفت هذه النهضة في العصر الفاطمي بما عمل الفاطميون على النهوض أولا بدور العلم، وإذكاء شعلته في البلاد، حتى كان للحركة العلمية أثر قوي في تيار الفكر الإسلامي عامة وفي مصر الفاطمية على وجه الخصوص، ومن ناحية أخرى ظفرت مصر الفاطمية بنهضة أدبية كان لها أثرها القوي في ازدهار الشعر وازدهار

---

(1) عبد الحميد حسن، صفحات من الأدب المصري من العصر الفاطمي إلى النهضة الحديثة، ص12.

(2) حسن إبراهيم، تاريخ الدولة الفاطمية، ص280.

الكتابة معاً فقد عني الفاطميون بالكتّاب عنايتهم بالشعراء، ولا نغالي إذا قلنا إن عناية الفاطميين بالكتّاب كانت أشدّ من عنايتهم بالشعراء[1]، وسبب ذلك لاتساع ملكهم وتشعّب نواحي حياتهم وسلطانهم اضطرتهم إلى أن يوجّهوا همّتهم إلى العناية بالدواوين المختلفة عناية خاصة تتناسب مع غلوّهم في إظهار مجدهم.

كما أن التشريف الذي جعله الفاطميون لكتّاب دولتهم، كان من أهم عوامل ازدهار الكتابة في هذا العصر، كما كان الإغداق على الكتّاب من أسباب كثرتهم، وإقبال الناس على التعليم وإجادة الكتابة ؛ ليصلوا إلى مرتبة الكتابة في الدواوين، فكثر عدد الكتّاب ، وأصبح على المتأدّب أن يأخذ من الكتّاب طرائقهم وفنّهم، ويحدّثنا القاضي الفاضل أنه كان من عادة أرباب الدواوين في تربية أبنائهم أنهم كانوا يرسلون هؤلاء الأولاد إلى ديوان المكاتبات ليتعلموا فن الكتابة . "كان فن الكتابة بمصر في زمن بني عبيد غضّاً طريّاً، وكان لا يخلو ديوان المكاتبات من رأس يرأس مكانا وبيانا ويقيم لسلطانه بقلمه سلطانا ، فكان من العادة كلا من أرباب الدواوين إذا أنشأ له ولد، وشدا شيئا من علم الأدب ، أحضره إلى ديوان المكاتبات ليتعلم فن الكتابة ويتدرب ويرى ويسمع، فأرسلني والدي وكان إذ ذاك قاضيا بثغر عسقلان إلى الديار المصرية في أيام الحافظ ، وأمرني بالمسير إلى ديوان المكاتبات، وكان يرأسه في ذلك الوقت ابن الخلاّل، وعندما مثلت بين يديه وعرّفته من أنا، وما طلبي رحّب بي وسهّل ،ثم قال لي: ما الذي أعددت لفن الكتابة من الآلات؟ فقلت : ليس عندي شيء سوى أني أحفظ القرآن العزيز، وكتاب المحاسن، فقال : وفي هذا بلاغ، ثم أمرني بملازمته، فترددت عليه وتدربت بين يديه، ثم أمرني بعد ذلك أن أحل شعر الحماسة فحللته من أوله إلى آخره، ثم أمرني أن أحله مرة ثانية فحللته"[2].

ونفهم من هذا النص مدى تعلق الناس وحبهم في تعليم أبنائهم فن الكتابة فقد كان حفظ القرآن الكريم وأشعار العرب من عُدد الكاتب في هذا العصر، فقد رأينا ابن الخلاّل يطلب من تلميذه القاضي الفاضل أن ينثر الأشعار من ديوان الحماسة تهيئة له للدخول في سلك الكتّاب ولا تكفي ملكة الكتابة لأن تجعل الإنسان كاتبا ، بل لا بد

---

(1) محمد كامل حسين، في أدب مصر الفاطمية، ص308، 309.

(2) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، ج1، ص192.

له من آلات أخرى كما عبّر عنها ابن الخلاّل ، ومن هذه الآلات : علوم العربية، حتى يتسنّى للكاتب أن يسير على منهج الأساليب العربية فلا يقع في لحن لغوي أو نحوي،وبلغ من حرص الفاطميين أن جعلوا في ديوان الإنشاء لغويين ونحويين لمراجعة ما كان يحرره الكتّاب، حتى تخرج كتاباتهم سليمة من الأخطاء، وهذا الحرص على سلامة أساليب الكتابة كان من العوامل التي جعلت الكتّاب أنفسهم يعملون جاهدين على أن تخرج كتاباتهم خالصة متفقة مع الأساليب العربية.

"ومن عوامل ازدهار الكتابة في العصر الفاطمي، أن وزراء العصر الأول من الحكم الفاطمي كانوا من الكتّاب، فكانوا يعملون في الدواوين قبل اختيارهم للوزارة، فالفلاحي، والجرجرائي، والبابلي، وبنو المغربي، وابن المدبر، وابن الأنباري.... الخ كانوا من الكتّاب وقد بلغوا مرتبة الوزارة، حتى أن المؤرخين لاحظوا أن وزراء الدور الأول كانوا من أصحاب الأقلام . وأن وزراء الدور الثاني من أصحاب السيوف.

ولا يعني ذلك أن الكتابة ضعفت في الدور الثاني، إذ أن الكتّاب أصبحوا في مكانة لا تقل عن مكانتهم الأولى، بل ظل الكتّاب يتمتعون بمثل المركز الرفيع الذي كانوا فيه في الدور الأول، ومنهم كان جُلَساء الإمام وحُجّابه، وأصحاب مظلّته ومنهم كان القضاة والدعاة وهذه كلها كانت أكبر مناصب الدولة بعد الوزارة . فالكتّاب طوال العصر الفاطمي كانت لهم مكانتهم الممتازة، والعطايا الجزيلة فلا غرابة إذاً أن يقبل الناس على الكتابة وأن تزدهر في هذا العصر"[(1)].

أضف إلى ذلك كله أن نظام الحكم الفاطمي كان من أشدّ العوامل على ازدهار الكتابة، فإن الفاطميين كانوا يسجّلون كل دقيقة وعظيمة في سجلّ يخرج من الديوان، فتعيين الوزراء أو الكتاب أو القضاة أو الدعاة وغيرهم من أرباب وظائف الدولة وكان يخرج به سجلّ مطوّل، فيه الحضّ على تقوى الله وطاعة الإمام، والتمسك بأهداب الدين الحنيف، ثم الإشارة إلى المنصب الذي سيُعيّن فيه الموظف، وما يتطلبه ذلك المنصب من عمل، إلى غير ذلك من ترغيب في المنصب ومشورة في تصريف العمل، وإذا خرج الخليفة لفتح الخليج أو لصلاة الجمعة أو العيد فيخرج

(1) محمد كامل حسين، في أدب مصر الفاطمية، ص311، 312.

السجلّ بذلك. وفي أعيادهم ومآتمهم كانت تصدر هذه السجلاّت أيضا، حتى أصبحت هذه السجلاّت تاريخا للعصر الفاطمي كله.وكان الكتّاب يتفنّنون في إظهار مقدرتهم وكفايتهم في صياغة هذه السجلاّت، ويتنافسون في هذا الفن، فجاءت هذه السجلاّت الفاطمية صورا رائعة من صور الكتابة العربية التي تمثل العصر الفاطمي أصدق تمثيل"[1].

ومن ذلك نستطيع أن ندرك كيف ازدهرت الكتابة في العصر الفاطمي، وكيف أقبل المتعلّمون على أن يلمّوا بفن الكتابة، حتى يصبحوا كتّابا في دواوين الفاطميين. وأن ينالوا ما ناله الكتّاب من تكريم وتقريب ونِعَم.

"ومهما يكن من شيء فإن الكتابة في العصر الفاطمي، قد ازدهرت بازدهار الحياة المصرية في ذلك العصر، ولشدة إقبال الناس على التماس العلم والنهل من منابعه التي كثرت وتعددت ألوانها وفنونها،وتطور الكتابة يتبع دائما الحياة العلمية ، فإذا ارتقت العلوم تبعها رقي في الكتابة وإذا انحطّت العلوم انحطّت الكتابة"[2].

أما عن ديوان الإنشاء وكتّابه فإن تأسيسه يعود في مصر إلى أيام أو عهد أحمد بن طولون،أن أول من ولي هذا الديوان أحمد بن محمد بن مودود المعروف ابن عبدكان الكاتب ، وقد استمر تلاميذ ابن عبدكان يعملون في دواوين الطولونيين والإخشيديين،فازدهرت الكتابة في مصر على أيديهم حتى بلغت درجة عالية من درجات فن الكتابة في مصر[3].

ولكن حينما ولي الفاطميون مصر صرفوا مزيد اهتمامهم بديوان الإنشاء ووجهوا إليه رعايتهم، واتخذوه وسيلة لرفعة قدرهم، ونشر ذكرهم في الآفاق، ذلك أن كتّابه يشيدون بمجدهم فيما يكتبون من رسائل وغيرها فينمّون في قلوب الشعب إجلالهم وتقديسهم كما ينشرون اسمهم محاطا بهالة من التعظيم في أنحاء العالم[4].

---

(1) محمد كامل حسين، في أدب مصر الفاطمية، ص312.

(2) أحمد عطا الله، الحياة الفكرية في مصر في العصر الفاطمي، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، ص271.

(3) محمد كامل حسين، في أدب مصر الفاطمية، ص308.

(4) أحمد أحمد بدوي، في الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ص332.

كما ارتفع بهم قدره وشاع في الآفاق ذكره، وولي ديوان الإنشاء منهم من أفاضل الكتّاب وبلغائهم ما بين مسلم وذمّيّ"[1].

فقد كان ديوان الإنشاء يشبه وزارة الخارجية في وقتنا هذا، فمنه تصدر المراسلات الرسمية الخارجية لحكام مصر إلى غيرهم من الحكام المسلمين وغير المسلمين، ويشرف رئيسه على المفاوضات المتعلقة بأمور داخلية أو خارجية ثم يسجلها، كما يسجل المعاهدات والمهادنات بين حكام مصر وغيرهم . وديوان الإنشاء منسق للإدارة الداخلية ؛ لأن جميع المراسلات ترد عليه من مختلف نواحي الدولة فيقرأها رئيسه أو مساعدوه ويوزعون نسخا عنها إلى جميع الجهات المختصة، بعد إيداع النسخ الأصلية في أماكن حفظها الخاصة[2].

وإضافة إلى هذه المسؤوليات فإن ديوان الإنشاء يتولى أهم ناحية إدارية في الدولة وهي الإشراف على العيون والرسل ويقع ضمن هذه المسؤوليات تدريب الرسل ومراقبتهم وبثّ العيون داخل مصر وخارجها والإطّلاع على جميع التقارير الواردة على الديوان، بالإضافة إلى مراقبة البريد وما يتعلق به من تدريب للعاملين فيه، ومراقبة أبراج حمام الزاجل، والإشراف على العاملين في الأبراج[3].

ويساعد رئيس ديوان الإنشاء المعروف بصاحب الدست، سبعة من الكتّاب، يقوم كل منهم بالكتابة نوع معين من المراسلات والوثائق.

الكاتب الأول: ينشئ ما يكتب من المكاتبات والولايات، وهو أعلى الكتّاب مكانة وهذا الكاتب يسجل العهود والتقاليد في الولايات، والكتب في الحوادث ذات الشأن والمناسبات العظيمة التي تقرأ فيها الكتب على المنابر.

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص130.

(2) هادية دجاني شكيل، القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني (526-596هـ/1131-1199م) دوره التخطيطي في دولة صلاح الدين وفتوحاته، ط1، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1993، ص55.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص149، 151، 153.

الكاتب الثاني: فهو كاتب المراسلات بين حاكم مصر وغيره من الحكام، ولذلك يتطلب منه أن يكون على دين الحاكم، لما يحتاج إليه من مجادلة ودفاع عن الدين أمام غيره من الحكام.

الكاتب الثالث: مختص بالكتابات المتعلقة بأمور الدولة الداخلية، إذ يكتب عن رجالات الدولة من ولاة وقضاة ومشارفين وغيرهم، كما ينشئ تقليدات الموظفين الصغار والأمانات، وكتب الأيمان والقسمات.

الكاتب الرابع: يكتب المناشير والكتب اللطاف والنسخ ويجب أن يكون هذا الكاتب مأموناً كتوماً للسرّ، مأمون الوقوع من الخطأ واللحن وحسن الخط.

الكاتب الخامس: يبيّض ما ينشئه المنشئ مما يحتاج إلى حسن الخط، كالعهود والبيعات ونحوها.

الكاتب السادس: يتصفح ما يكتب في الديوان من إنشاءات وتقليدات ومكاتبات وغيرها.

الكاتب السابع: كتابة التذاكر والدفاتر لمتعلقات الديوان، ومن جملة أعماله إعداد فهارس للكتب الصادرة والواردة على الديوان، بحسب السنة والشهر واليوم، وإعداد فهارس للإنشاءات والتقاليد والأمانات والمناشير وغيرها بحسب شهور السنة، وإعداد فهرس لترجمة ما يترجم من الرسائل الواردة على الديوان باللغات الأجنبية. وكان هناك بالإضافة إلى هؤلاء الكتّاب، عدد من النسّاخ والنقّاشين والخزّان للمكاتبات(1).

2.3 المخاطبات الإعلامية:

ويمكن تقسيم ما صدر عن ديوان الإنشاء في هذا العصر إلى مخاطبات إعلامية وعلى كتابات إدارية وسياسية واقتصادية ونبدأ بالمخاطبات الإعلامية التي تجلت في:

(1) القلقشندي، صبح الأعشى ،ج1، ص165-168.

1.2.3 المناشير:

ومفردها منشور وهو كل وثيقة أو مكتوب لا تحتاج إلى ختم، أي هي منشورة غير مطوية، وذكر ابن الصيرفي أن المنشور ما لا عنوان له [(1)]، ورغم أن الفاطميين قد أطلقوا على جميع وثائقهم الرسمية لفظا عاما هو "السجل" إلا أن بعض التقاليد كان يطلق عليها ألفاظا أخرى من بينها "المنشور"[(2)] مثل المناشير التي أوردها القلقشندي، وأحدها خاص بمشارفة المواريث الحشرية.

والمنشور في أصل اللغة خلاف المطويّ ومنه قوله تعالى : ﴿وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾[(3)] ومن خاصية المناشير كما يخبرنا القلقشندي أنها لا تكتب إلا عن السلطان، مشمولة بخطّه[(4)].

ويرى ابن فضل العمري أن والمناشير من الرسائل التي تصدر عن ديوان الإنشاء إلا أن لها خصوصية تميزها عن غيرها فهي مختصرة ولا تحوي وصايا[(5)].

ويطلق أحيانا على السجل لفظ "منشور" إذا كان سيقرأ على رؤوس الأشهاد ويطلق عليه في هذه الحالة "السجل المنشور"[(6)].

وقد اصطلح كتّاب العصر المملوكي على تسمية جميع ما يكتب في الإقطاعات من عاليها ودانيها للأفراد، والجند، والعربان، والتركمان، وغيرهم مناشير[(7)]. ومن أشهر المناشير، المنشور الذي أصدره المأمون البطائحي وزير الآمر بتنظيم المواريث الحشرية وإعادتها حسب فقه الشيعة ومفهومهم . والمواريث

---

(1) ابن الصيرفي، قانون ديوان الرسائل، ص19.

(2) المرجع السابق، ص16.

(3) سورة الطور، الآيتان 2-3.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى، ج13، ص162.

(5) العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص117.

(6) ابن المأمون (الأمير جمال الدين أبو علي موسى بن المأمون البطائحي، ت588هـ/1192م، أخبار مصر، نصوص من)، تحقيق أيمن فؤاد السيد، القاهرة، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، 1983، ص17، 19.

(7) القلقشندي، صبح الأعشى، ج13، ص162.

الحشرية هي مال من يموت ولا وارث له بسم الله الرحمن الرحيم : خرج أمر أمير المؤمنين بإنشاء هذا المنشور عندما طالعه السيد الأجلّ المأمون أمير الجيوش –ونعوته والدعاء- وهو الخالصة أفعاله في حياطة المسلمين، وذو المقاصد المعروفة إلى النظر في مصالح الدنيا والدين....... الخ[1].

ثم أمر الخليفة الآمر بأحكام الله بإنشاء منشور يتلى، وهو موجّه إلى كافة الأمراء وسائر الولاة وجميع النواب والمستخدمين وسائر الكتّاب بجميع الأعمال، وكاتبه هو أبو الحسن علي بن أبي أسامة ومضمونه:

"خرج أمر أمير المؤمنين –صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين، وأبنائه الأكرمين بإنشاء هذا المنشور -:

بأنّ يعتمد في ديوان التحقيق والمجلس، وسائر دواوين الدولة –قاصيها ودانيها، قريبها ونائيها - إمضاء ما كان السيد الأجلّ الأفضل –(والدعاء)- قرره، وخرجت به توقيعاته، الثابتة عليها علاماته، في الأحكام والأموال، بتصاريف الأحوال، إذ أمير المؤمنين راض بأفعاله، متحقق لأقواله، حامد لمقاصده ماضٍ لأحكامه، عارف بسداد رأيه في نقضه وإبرامه على أوضاعها وأحكامها، وتقريراته في كل منها.

فليحذر كافة الأمراء وسائر الولاة نصرهم الله وأظفرهم - وجميع النواب والمستخدمين، وسائر الكتّاب والمتصرّفين بجميع الأعمال، من تأول فيه، وتعقب تغيير شيئاً من أحكامها، على ما قرره وأمر به"[2].

والمناسبة التي كانت وراء إصدار هذا المنشور هو أن الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي ولي الوزارة بعد موت أبيه في سنة 487هـ/1094م للخليفة المستنصر، وبعد موته نحّى ابنه الأكبر نزاراً وولي الخلافة الابن الأصغر أحمد ، ولقبه بالمستعلي بالله، ثم ظل وزيراً في أيام الآمر بأحكام الله بن المستعلي، وفي كل هذه العهود كانت السلطة الفعلية كلها في يد الأفضل شاهنشاه، وكان هؤلاء الخلفاء الثلاثة كالمحجور عليهم إلى أن قتل الأفضل أخيراً ليلة عيد الفطر سنة

---

(1) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص89-92.

(2) المرجع السابق، ص120.

515هــ/1121م ويقال إنَّ الأفضل قُتِل بتحريض من الخليفة الآ مر، فقد روى ابــن تغري بردي في حوادث سنة 513هــ/1119م: أن الخلاف اشتد بين الآمر وبــين مدير مملكته الأفضل ابن أمير الجيوش "واحتجب الآمر عنه وتعلل بالمرض واجتهد الأفضل أن يغتاله بالسم فلم يقدر، ودس إليه السم مرارا فلم يصل إليه "[1]، "فلما ملك الأفضل سار على سيرة أبيه مع الخلفاء من الحجر والتضييق عليهم، وزاد الأفضل هذا في حق الآمر حتى أنه منعه من شهواته، وأراد قتله بالسم، فحمله ذلــك علــى قتله، واتفق الآمر مع جماعة، وكان الأفضل يسكن بمصر، فلما ركــب فــي غيــر موكب وثبوا عليه وقتلوه في سلخ رمضان[2].

وكان من الطبيعي أن يتنفس الموظفون الصعداء بعد أن رفعت عــنهم يــد الأفضل القوية؛ وأن يحاولوا تغيير بعض أوامره مما يعرض الدولــة –وشــؤونها المالية بوجه خاص - للاضطراب والفوضى؛ لهذا ســارع الآمــر بإصــدار هــذا المنشور. ومن الأمثلة على المناشير:

منشور أصدره المأمون البطائحي وزير الأمر بتنظــيم المواريــث الحشــرية واعادتها حسب فقة الشيعة ومفهومهم . والمواريث الحشرية هي مال من يمــوت ولا وارث له:

بسم الله الرحمن الرحيم: خرج أمر أمير المؤمنين بإنشاء هذه المنشــور عــندما طالعه السيد الأجل المأمون أمير الجيوش-ونعوته والدعاء - وهو الخالصة أفعالــه في حياطة المسلمين، وذو المقاصد المعروفة إلى النظر في مصالح الدنيا والــدين، والهمة الموقوفة على الترقي إلى درجات المتقين، والعزائم الكافلة بتشــديد أحــوال الكافة أجمعين، شيمة خصه الله بفضيلتها، جبلّة أسعد بجلالها وشريف مراتبها، والله سبحانه يجعل آراءه للتوفيق مقارنة، وأنحاء الميامين كافلــة ضــامنة، مــن أمــر المواريث وما أجراها عليه الحكام الدراجون بتغاير نظرهم، وقرروه من تغيير عما كان يعهد بتغلب آرائهم، وما دخل عليها منهم من الفساد، والخروج بها عن المعهود المعتاد؛ وهو أن لكل دارج من الناس على أخــتلاف طبقــاتهم وتبــاين مــذاهبهم

---

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص218.

(2) المصدر السابق ، ص222

واعتقاداتهم تحمل ما يترك من موجوده على حكم مذهبه في حياته، والمشهور من اعتقاده إلى حين وفاته، فيخلص لحرم ذوي التشيع الوار ثات جميع موروثهم وهو المنهج القويم لقول الله سبحانه : وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله، أن الله بكل شيء عليم [1].ويحمل من سو اهن على مذاهب مخلفيهن، ويشركهم بيت مال المسلمين في موجودهم، ويُحمل إليه جزءٌ من أموالهم التي أحلَّها الله لهن من بعدهم، عدولاً عن محجة الدولة، وخروجاً عما جاء به العباد من الأئمة الذين نزل في بيتهم الكتاب والحكمة؛ فهم قراء القرآن وموضحو غوامضه ومشكلاته بأوضح البيان واليهم سلم المؤمنون، وعلى هديهم وارشادهم يعول الموقنون.

فلم يرضَ أمير المؤمنين الاستمرار في ذلك على قاعدة واهية الأصول، بعيدة من التحقيق خالية من المحصول ولم يلإ إلعود فيه إلى عادة آبائه المطهرين و أسلافه العلماء المهديين، صلوات الله عليهم أجمعين، وخرج أمره إلى السيد الأجل المأمون بالايعاز إلى القاضي ثقة الملك النائب في الحكم عنه، بتحذيره، والأمر له بتحذير جميع النواب في الأحكام بالمعزية القاهرة ومصر وسائر الأع مال دانيها وقاصيها، قريبهاهوانائهين الاستمرار على تلك السنة المتجددة، ورفض تلك القو انين التي كانت معتمدة، واستئناف العمل في ذلك بما يراه الأئمة المطهرة و أسلافه الكرام البررة، واعادة جميع مواريث الناس على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم إلى الـ معهود من رأي الدولة فيها، والافراج عنها برمتها لمستحقها من غير اعتراض عليهم في قليلها ولا كثيرها، و أن يضربوا عما تقدم صفحاً ويطووا دونه كشحاً منذ تاريخ هذا التوقيع وفيما يأتي بعده مستمراً غير مستدرك لما فات ومضى، ولا متعصب لما ذهب وانقضى.

وليوف الأجل المأمون، عضد الله به الدين، بإمتثال هذا المأمو ر، والاعتماد على مضمون هذا المسطور، وليحذر كلاّ من القضاة والنوا ب والمستخدمين في الباب وسائر الاعمال من اعتراض موجود أحد ممن يسقط بالوفاة، وله وارث بالغ رشيد حاضر أو غائب، ذكراً كان أو انثى، من سائر الناس على اختلاف الأديان، بشيء من التأولات، أو تعقب ورثته بنوع من أنواع التعقبات، إلا ما أوجبته بينهم

---

(1) سورة الأنفال: الآية 75.

المحاكمات والقوانين الشرعيات الواجبات، نظراً إلى مصالح الكافة، ومـداً لجنـاح العاطفة عليهم والرأفة، ومضاعفة للأنام وابانة عن شريف القصد إليهم والاهتمـام، فأما من يموت حشرياً ولا وارث له حاضر ولا غائب، فموجوده لبيت المال بأجمعه على الأوضاع والقوانين المعلومة القويمة، إلا ما يستحقه خرج [1]، إن كان لـه، أو دين عليه يثبت في جهته، و إن سقط متوفي ولـه وارث غائـب فلـيحفظ الحكـام والمستخدمون على تركته احتياطاً حكمياً وقانوناً شرعياً مصوناً مـن الاصـطلام، محروساً من التفريط والاخترام، فإن حضر و ثبت استحقاقه ذلك في مجلس الحـكـم بالباب على الأوضاع الشرعية الخالصة من الشبه والارتياب طولع بـذلك ليخـرج الأمر بتسليمه إليه والإشهاد بقبضه عليه.

وكذلك نمي إلى حضرة أمير المؤمنين أن شهود الحكم بالباب وجميع الأعمـال ، إذا شارف أحد منهم بيع شيء مما يجري في المواريث من التـرك التـي يتولاهـا الحكام يأخذون ربع العشر من ثـمن المبيع، فيعود ذلك بالنقيصة في أمـوال الأيتـام والتعرض إلى الممنوع الحرام، اصطلاحاً استمروا على فعله، واعتماداً لـم يجـر الأمر فيه على حكمه، فَكَرِهَ ذلك و أنكره واستفظعه وأكبره، واقتضى حسن نظره في الفريقين ما خرج به أمره من توفير مال الأيتام، وتعويض من يباشـر ذلـك مـن الشهود جاريقام لكل منهم من الأنعام، و أمر بوضع هذا الأثر وتعضيته، وابطالـه وحسم مادته، فليعتمد القاضي ثقة الملك ذلك بالباب، وليصدر الأعلام إلـى سـائر النواب، سلوكاً لحجة الدين وعملاً بأعمال الفائزين السعداء المتقين، بعد تلاوة هـذا التوقيع في المسجدين الجامعين بالمعزية القاهرة المحروسة ومدينـة مصـر علـى رؤوس الأشهاد، ليتساوى في معرفة مضمونه كل قريب وبعيـد وحاضـر وبـاد، ولتفرغ منه النسخ إلى جميع النواب عنه في الأعمال، وليخلد في مجلس الحكم بعـد ثبوته في ديواني المجلس والخاص الآمري،وحيث يثبت مثله أن شاء الله تعالى حجة مودعة في اليوم وما بعده، وكتب لليلتين بقيتا من ذي العقـدة سـنة سـت عشـرة وخمسمائة[2].

---

(1) الخرج: هو المال المستحق لاحدى الجهات الحكومية من خراج أو ضريبة.

(2) المقريزي، اتعاظ الحنفا في أبار الأئمة الفاطميين الحنفا، ج3، ص89-92.

2.2.3 التوقيعات:

جمع توقيع وله عدة معانٍ في اللغة، منها يــأتي بمعنـــى الإصـــابة وخفـــة التأثير[1]، ويأتي بمعنى أن يصيب المطر بعض الأرض ويخطئ بعضها[2].

وعرّف ابن خلدون التوقيعات "هو أن يجلس الكاتب بين يدي الســلطان فـــي مجالس حكمه وفصله، ويوقع على القصص المرفوعة إليه أحكامها والفصل فيهـــا، متلقاة من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه "[3]. وهو يتفق مع ما كان شائعا في اصـــطلاح الأقدمين من أنّه اسم لما يكتب في حواشي القصص كخط الخليفة أو الوزير أو خط كاتب السر، ثم غلب حتى صار علما على نوع خاص مما يكتـــب فـــي الولايـــات وغيرها"[4]فالتوقيعات هي عبارات فصيحة بليغة، ترتبط بالواقع المعيش، ولها من المكانة بين فنون الأدب حق التفرّد والامتياز وهذا راجع إلى أصـــالتها واعتمادهـــا على الإيجاز الذي هو أساس البلاغة العربية.

ويرى محمد الدروبي أن العصر العباسي هو عصـــر ازدهـــار التوقيعـــات العربية وقد ازدهرت هذه التوقيعات بسبب ازدياد العنصر الفارســـي فـــي الدولـــة العباسية، حيث طوروا هذه التوقيعات، ولم يقتصر أثرهم عند المناحي الموضـــوعية في التوقيعات بل تعداه للمناحي الأسلوبية، وعدلوا عن الإيجاز إلى الإطناب فيهـــا، حيث نظموا لها هيئة إدارية خاصة سميت "ديوان التوقيع" يعمل فيه أمهـــر الكتّـــاب حيث يوقعون على الكتب الواردة على أبواب الخلفاء [5]، حتى أصبح التوقيـــع مـــن

---

(1) ابن منظور، المصري، لسان العرب، مادة وقع.

(2) إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، مادة وقع.

(3) ابن خلدون، المقدمة، ص247.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى، ج11، ص114.

(5) محمد محمود الدروبي، الرسائل الفنية في العصر العباسي حتـــى نهايـــة القـــرن الثالـــث الهجري، دار الفكر، عمان، 1999، ص65.

المناصب الخطيرة لأرباب القلم وفيه إشارة لمقولة علي بن خلف صاحب "مواد البيان" حين اعتبر صاحب التوقيع "يد السلطان ولسانه"[1].

وبذا فالتوقيع ينظم على رد موجز يضع الأمور في نصابها الصحيح، إذ يتوخى الإصابة من هذه الجهة، كما يترك أثرا من الجهة الأخرى من صاحب الرسالة الموقّع عليه سواء أكان هذا التأثير خفيفا أم شديدا، سلبيا أم إيجابيا، فالمهم أن صاحب الرسالة يناله أثر جرّاء التوقيع، مع إغضاء الطرف عن طبيعة هذا الأثر وتبعاته[2].

والطريقة التي كانت يتبعها الخليفة الفاطمي للتوقيع على القصص وكتابة علامته عليها وتنص على أن علامة الخلفاء الفاطميين جميعا كانت: " الحمد لله رب العالمين" ؛ وكان الخليفة إذا رفعت إليه القصة وقّع عليها : "يعتمد ذلك إن شاء الله تعالى" و"يوقع في الجانب الأيمن منها عليها : "يوقع بذلك"، فيخرج إلى صاحب ديوان المجلس فيوقع عليها جليلا، ويخلى مكان العلامة فيعلم عليها الخليفة وتثبت؛ وكانت علامتهم أبدا "الحمد لله رب العالمين"[3].

وقد يكون التوقيع للتزكية، أو للمناقشة، أو لإبداء الرأي والاقتراح، أو للاعتراض. ويبدو أن التقاليد المتبعة -على الأقل في النصف الثاني من العصر الفاطمي- كانت توجب أن يوقع الخليفة بخطه على التقليد الصادر بتعيين الوزير بكلمات فيها التأييد لوزيره والإشادة بفضله كما هو واضح في هذا التوقيع -. المفروض أنه الخليفة الفائز، ولكنه في الحقيقة ابن الخلاّل كما يرى الدكتور جمال الدين الشيّال حيث يقول وأرجّح أن هذا التوقيع كتب للفائز فقد كان عمره حينذاك في الخامسة من عمره[4].

---

(1) علي بن خلف الكاتب، مواد البيان، تحقيق : حسين عبد اللطيف، منشورات جامعة الفتح، طرابلس، 1982، ص74.

(2) محمد الدروبي، الرسائل الفنية في العصر العباسي، ص68.

(3) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج2، ص245.

(4) جمال الدين الشيّال، مجموعة الوثائق الفاطمية، ط 1، مكتبة الثقافة الدينية، 2002م، ص169.

قال القاضي النعمان: أمرني الإمام المعز لدين الله بالجواب عن مسائل وردت عليَّ من بعض النواحي، بعد أن طالعته في ذلك منسوباً إليه . فكتبت الجواب عنها ورفعته إليه ليتصفحه فيكون ما ارتضاه منه منسوباً إليه ومروياً عنه، كما صححت كذلك ما كنت رويته عن آبائه، واستأذنته في أن يكون ذلك مروياً عنه، في رقعة ذكرت ذلك فيها ورفعتها إليه.

فوقّع بخطّه إليَّ في ظهرها: يا نعمانُ أنْفِذ هذا الجواب فقد أحسنت فيه، أحسن الله إليك، وأعانك على ما أخذت به نفسك من ابتغاء رضى الله ربك ورضانا عنك، وختم لك بالسعادة في دينك ودنياك، فقد أتيت بالجواب على ما يجب[(1)].

كتب جؤذر عن نفسه رقعة يرغب فيها إلى المعز في إسعافه بما تقدمت فيه من حاجته ويسترحم في ذلك ويتضرع إليه، فوقّع إليه المعز:

يا جؤذر والله ما نسيناك، ولكن تعاورتنا أشغال وفِكَرٌ حالت بيننا وجميع ما تريده لك من ذلك، فوا الله ما أخرج من بيتي إلاّ هرباً منه لثِقَل ما يرد على النفس عند الخلوة، إذ لا معين إلاّ الله الواحد القهّار، فاخرج لكي أستريح من بعض ما أجده، فما ازداد إلاّ تعباً ونصباً، والله ييسر لنا ما عسير ويسهّل كل مستصعب، والذي رغبت فيه كنّا له على ما تحب بحول الله وقوه إن شاء الله[(2)].

ونوع التوقيع (توقيع على طرة السجلّ) صادر إلى وزير الخليفة الفائز الصالح طلائع بن رزيك وتاريخ هذا التوقيع نفس تاريخ كتابة الوثيقة، وثيقة تقليد الصالح طلائع الوزارة.

"لوزيرنا السيد الأجلّ، الملك الصالح ناصر الأئمة، كاشف الغمة، أمير الجيوش، سيف الإسلام، غيّاث الأنام، كافل قضاة المسلمين؛ وهادي دعاة المؤمنين، أبو الغارات، طلائع بن رُزيك الفائزي، عضّد الله به الدين، وأ منع بطول بقائه أمير المؤمنين، وأدام قدرته، وأعلا أبداً كلمته من جلالة القدر، وعظيم الأمر، وفخامة الشأن، وعلوّ المكان، واستيجاب التفضيل، واستحقاق غايات المنّ الجزيل، ومزية الولاء الذي بعثه على بذل النفس في نصرتنا، ودعاه –دون الخلائق- إلى القيام بحق

(1) القاضي نعمان، المجالس والمسايرات، ص357.

(2) سيرة جؤذر، ص91-92.

مشايعتنا، ما يبعثنا على التبرع له ببذل كل مصون، والابتداء من ذاتنا بالاقتراح لـــه بكل شيء يسر النفوس ويقر العيون.

والذي تضمنه هذا السجلّ من تقريضه وأوصافه، فالذي تشتمل عليه ضمائرنا أضعاف أضعافه، ولذلك شرفناه بـ جميع التدبير والإنالة، ورفعناه إلى أعلـــى رتـــب الأصفياء بما جعلناه له من الكفالة.

والله تعالى يعضّد به دولتنا، ويحوط به حوزتنا، ويمدّه بمواد التوفيق والتأييد، ويجعل أيامه في وزارتنا ممنوحة غاية الاستمرار إن شاء الله تعالى"[(1)].

وهناك توقيع للمعزّ إلى صاحب بيت المال بشراء حاجياته وحاجيـــات أولاده بسعر باقي الناس، "تقدم يا محمد بابتياع لنا ولمولاك عبد الله "ولي العهد" في كل يوم من الفاكهة الرطبة واليابسة كذا وكذا بسعر الناس، ولا تعرّف الرسول لـــئلا يقـــع محاباة ولا مسامحة، وكذلك حوائج المطبخ"[(2)].

وهذا توقيع آخر للخليفة العاضد إلى صلاح الدين يوسف بن أيـــوب بتعيينـــه وزيرا له، وكاتب هذا التوقيع القاضي الفاضل.

"هذا عهد أمير المؤمنين إليك وحجته عند الله تعالى عليك، فـــأوف بعهـــدك ويمينك، وخذ كتاب أمير المؤمنين بيمينك؛ ولمن مضى بجدّنا رسول الله –صلى الله عليه وسلم- أحسن أسوة، ولمن بـقي بقربنا سلوة [(3)]. ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[(4)]".

ومن توقيعات الحاكم بأمر الله عندما كتب بعض العمّال إليه رقعة يقول فيها: إن الوافدين كثروا وإن عطاء أمير المؤمنين وافر، فوقّع على الرقعة يقول:

---

(1) انظر جمال الشيّال، مجموعة الوثائق الفاطمية، ص312.

(2) محمد ماهرحمادة، الوثائق السياسية والإدارية للعهود الفاطمية والأتابكية والأيوبية، دراســة نصوص، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1400هـ/1980م، ص107.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج9، ص407.

(4) سورة القصص، الآية 83.

"المال مال الله، والخلق عيال الله، ونحن أمناء الله في الأرض، فأطلق أرزاق عباد لله، واحذر من قطعها"[1].

ورفع الناظر بالديار المصرية إلى الحاكم بأمر الله كتابا يقول فيه : "إن لم يغلق باب القبول عمّن هاجر إلى الدعوة النبوية، لم يبق أحد في مشارق الأرض ومغاربها إلا وهاجر إليها وكان ما يدفع إليهم يستغرق فضول الارتفاع " فوقّع الحاكم بأمر الله على رقعته : "الغربة مذلّة الأعناق، والفاقة مرّة المذاق، والمادة من الله الرزّاق، فأجْرِهم على عوائدهم في الإنفاق[2] ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾[3]".

ومن توقيعات المستنصر بالله عندما رفع إليه استيمار الرواتب، وقد أنقص منه قوم، فوقّع بظاهره:

"الفقر مرّ المذاق، والحاجة تذلّ الأعناق، وحراسة النعم بإدارة الأرزاق، فليجروا على رسومهم في الإطلاق[4] ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾[5]".

ومن توقيعات المعزّ، قال القاضي النعمان : سألني المعزّ عن أمر رُفِعَ في بعض الحكّام قَرَفَ به في نفسه، فكتبت إليه فيه أن ذلك يقال عنه، ويُستفاض فيه ويتكلم الناس فيه عن غير حقيقة يثبت بها، والله أعلم بذلك، فوقّع إلي تحت ذلك : قد سَتَرْنَا، وكذلك قال مولاك علي بن الحسين عليه السلام : لم يعِش مع الناس إلا من جَهِلَهُمْ"[6].

لقد عرفت أمم كثيرة كالفرس واليونان والهنود والصينيين وغيرهم التوقيعات منذ أزمنة قديمة، فقد كان عظماؤهم يوقعون في أسافل الرسائل المرفوعة إليهم أو على ظهورها، أو بين سطورها تعليقات موجزة مختصرة، تتضمن ردّاً مناسبا على

(1) حمادة محمد ماهر، الوثائق السياسية والإدارية للعهود الفاطمية والأتاباكية والأيوبية.
(2) محمد محمود الدروبي ورفيقه، جمهرة توقيعات العرب، مركز زايد للتراث والتاريخ، ج 1، ط1، 1421هـ/2001، ص196-197.
(3) سورة النحل، الآية 96.
(4) المقريزي، اتعاظ الحنفا في أخبار الخلفا، ج3، ص343.
(5) سورة النحل، الآية 96.
(6) القاضي النعمان بن محمد، المجالس والمسايرات، ص98

كل ما ا شتملت عليه كل واحدة من هذه الرسائل فلا غرابـــة أن تحـــوي المصــــادر العربية قدراً لا بأس به من تو قيعات هذه الأمـــم ولا ســـيما الفـــرس علـــى وجـــه الخصوص لما كان عليه منعقدا بين الفرس والعرب من صلات حضارية وثقافيـــ ة واقتصادية وسياسية، وقد تعمّقت جذورهذه الصلات بعد اعتناق الـ فرس الإســـلام، وإتقانهم للّغة العربية وتعرُّب كثير منهم . والعرب كغيرهم من الأقوام عرفـــوا هـــذه التوقيعات وتمرّسوا بها مـ نذ عهد الخلفاء الراشدين قبل أن يقوموا بنقل النظم الإدارية عن الفرس مما يدل على عر وبة هذه التوقيعات التي كتبت في هذه المدة المبكـــرة، وأن العرب لم ينقلوها عن غيرهم في هذا الطور، كما يذهب نفر من الدارسين(1).

وقد اهتم الفاطميون بالتوقيعات وأولوها عناية كبيرة فقد كشـــفت المصــــادر الفاطمية كسيرة جؤذر، والمجالس والمسايرات وعيون الأخبار وفنون الآثا ر، واتعاظ الحنفا، عن توقيعات نفيسة من توقيعات الفاطميين التي تميل -غالباً- إلـــى الإطالـــة مخالفة للإيجاز الذي يعد جوهر التوقيع وأهم ما يميزه عن غيره من ألوان التعبيـــر الأخرى. غير أننا نلحظ أكثر توقيعات الفاطميين للخليفة المعزّ لـــدين الله الفـــاطمي ولعل السبب عائد إلى ما وصل إلينا من كتابات معاصرين لهذا الخليفة هما : القاضي النعمان والأستاذ جؤذر(2).

وبقي القول أن توقيعات خلفاء الدولة الفاطمية فهي وإن كانت تبتعـــد -فـــي الغالب- عن أهم ملامح التوقيعات العربية إلا أنها تحتفظ بقيمـــة متعـــددة الوجـــوه، وتعتبر بحق وثائق أدبية تاريخية.

3.2.3 عقود الأمان:

الأمان هو الأمر الأول من الأمور الثلاثة التي يرفع بها القتل عن الكفّار، قال العلماء: وهو من مكايد القتال ومصالحه، وإن كان فيه تـــرك القتـــال : لأن الحاجـــة داعية إليه، والأصل فيها من الكتاب قوله تعالى : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ

(1) الدروبي، محمد محمود ورفيقه، جمهرة توقيعات العرب، ج1، المقدمة5.

(2) المرجع السابق، ص7.

﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾(1) ومن السنّة قوله –صلى الله عليه وسلم: "**المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم**"(2).

وقد ذكر الفقهاء له أركانا وشرائط وأحكاما:

فأما أركانه فثلاثة:

الأول: العاقد للأمان من المسلمين . وليُعلم أن الأمان على ضربين عام وخاص. فالعام هو عقده للعدد الذي لا يحصر كأهل ناحية؛ ولا يصح عقد الأمان فيه إلا من الإمام أو نائبه كما في الهدنة.

والخاص: هو عقده للواحد أو العدد المحصور؛ ويصح من كل مسلم مكلّف وإن لم تكن له أهلية القتال، فيصح من العبد والمرأة، والشيخ الهرم والسفيه والمفلس بخلاف أمان الصبي والمجنون.

الثاني: المعقود له ويصح عقده للواحد والعدد من ذكور الكفّار وإناثهم . نعم في تأمين المرأة عن الاسترقاق خلاف.

الثالث: صيغة العقد . وهي كل لفظ يُفهِم الأمان كناية كان أو صريحا، وفي معنى ذلك الإشارة المُفهِمة .ويُعتَبَر فيه قبول الكافر شرطٌ لا بد منه، حتى لو ردّ الأمان لم ينعقد.

أما شرطه: فأن لا يكون على المسلمين ضرر في المستأمِن: بأن يكون طليعة أو جاسوسا، فإنه يقتل ولا يبالي بأمانه ويعتبر بأن لا تزيد مدة الأمان على سنة بخلاف الهدنة فإنها تجوز عند ضعف المسلمين إلى عشر سنين.

أما حكمه: فإذا عقد الأمان لزم المشروط، فلو قتله مسلم وجبت الدية، ثم هو جائز من جهة الكفّار فيجوز للكافر نبذه متى شاء ولازم من جهة المسلمين فلا يجوز النبذ إلا أن يتوقع من المستأمِن الشر، فإذا توقع منه ذلك جاز نبذ العهد إليه ويلحق بمأمنه(3).

---

(1) سورة التوبة، الآية 6.

(2) صحيح البخاري ، حديث رقم 1771

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج13، ص321-323.

وللكتّاب مذهبان في كتابة كتب الأمان:

المذهب الأول: أن يفتتح الأمان بلفظ: "هذا كتاب أمان" أو "هذا أمان" قال علي ابنخلف في مواد البيان: والرسم فيه "هذا كتاب أمان ابن فلان الفلاني، وأمير المؤمنين أو وزيره، لفلان بن فلان الفلاني الذي كان من حاله كذا وكذا، فإنه قد أمّنه بأمان الله تعالى وأمان رسوله صلى الله عليه وسلم وأمانه".

فإن كان عن الوزير قال: "وأمان أمير المؤمنين فلان بن فلان وأمانه على نفسه وماله وشعره، وبشره، وأهله، وولده، وحُرَمِه، وأشياعه، وأتباعه، وأصحابه، وحاله، وذات يده، وأملاكه، ورِباعه وضِياعه، وجميع ما يخصه ويخصهم أمانا صحيحا، نافذا واجبا لازما، لا ينقض ولا يفسخ ولا يبدل، ولا يتعقب بـ مختالة، ولا دهانٍ ولا مواربة، ولا حيلة.... الخ"[1].

المذهب الثاني: "أن يفتتح الأمان بخطبة مفتتحة بالحمد، والرسم فيه أن يستفتح الأمان بخطبة يكرر فيها الحمد مرتين، أو ثلاثا فأكثر، بحسب ما يقتضيه حال النعمة على من يصدر عنه الأمان في الاستظهار على من يؤمّنه . يحمد الله في المرة الأولى على آلائه وفي الثانية على إعزاز دينه، وفي الثالثة على بعثه نبيه، وفي الرابعة على إقامة ذلك الخليفة من بيت النبوة لإقامة الدين؛ ويأتي مع كل واحدة منها بما يناسب ذلك"[2].

ومن الأمثلة على نصوص الأمان، نص أمان جوهر لأهل مصر لما فتحها باسم مولاه المعزّبسْم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من جوهر الكاتب، عبد أمير المؤمنين المعزّ لدين الله صلوات الله عليه - لجماعةأهل مصر الساكنين فيها . من أهلها ومن غيرهم، إنه قد ورد من سألتموه الترسّل والاجتماع معي وهم:

أبو جعفر مسلم الشريف –أطال الله بقاءه.

وأبو إسماعيل الرسي –أيّده الله.

وأبو الطيب الهاشمي –أيّده الله.

وأبو جعفر أحمد بن نصر –أعزّه الله.

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج13، ص320.

(2) المصدر السابق ، ص321

والقاضي –أعزّه الله.

وذكروا عنكم أنكم التمستم كتابا يشتمل على أمانكم في أنفسكم وأموالكم وبلادكم وجميع أحوالكم فعرفتم ما تقدم به أمر مولانا وسيدنا أمير المؤمنين – صلوات الله عليه - وحسن نظره لكم، فلتحمدوا الله على ما أولاكم وتشكروه على ما حماكم، وتدأبوا فيما يلزمكم، وتسارعوا إلى طاعته، العاصمة بكم ...... الخ وما أمر به مولاه من إسقاط الرسوم الجائرة التي لا يرتضي صلوات الله عليه - بإثباتها عليكم، وأن أجريكم في المواريث على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه -...... ولكم عليّ أمان الله التام العام، الدائم المفصل، الشامل الكامل المتجدد المتأكد على الأيام وكرور الأعوام، في أنفسكم وأموالكم وأهليكم ونعمكم وضياعكم ورباعكم وقليلكم وكثيركم، وعلى أن لا يعترض عليكم معترض ولا يتجنّى عليكم متجنٍّ، ولا يتعقّب عليكم متعقّب، وعلى أنكم تصانون وتحفظون وتحرسون، ويذبّ عنكم ويمنع نكم، فلا يتعرّض إلى أذاكم، ولا يسارع أحد في الاعتداء عليكم ولا في الاستطالة على قويكم......"[1].

وهذه نسخة أمان للحاكم بأمر الله لأهل الأسواق بخاصة:

منع الحاكم الناس من الدخول من باب الزهومة إلى باب الزمرد لأنه ملاصق للقصر، ثم سمح للمكارين[2] بالدخول وكتب لهم أمانا، ثم خاف الناس فطلبوا منه أن يكتب لهم أمانا ، فكتب أكثر من مائة أمان لأهل الأسواق بخاصة، وكلها نسخة واحدة، ونصها كما يلي "هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبي علي الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين لأهل مشهد عبد الله ، إنكم من الآمنين بأمان الله الملك الحق المبين، وأمان سيدنا محمد خاتم النبيين، وأبينا عليّ خير الوصيين ، وذرية النبوة المهديين آبائنا صلى الله على الرسول ووصيه وعليهم أجمعين - وأمان أمير المؤمنين على النفس والأهل والدم والمال لا خوف عليكم ، ولا تهديد بسوء إليكم، إلا في حدٍّ يقام بواجبه وحق يؤخذ لمستوجبه، فليوثق بذلك وليعول بأمان الله.

(1) المقريزي، اتعاظ الحنفا في أخبار الخلفا، ج1، ص148-153.

(2) المكارين: المكاري هو مكري الدواب ويغلب على الحمّار والبغّال.

وكتب في جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثلاثمائة . والحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد سيد المرسلين وعلى خير الوصيين وعلى الأئمة المهـديين ذرية النبوة وسلّم تسليما"[1].

4.2.3 البيعات:

مصدر بايع فلان الخليفة يبايعه مبايعة، ومعناها المعاقدة والمعاهـدة وهـي مشبهة بالبيع الحقيقي [2]؛ ويقال بايعه وأعطاه صفقة يده؛ والأصل في ذلك أنه كـان من عادة العرب أنه إذا تبايع اثنان صفق أحدهما بيده على يـد صـاحبه، وذكـر القلقشندي خمسة أسباب موجبة لأخذ البيعة على الرعية ، والذي يهمنا هـو السـبب الرابع وهو: أن تؤخذ البيعة للخليفة المعهود إليه بعد وفاة العاهد، كما كان الخلفـاء الفاطميون يفعلون في خلافتهم بمصر ، وكانوا يسمون البيعة سجلاً، كما كانوا يسمون غيرها بذلك[3].

وما ينبغي مراعاته في كتابة البيعة للخليفة الجديدة أمور كثير منهـا : حسـن الافتتاح والتنبيه على شرف الخلافة ، وبيان الحاجة الماسة إلى وجود إمام، والإشارة إلى أن صاحب البيعة قد استوفى شروط الإمامة، وأنه أفضل من غيره . ثم التنبيـه على أهل الحل و العقد في المملكة، وهم الذين لهم فضل المبايعة، والتنبيه على سبب خلع الخليفة السابق إن كانت البيعة مترتبة على خلع ،ثم التنبيه على وجوب طاعـة الخليفة الجديد والانقياد له، ولا ينسى الكاتب التعبير عن معنى التعزية في الخليفـة الميت، ومعنى التهنئة للخليفة الجديد المستقر إن كانت البيعة مبينـة علـى مـوت خليفة[4].

ونجد أن موضوع البيعات على اختلافها محدد، فهو عرض وطلب، فـي آن واحد، يكون الخليفة الطرف الأول العارض والطالب، أما الرعيـة فهـي الطـرف

---

(1) المقريزي، اتعاظ الحنفا في أخبار الخلفا، ج2، ص57-58.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج9، ص281.

(3) المصدر السابق، ص284.

(4) المصدر السابق، ج9، ص280-331.

الآخرين. عليها إلا الموافقة وعن رضا وطيب خاطر . فجاءت البيعات لدرجة التطابق تقريبا مما يجعلها لا تمتاز بثراء في مضمونها[1].

ومن النماذج على البيعات من العصر الفاطمي البيعة التي كتب بها عن الحافظ لدين الله بعد وفاة ابن عمه الآمر بأحكام الله، قام بعقدها الوزير أبو الفتح يانس الحافظي وعند إمعان النظر نجد أن هذه البيعة موجهة من الخليفة الحافظ إلى أهل الدولة جميعا : شريفهم ومشروفهم، وأميرهم ومأمورهم، وكبيرهم وصغيرهم، وأحمرهم وأسودهم، وتبدأ –كالعادة- بالحمد وبالصلاة على محمد وعلى آله الطاهرين الأئمة المهديين، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.

ثم تهتم هذه البيعة أو الوثيقة اهتماما خاصا بالإشارة على وصية النبي عليه الصلاة والسلام إلى ابن عمه علي يوم غدير خم[2]، وإلى كلمته التي قالها يومذاك: من كنت مولاه فعلي مولاه"، واهتمام الوثيقة بالتنويه بهذا اليوم وما قيل فيه له مغزاه، فإن تولية الحافظ للخلافة بعد ابن عمه الآمر كانت تجربة جديدة بالنسبة لتاريخ الدولة الفاطمية، فللمرة الأولى يخالف المذهب الإسماعيلي في أصوله، ولا يلي الخلافة ابن الخليفة السابق بل ابن عم له، مما اقتضى الرجوع إلى يوم غدير خم للبحث عن مبرر وسابقة تاريخية يعتمد عليها لتبرير ولاية ابن العم.

ثم تنتقل الوثيقة إلى التعزية في الخليفة المنتقل الآمر بأحكام الله الذي مات شهيدا "وكان انتقاله إلى جوار ربه تبارك وتعالى كانتقال أبيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، بغيا من الكافرين واغتيالا".

---

(1) محمد محمود الدروبي، الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن 3هـ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، عمان، 1999، ص30

(2) خم: موضع بين مكة والمدينة به غدير أبو بطيحه وحوله شجر كثير؛ ويقال أن الرسول عليه الصلاة والسلام لما عاد من مكة بعد حجة الوداع سنة 10 هـ نزل بغدير خم، وآخى علي بن أبي طالب ثم قال : "علي مني كهارون من موسى، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله" ويعلق الشيعة على هذا الحديث أهمية كبرى إذ يعتبرونه بمثابة مبايعة علنية من الرسول –قبيل وفاته- لعلي بن أبي طلب . انظر ياقوت، معجم البلدان.

ثم تورد الوثيقة الأدلة التي تثبت صحة انتقال الخلافة إلى الحافظ ومنها:

- أن الآمر كان يذكر –أثناء حياته- ما يعلمه من حق أمير المؤمنين (يعني الحافظ) تارة مجاهرا وتارة مخافتا، إلى أن صار على بسط القول في ذلك وتبيينه مثابرا متهافتا، وأفصح بما كان مستبهما مستعجما".
- وأنه فعل ذلك عندما ألغى الحافظ أشرف فرع من سنخ النبوة، ورآه أكرم في فخاره الأبوة وذلك لأن أبا الحافظ وهو الأمير أبو القاسم محمد - عم الآمر وهو كما يقول النص :"سليل الإمامة القليل المثل ، ونجل الخلافة المخصوص من الفخر بأجزل حظ وأوفر كفل".
- أن المستنصر كان قد سمى ابنه هذا أبا القاسم محمد (والد الحافظ وعم الآمر) ولي عهد المسلمين "وتضمن ذلك ما خرجت به توقيعاته وتسويغاته إلى الدواوين، ويثبت في طرز الأبنية وكتب الابتياعات والأشربة [1]. وعلمته الكافة علما يقينا، ظلت منه غير مرتابة ولا ممترية".
- أن هذه التسمية كانت تتضمن باطنا لا يعقله إلا العالمون، فقد كان الخليفة الحافظ هو الغرض منها والمقصد والبغية والمطلب "وكان والده الأمير أبو القاسم -قدّس الله روحه - بمنزلة الأشجار التي يتأنى بها إلى أن يظهر زهرها، والأكمام التي ينتظر بها إلى أن يخرج ثمرها، والزرجونة [2] التي نقلت الماء إلى العنقود".
- ثم تذكر أن محمدا -عليه السلام- قد عقد الولاية لابن عمه علي يوم غدير خم مع وجود عم له حاضر، وكذلك فعل الآمر نص على ابن عمه الحافظ مع حضور عمومته "وفعل جده رسول الله، إقتداء به وانتهاء إليه".
- ثم تشير إلى سابقة أخرى، وهي أن أبا علي المنصور الحاكم بأمر الله جعل ابن عمه عبد الرحيم ابن إلياس ولي عهد المسلمين.

---

(1) هذا نص له أهمية كبرى، فإن المعروف أن بعض الخلفاء الفاطميين كانوا يأمرون بأن يضرب اسم ولي العهد على السكة وأن ينقش على الطراز أي المنسوجات، ولكن النص هنا يضيف جديدا، يضيف أن اسم ولي العهد كان يثبت في طراز الأبنية " ".

(2) الزرجونة : بفتح الراء أو سكونها وهي كلمة فارسية معناها شجر العنب أو قضبان الكرم

"وميّزه بذلك على كافة الناس أجمعين، ونقش اسمه في السكة وأمر بالدعاء له على المنابر وبمكة وألبسه شدة الوقار [1] المرصعة بالجوهر، واستنابه عنه إمام الأعياد في الصلاة وفي رقي المنبر، وأقامه مقام نفسه في الاستغفار لمن يتوفى من خواص أوليائه، وفي الشفاعة لهم بمتقبل مناجاته ومسموع دعائه، مع علمه أنه لا ينال رتبة الخلافة، ولا يبلغ درجة الإمامة، وأن الإمام الظاهر لإعزاز دين الله هو الذي خُلِق لها".

ثم تختتم الوثيقة با لإشارة إلى مكانة الوزير الأجلّ أبي الفتح يانس الفاطمي وتوفيه حقه من التعظيم والتبجيل.

وتدعو الوثيقة أخيرا الناس جميعا إلى الدخول في بيعة الخليفة الحافظ منشرحة صدورهم، طيبة نفوسهم.

ومن الأمثلة على سجل البيعات ما صدر بولاية العهد من خليفة لولده وهو من إنشاء القاضي الفاضل:

نسخة بولاية العهد من خليفة لولده، من إنشاء القاضي الفاضل، أتى فيها بالتحميد بعد التصدير ثلاث مرات، وهي:

((من عبد الله ووليه فلان أبي فلان الإمام الفلاني إلى فلان الفلاني.

أما بعد، فالحمد لله الذي أستحق الحمد بفضله، وأجرى القضاءَ (على ما أراده) ووسع الجرائم بعفوه وعدله، وصرف المراحم بين قوله وفعله، وأعلى منار الحق(380) وأرشد إلى أهله، واختار الإسلام ديناً وعصم المعتقلين بحبله، وأوضح سبل النجاة بما أوضح لسالكيه من سبله، وتعالى علاه إلى الصفات، فلم يوصف بمثل قوله "ليس كمثله" وتنزّه عن اشتراك التشبيهات في كل جليل الوصف مستقلة ومغيرتقله، علم ما أشتملت عليه خطرات الأسرار، وأشارات إليه نظرات الإبصار، وأنفجرت عنه غمرات الأخطار، وأخفته سترات الظلماء وباحت به جهرات الأنوار (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار) [2].

---

(1) شدّة الوقار: يقصد بها التاج الذي كان يتوج به الخليفة الفاطمي في المواكب العظام.

(2) سورة الرعد الآية 10.

والحمد لله الذي جعل الَّدين عنده الإسلام، فمن أبتغى غيره ضل المنهج، و أبعد المعرج، واستلقح المخدج، وغلط المخرج، وفارق النور الأبلج، وركب الطريق الأعوج، وأتى يوم القيامة باللسان الملجلج، ومن أسلم وجهه إليه فاز بالسعي النجيح، وحاز المتجر الربيح، وورد المورد الأحمد، ويمم القصد الأقصد، ووجد الجدَّ الأسعد، وسلك المنج الأرشد، فهو العروة الوثقى، والطريقة المثلى، والدرجة العليا؛ وأمر به خير المرسلين، المنعوت في سير الأولين، والمبعوثُ بالحق المبين، والقائم رسولاً في الأميين، والهادي إلى الحق وإلى طريق مستقيم؛ والداعي الذي من أجابه وآمن به غفر له ما تقدم من ذنبه وأجير من عذاب أليم، والمستقلُّ (بالعبء) العظيم، بفضل ما منح من الخلق العظيم، والممدوح بقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(1).

والحمد لله الذي وصل النبوَّةَ بالإمامة؛ وجعلها كلمةً في عقبه إلى يوم القيامة، وخصَّها بالخصائص التي لا تنبغي إلا لتامِّ الكرامة، وأجار بها خلقه من متالف الطامة وبوادى الندامة، وهدى بشرف مقامه إلى دار المقامه، واستردَّ بأنوار تدبيره من ظلام الباطل الظُّلامه، وأحسن بما أجراه من نظره النظر للخاصة والعامة ﴿إِنَّ هذا لهو الفضل المبين﴾(2).

يحمده أمير المؤمنين أن رفعه إلى ذلك الحلِّ المنيف، واستعمر به المقامَ الشريف، وأظهر كلمة الدين الحنيف، ونفى عنه تغالي التعمق وتجديف التحريف، وبين بموافقة توفيق هديه طريق التكليف، وأمدَّه بمواد إلهية، تشتهر فتستغنى عن التعريف، وتتصل فتقطع موادّ التكييف.

ويسأله أن يصلِّيَ على جدِّ محمدٍ الذي نسخ بشريعته الشرائع، وهذَّب بهدايته المشارع، وأيده بالحُجَج القواطع، والأنوار السواطع، وجعل من ذُرِّيَّته جبالَ الله القوارع، ومن مشكاته نجوم الهُدَى الطوالع، وعُرفتْ صنائعه بالله إذا افتخرت المنعمون بالصنائع.

---

(1) سورة التوبة الآية 128.

(2) سورة النمل الآية 16.

وعلى أخيه وأبينا أمير المؤمنين على بن أبي طالب المخصوص بأخوَّته، وأبــي الثقلينِ من عتْرته، والسابقِ إلى الإسلام فهو بعدهَ أبو عذرته، وإلى تفــ ريج الكــرب عن وجهه في الحرب فهو ابن بَجْدته.

وعلى الأئمة من ذريتهما مصابيح الظلمــات، ومفــاتيح الشــكوك المبهمــات، والممنوحين من شرف السِّمات ما جلَّ عن المُسامَات، والممدوحين بفضل اتجاه في الأرضين والسموات.

وإن الله بحكمته البديعة، ورحمته الوسيعة، أقام الخلفاء لخلقه قِوَاما وبحقِّه قُوَّاما، وجعل نار الحوادث بنورهم بردا وسلاما، وجعــل لهــم الهدايــةَ بــأمره لِزَامــا، واستصرف بهم عن الخلق عذابَ جَهَنمإِنَّ عَــذَابها كَــان غرَامًــا) [1] فهــم أرواحُ والخلائقُ أجسام،وصَيَاحُ والمسالك أَظْلام، وثمراتُ والوجود أكمام، وحُكَّام والحقائقُ أحكام، يسهرون في منافع الأنام وهم نِيَام، وينفردون بَوَصب النَّصّــب ويُفْــرِدونهم بلذَّات الجام، ويهتدون بهداياتهم إلى ما تَدِقُّ عنه حــوائِط الأفهــام، ولا يَــدْرَك إلا بوسائط إلهام.

وقصلطفى الله الأميرَ من تلك الأسْر ة ورقَّاه شرفَ تلك المنابر ومُلْــك تلــك الأسرةَّو أنار بمَقَامه نجومَ السع ادة المستَسِرَّة، واستخدم العَالَم لأغراضه، وسدَّد كلَّ سهم في رَمْيه إلى أغراضه، وأقرضَ الله قرضاً حسناً فهو واثقُ بحُسْــن عواقــب إقراضه، وافترضَ طاعتَه في خَلْقه فالسعيدُ من تلقَّى طاعة أمير المؤمنين بافتراضه، وأمضى أوامرَه على الأيَّام فما يقابلها صَرْفٌ من صروفها باعتراضه، وأدار الحقَّ معه حيث دار، وكشف له ما أستجنَّ تحتَ أستار الأقدار، ووقف الخِيرة والنُّصْــرة على آرائه ورايات فهو المستشار والمستخار؛ وألهمه أن يحفَظَ للأمة غَدَها كما حَفِظ لها يْومها، وأن يُجْرِيَ لها مَوَارِد توفيقالارتياد ولا يُطِيــلَ حَوْمهَــا، وأن يجعــل المؤمنَ على ثَلَج من الصدور، وفَلْج من الظهور، ويُدِعَ عندها بَرْدَ اليقين بالإشــارة على مستَوْدع النور، ويجلها على شريعةٍ من الأمر فتتبعها، ويحلها بمنزل ه الخصب فترتبعها؛ ويعلم ندى خيرليكُون غايتها ومفزعها، ويعرفها من تنتظره فتتخذه مآل ها

(1) سورة الفرقان الآية 65.

ومرجعها، ويقتدي في ذلك بسيد المرسلين في يوم الغدير، ويشير إلى من يقوم بـــه المشيرُ مقام البشير.

ولما كنتَ حافظَ عهد أمير المؤمنين والسيّدَ الذي لا بد أن يُتوجَ بـــه الســـرير؛ والنجم الذي لا بد أن نستطيل إلى أنواره ونستطير، والذخيرة التي اذَّخرها الله لنيل كلخطر ودفع كل خطير، والسحاب الذي فيه الثـ لج المطير، والنجم المنير والـــرجم المبير، وقد تجلت لـ للأوجه الكرامات وتبدت، وتبرحت لـ ك مخطوبـــات المقامـــات وتصددت، وطلبتك كفئاً لنيل عقليتها وسكنى معقلها فما تعدّتْ، وأدت إليـــك لطـــائف فهمك من أسرار الحقائق ما أدتْ؛ وعرفتْ من سيمـ ـاك هدى النبوة، واجتمع لك مزّية الشرفين من الطرفين الأبوة والبنوة، وأخذت كتاب الحكمة ومصون العصمة بقـــوة، وأجرت القلوب التي بعوارض الشك ممنوه، وآثرت العقائد التي بنواقض العقد مملوَّه وغدت وجوه الأنام بأيامك مجلوّة، وتوافقت الألسن على مدحك ولا مثل ما مدحت من الآيات المتلوّه، وكنت بحيث تذهب بالأهوال المسلُوّه، وتُقْبل بالآمال المرجوه، ولـــو أن ركْباً ضلَّ لهَدَاهُ نُورُكَ في الليل البهيم، ولو أن ذكْرَك شَذَّ لتبـــدّى فـــي الآيـــات والذكر الحكيم، ولو أنك طلعتَ على الأولين لما تساءلوا ولا اختلفوا في النبأ العظيم، ولو أن قديماً علا فوق كل حديثٍ لقام لك الحديثُ مقامَ القديم، ولو أن جميعَ الأنام في صعيدٍ لصَعِدت دونهم المقام الكريم، ولو أن يدك البيضاء تجسمت للناظرين لأعدت آية موسى الكليم، هديتك الغراء تنسَّمت للذاكرين لأحييت بها العظام وهي رميم، ولو أن علومك انتشرت بين العلما ء لتلوا: (وفوق كلِّ ذي علم عليم)[1] ؛ ولـــو أن ليلـــة ولادتك رصدتها البصائر، رأت كيف يفرق فيها كل أمر حكيم، والصفات إذا احتفل أربابُها وقفت لك عبيداً، والأيامُ إذا كانت ظروفاً لفضائلك كان كلُّ يوم منها للعبيـــد عيدا، والأنساب إذا كانت ظروفاً الجدُّ سعيداً، فلتفخـ ـر قبل السير بأن أمليـــت عليهـــا السُّور.

وابشر بأن المنتظر من فضل الله لك فوق ما تعجله النظر، وأشمخ بـــأن ســـادة القبائل مضر وأنك بعد أمير المؤمنين سيدُ مضر، وابذخ بأنك عوض من كـــل مـــن غاب وما عنك عوض في كل من حضر ، وابجح بأنك قد أهلت لأمر أبـ ـى الله له إلا

---

(1) سورة يوسف الآية 76.

أُولي العزم والخطر، وأشكر الله على نعمةٍ خلقك لها بقدر، ومزيةٍ لا يزفى حقها من أضمر فأغرق أو نطق فشكر : وقل:(الْحَمْدُ للّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ)(1).

وقُلْ: (ربِّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه)(2).

فإليك هذا الأمر يصير، وأنت له والله لك نعم المولى ونعم النصير، وتأهبْ لــه في درجته التي لا ينا لها باعٌ قصير، ولا يمتطيها إلا من اختاره الله على علــم مــن أهل الثقليْن، ولو أن بعضهم لبعضٍ ظهير، ولا نرى لها أهلاً إلا مــن أراه الله مــن آياته أنه هو السميع البصير، وفاوض أمير المؤمنين في مشكلات الأمر ولا ينبئــك مثل خبير، واقتد منه بمن هو (في) أهل البائن دون الخلق بشير، وسرْ إذا اســتعملك الله فيهم بما رئي أمير المؤمنين به فيهم يسير، و ادع الله بأن ييســرّ علــى يــدك مناجحهم إن ذلك على الله يسير، واعرف ما آثرك الله به من أنه لم يجعل ليدك كُفوا إلا ذا الفقار، ولا لقدمك كفؤاً إلا المنبر والسرير، وتحدث بنعمة الله وإجرائها فأمير المؤمنين اليوم عليك أميرُ وأنت غداً على المؤمنين أمير: (هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ)(3).

وأما العدل وإفاضته، والجور وإغاضــته، والعَّ صــْعَبُ ورياضــته، والجــدب وترويضه، والخطب وتفويضه، والجهاد ورفع علمه، والذب عن ديــن الله وحفــظ حرمه، والأمر بالمعروف ونشر ردائه، والنهي عن المنكر وطيُّ أعتدائــه، وإقامــةُ الحدّ بالصُّفْح والحَدّ، والمساواةُ في الحق بين المولى والعبد، وبثُّ دعوة الله في كــل غَور من البلاد ونجد، وأمر عباد الله إن عباد الله في زمنك الرغد، فذلك عهْد الأئمة الراشدين، وهو إليك من أمير المؤمنين، عَهْدٌ مؤكَّ د العقد: وهو سُنِّه فضل الخلفــاء

(1) سورة الأعراف الآية 43.

(2) سورة النمل الآية 19.

(3) سورة النمل الآية 40.

التي لا تجدتلهايلاً، ومعنى العهد الذي أمر الله بالوفاء بـــه فقـــال : (إن العهد كان مسئولاً)[1].

وهل يُوصَى البحرُ بتلاطم أمواجه؟ وتدافع أفواجه؟ وبتزاخر عجاجـــه؟ وهـــل يحض البدر المنير على أن ينير سراجه، ويطلع ليتضح للسالك منهاجه؟

أو ينبه على هدايته إذا تهادَتْه أبراجُه؟.

وعليك من رسائر أنوار الله ما يغنيك أن توصـ ـي، ولديك من ظواهر لطائف الله ما تميز به عن الخلق إذا أضحيت به مخصوصاً، ومـــن شـــواهد اختيـــار الله مـــا تظاهرت عليك آياته نصوصاً، فبسلام الله يحيك المـــؤمنين، وبـــالاعتلاق بعصـــمة ولائك في يوم الفزع الأكبر يأمنون، والله منجز لك وعده كـ ما أنجزه لمن جعلهم أئمة لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون.

والله سبحانه يُهدى إليك تحية من عنده مباركة طيبة، ويسدي إلى مقـــام شـــرفك سحابة رحمة غدقةً صبيبه، ويجعل ما رآه أمير المؤمنين من ولايتك عهده، وكفالتك للأمة بعده، للمسرات ناظماً، وللمساءات حاسماً، وللبركات جامعاً، وللباطل خافظـــاً وللحق رافعاً.

وأمر أمير المؤمنين أن يعيَّن على رجال من أولياء دولتـــه ، ووجـــوه شـــيعته، وأنصار سرته، عدة يكون إليك أعتزاؤها وبك اعتزازها ، وببابك العـــالـ ي إقامتهـــا، وإلى جانبك انحيازها، فتكون موسومة بالعبودية، ومتعرّضةً بالولاء للسعادة الأبدية ؛ فتتمثل عل ما تمثله من المراسم وتتصرف على ما تصرفها عليه من العزائم وتكون أبداً لما ينفذ عنك من أحكام الهبات والمكارم، وتقوم من ملازمة الخدمة في مواكبك بما هو لكل خادمٍ فرض لا زم، وتسارع في مطالبك إلى ما يســـارع إليـــ ه الحـــازم، وتجود ياسماء الإنعام بالغ دق الساحي وتقدر لها من الواجبات والزيادات ما تقتضيه همم المكارم؛ تبذل في الخدمة الاجتهاد، وتنافس فيما تستمد (به) الحظوة بحضـــرته والإحماد؛ وعرضها من الإحسان الجم للازدياد وبلغها المراد بما تبلغ بها من المراد

(1) سورة الإسراء الآية 34.

لتتشرف بأن تكون تحت ركابه العالي متصرفة، وتفتخر بأن تكون أنسابها باسمة العالى متشرفة؛ إن شاء الله تعالى.

3.3 التنظيمات الإدارية:

أما ما صدر عن الديوان من كتابات سياسية وإدارية واقتصادية فقد تمثل في:

1.3.3 السجلّات:

السجلّات: جمع سجل، وهي المكاتبات الصادرة من ديوان الإنشاء باسم الخليفة وموجهة إلى أرباب الوظائف الكبار أو ملوك الدول الأجنبية أو كبار رجال الدعوة لإبلاغ حادثة من الحوادث أو بمنح لقب لأحد أرباب الوظائف[1].

وهذه الوثائق لها قيمة كبرى في الناحية الأدبية، وإن دلّت كثرة السجلّات على شيء فإنما تدلّ على اتساع رقعة الإمبراطورية إلى الشرق وإلى الغرب؛ كما نعتقد أنه كان من عادة الفاطميين إخبار الولاة بما يدور في داخل الإمبراطورية وخارجها وإرسال التعليمات إليهم.

وإن السجلّات الصادرة عن ديوان الإنشاء من الخليفة المستنصر بالله يجدها تبدأ بالبسملة: (بسم الله الرحمن الرحيم)؛ والحمدلة: (الحمد لله رب العالمين)، مكتوبين بخط اليد الشريفة النبوية، أي بخط الخليفة[2].

وذكر المقريزي أن صيغة (الحمد لله رب العالمين) تعرف بالعلامة وهي التي كان يوقع بها خلفاء الفاطميين في مصر لتدلّ عليهم[3].

ولكن لا تظهر هذه العلامة للخليفة المستعلي بالله في السجل الوحيد الذي أرسله إلى السيدة الحرّة[1]؛ فلعل الناسخ أسقطها سهواً دون قصد أو أهملها في

---

(1) ابن الصيرفي، قانون ديوان الرسائل، ص16.

(2) عبدالمنعم ماجد، السجلات المستنصرية، دار الفكر العربي، القاهرة، ص23.

(3) المقريزي، الخطط، ج2، ص345.

الأصل، أو أيضا أنها لم تكن قد ظهرت له بعد، فهذه الرسالة في الواقع، مـن بـدء حكمه ومن الطريف أن نذكر هنا أن علامة أم الخليفة المستنصر كانت : (الحمـد لله ولي كل نعمة)[2].

وأن علامة ابنة الخليفة الظاهر و أم المستعلي: (الحمد لله على نعمـه) وبعـد البسملة والحَمْد له يأتي اسم المرسل وحين يكون المرسل الخليفـة المستنصـر أو الخليفة المستعلي فإن اسم الخليفة يسبق هذا النعت : (عبد الله ووليّه) بقصد إظهـار خضوع الخليفة وضعفه أمام الخالق وإيمانه الشديد بالله؛ ثم يأتي لقب : (إمام)؛ يليـه اللقب المعروف: (أمير المؤمنين)؛ وقد يذكر الخليفة نسبه بذكر أبيه.

أما المرسل إليه، فإنه كان يذكر في الغالب بعد اسم المرسـل أو الراسـل، بالألقاب المنعوت بها؛ وبألقاب أبيه؛ وأحيانا بألقاب جدّه، ويُدعى لـه بـدعوتين أو ثلاث[3].

ونجد بعد هذا التصدير في ما نُشر في سجلات الجملة التي تتكون من صيغة السلام، والحمد، والصلاة على النبي، والدعاء للأئمة وهي : (سلام عليك، فإن أميـر المؤمنين يحمد إليه الله الذي لا إله إلا هو، ويسأله أن يصلي على جده محمد خـاتم النبيين، وسيد المرسلين، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين، الأئمة المهديين، وسلم تسليما)، ثم تليها هذه الصيغة : (وأما بعد)؛ يتبعها: (الحمد) من جديـد، الـذي يبـدأ موضوع السجلّ[4].

وكان الفاطميون يتعمدون دائما أن يذكروا أن محمدا جد الأئمة، فكأنهم كانوا يحاولون إثبات نسبهم في كل رسالة من رسائلهم وكل سجلّ من سجلاتهم، وكـأنهم أرادوا بتكرار هذه الناحية تأكيد ما حاول خصومهم نفيه، أو كأنه رد على سـجلاّت

---

(1) السيدة الحرة: الملكة أروى بنت أحمد الصليحي، وزوجة أحمد المكرّم هما اللذان حكما فـي اليمن بعد مقتل الصليحي، فكانت مثالاً للتقوى والكفاءة في إدارة شؤون الـبلاد؛ عبـدالمنعم ماجد، سجلات المستنصرين، ص19.

(2) المصدر السابق، ص23.

(3) المصدر السابق، ص24.

(4) المصدر السابق، ص25.

العباسيين في دحض نسب الفاطميين، هذه الظاهرة واضحة كل الوضوح في كل رسائل الفاطميين منذ دخول جوهر مصر إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية.

ولعلّ هذه الظاهرة هي التي تميز رسائل الكتّاب الفاطميين عن غيرهم من كتّاب الأقطار الأخرى التي لم تخضع لحكم الفاطميين.

وكما كانوا يبدءون كتاباتهم وسجلاتهم بالحمد والصلاة على النبي والأئمة، كانوا يختتمون هذه الكتابات والسجلات، لم يشذّ عن ذلك كاتب من كتّابهم.

ففي هذه السجلات التي كانت تصدر عن ديوان الإنشاء تسجيل خطوات الإمام الفاطمي، فإذا خرج للصلاة صدر بذلك سجل من الديوان، وإذا خرج الإمام إلى فتح الخليج صدر السجل، وإذا انتصرت الجيوش المصرية صدر السجل بالفتح وهكذا، ففي كل هذه السجلات تظهر هذه الميزة.

ومن السجلات التي تؤيد ما ذهبنا إليه السجل الذي يكتبه ابن الصيرفي بإعلان وفاة الخليفة المستعلي بالله وولاية الآمر بأحكام الله الخلافة من بعده.

والخطاب في هذه الوثيقة موجه من الآمر "إلى كافة أولياء الدولة وأمرائها وقوادها وأجنادها ورعاياها : شريفهم ومشروفهم، وآمرهم ومأمورهم، مغربيهم ومشرقيهم، وأحمرهم وأسودهم[1]، كبيرهم وصغيرهم".

حيث تبدأ الوثيقة بالسلام، ثم تثني بحمد الله، والصلاة على محمد رسول الله وآله، ثم يستأنف الحديث فيها بلفظي "أما بعد" يتلوها حمد ثانٍ يشير فيه الكتّاب إلى حكمة الله في الموت، وأنه –سبحانه- جعله "حكما يستوي فيه جميع الأنام، ومنهلا لا يعتصم من ورده كرامة نبي ولا إمام " ومستشهدا ببعض الآيات القرآنية التي تؤيد هذا المعنى[2].

ثم يأتي ابن الصيرفي بصلاة ثانية على النبي محمد وعلى أخيه وابن عمه علي مع إشادته بمنزلة كل من هذين الرجلين، ثم على الأئمة من ذريتهما، ونلمح أن الصلاة على النبي محمد وعلى الأئمة في مفتتح كل الوثائق الفاطمية الرسمية الصادرة عن الدولة، فإن الدولة كانت لا تترك فرصة تمر دون أن تعلن عن

---

(1) أسودهم وأحمرهم: أي عربهم وعجمهم.

(2) جمال الدين الشيّال، مجموعة الوثائق الفاطمية، ص46.

مذهبها، وتؤيد شرعيتها في كل وثيقة تصدر عنها، لتستقر في نفوس الشعب وفي نفوس كل من توجه إليه هذه الوثيقة.

وتشير هذه الوثيقة بعد ذلك إلى الخليفة المتوفى المستعلي بالله –والد الآمر- وتؤكد في الأذهان مرة أخرى صحة خلافته وإمامته، وتشيد به وبأعماله وحكمه، وتعلن للملأ حزن الخليفة الجديد على وفاته.

ثم تنتقل الوثيقة إلى ناحية أخرى هامة تتصل بالمذهب وأصوله، فالشيعة الإسماعيلية يعتقدون أن الإمامة هي ركن الدين الركين، وقاعدة الإسلام، وهم يعتقدون أيضا أن عليا كان وصيّ محمد والإمام من بعده، باختيار إلهي، وأن محمدا استودع عليّاً وبثّه علوماً لَدُنيّة كان يخفيها عن جمهور صحابته، وأن هذه العلوم يلقنها كل إمام من نسل علي للإمام الذي يليه ويستودعه إياها، ولهذا كانت السجلاّت التي تصدر إعلان تولية الخلفاء تعني دائما هذا المعنى وتأكيده، وهذا ما قصد إليه ابن الصيرفي كاتب هذا السجل، خاصة أن هذا الخليفة الجديد –الآمر أحكام الله- كان طفلا صغيرا، وله من العمر خمس سنين، فلتبرير خلافته نص على أن المستعلي –عند نقلته- جعل لابنه الآمر "عقد الخلافة من بعده" وأودعه "ما حازه من أبيه عن جدّه "...... وأطلعه من العلوم على السر المكنون " وأفضى إليه "من الحكمة بالغامض المصون".

وكانت القوة الفعلية في الحقيقة في يد الوزير الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي منذ أواخر عهد المستنصر، والأفضل هو الذي أبعد نزاراً بن المستنصر عن الخلافة، وولّى بدلاً عنه أخاه الصغير المستعلي بالله، وظل طول عهده وهو صاحب الحل والعقد؛ وانقسم الفاطميون منذ ذلك، ونتيجة لذلك - لأول مرة إلى فرقتين متعاديتين: النزارية والمستعلية، وكان هذا الانقسام أول معول عمل في هدم وإضعاف الشيعة الإسماعيلية بوجه عام، والدولة الفاطمية في مصر بوجه خاص.

وعند وفاة المستعلي ولي الخلافة ابنه الآمر –الطفل الصغير والأمور –على ما هي عليه بيد الأفضل شاهنشاه، ولهذا راحت الوثيقة بعد ذلك تشير إلى مكانة الأفضل في عهدي المستنصر والمستعلي، وتشير إلى أن المستعلي كان قد أوصى ابنه الآمر –الخليفة الجديد- بإعلاء مكانة الأفضل وتبجيله وتكريمه وأن يتخذه

ضفيّاً له وظهيرا " "وأن لا يستر عنهنّ الأمور صغيرا ولا كبيرا " وأن يسند إليه تدبير الأمور جميعا.

وتختتم الوثيقة بإعلان العزاء في الخليفة المتوفى، والبشرى بتولية الخليفة الجديد والطلب إلى الجميع بتقديم الولاء والطاعة والقيام بشروط البيعة له[1].

ومن الأمثلة على السجلات "سجل من إنشاء القاضي الفاضل لبعض الوزراء":

وهذه نسخة سجل من ذلك كتب به لبعض وزرائهم، من إنشاء القاضي الفاضل؛ وهي:

إنَّ أمير المؤمنين لما أطلق الله يد بره من أميالٍ تبدو على الأحوال شواهدُ آثارها، وترُوض الآمال سحائبها بسائب مدرارها، وتتنزه مواعدها عن أنظارها، ومواردها عن أن يؤتى بأنظارها، ويقوم بناصرها فيكون أقوى أعوانها على الشكر وأنصارها، وألهمه من مواصلة المنن التي لا تنقطع روايتها و لا تتناهى مراتبها، وموالاة المنح الا تي تهب على جناب الخير شمائلها وجنائبها، وتلتقي في مسارح المدائح غرائبها ورغائبها، وحببه إليه من انتهاز فرص المكارم في الأكارم، وابتداء المعروف وابتدار مغانمه التي لا تعقبها –يولي آلاء ه من يجزي عن حسنتها عشراً، ويعقلُ عقائلها عند من يسوق إليها من أسْتحقاقه ا مهراً، ويقابل بالإحسان إحسان أجل أوليائه قدراً، ويضاعف الامتنان عند من لم يضعف في موازرته أزاراً، ويودع ودائع جوده في المغارس الجيدة بالزكاء والنماء، ويزكي أصول معروفه لمن يفتخر بالانضواء إلى موالاته والانتماء، ويستكرم مستقرَّ مننه وآلائه، ويحسن إلى الإحـ سان ثم يبتهج بموالاته لدية وإيلائه.

ولما كان السيد الأجل أمير الجيوش آيه نصر أمير المؤمنين التي أنبرت فما تبارى، ونعمة الله التي أشرقت أنوارها وأورت فما تتوارى، وسيف حقِّه الذي لا تكلُّ مقاطعه، وبحر جوده الذي لا تكدر مشارعه، والمستقلَّ من الدِّفاع عن حوزته بما عجزت عنه الأمم، والعليَّ على مقدار الأقدار إذا تفاوتت قيم الهمم، والكاشف

---

(1) ابن ميسر، أخبار مصر، ص 70-74؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ج 1، ص604-407؛ جمال الدين الشيّال، مجموعة الوثائق الفاطمية، ص183-190.

الجُلَّى عن دولته وقد عظمت مظالم الظلم، والجامع على المماراة والمواراة قلب الموالف والمخالف ولسان العرب والعجم، والمتبويء من الملك ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، والمتوقلِّ [1] من الفخر محلاًّ لا يطمع النجم فيه من بعده، والمغير على الحرب العوان بَ قْبَلِيَّة البُكر، والمنفذ بمتدع العزمات ما لولا وقوعه لما وقع في [2] الفكر، والقاضي للدين بحد سيوفه مطلول حقة وممطول دينه، والقائم لأمير المؤمنين مقاماً قام به أبوه في نصرة جدَّه صلى الله عليهما يوم بدره ويوم حنينه.

ولقد أظهر الله آيات نظارة نظره على الأرض فأخذت زخرفها و ازينت وابتدت أيديه الجنى فتظاهرت أدلتها على دولته وتبنيت، واستلأمت [3] المملكة من تدبيره بجنهُ تتحاماها الأقدار وهي سهام، ووثقت من عنايته إلى هجر الخطوب بما يعيد نارها وهي برد وسلام؛ وما ضرها مع تيقظ جفنه أن يهجع في جفنه طرف الحسام، ولا احتاجت وقلبه يساور جسيم أمورها أن تتعب في وأدها الأجسام؛ فأيُّ خيرُ يُولى –وإن عظُم - يناهض أستحقاقة؟ وأي غايةٍ وإن جلت تروم نيل مدى مسعاه ولحاقة؟؛ وأنَّى لأعراض الدنيا أن تهدي لجوهره عرضاً، ولا تبلغ مبالغ النعم الجلائل أن تعتدَّ اليوم من مساعيه عوضاً؟، وهل لأمير المؤمنين أعمال في مجازاته عن قيامه بغمد رأية ومجرد عضبه، ودفاعه عن حوزة عدته وذبه، وكره في مواقف كربه وكفايته للأمة في سلمه وحربه، وإ يالته التي خصَّ الأرض منها فضلُ خصبه، إلا أن يذكره بقلبه عند ربه، وأن يرفع الحجب عند كلِّ سؤال كما يرفع الله عند دعائه مُسْدَل حُجُبه؟.

وعُرِضتْ بحَضْرة أمير المؤمنين مطالعةُ منه عن خبر باسمه الكريم مقصور على الرَّغبة في خروج الأمر بتمليك جهته التي تقوم عدّتها عدّه ألف ٍ مستخرجاً بها الخطَّ الشريف بإمضاء التمليك وإجازِته، وتَسْليم الملْك وحِيازته.

فتلقَّى أميرُ المؤمنين هذه الرغبةَ بإفرازٍ جَرى فيه من الأوامر على أفضل سَنَن، وتقبلها منه بقُبولٍ حسن، وتهللت عليه لسؤاله مصابيحُ الطَّلاقة والبشْر،

---

(1) توقّل في الجبل: صعد فيه.

(2) الزيادة يقتضيها السياق.

(3) استلأمت: لبست ألىلأمة، وهي عدة الحرب، والجنة: الدرع الواقية.

ونفذت[1] توقيعة ما لا تبلغه مواقعُ ماءِ المُزْن في البلد القفر، وشمله خطُّه الشريفُ بما نُسْخُته : خَرج أمره إليه بأن يُوعَز إلى ديوان الإنشاء بكتبِ هذا السِّجلِّ بتمليكِ الجِهة المقدّم ذكرُها بجميع حُدُودِها وحُقُوقها، وظاهِرها وباطِنها، وأعاليها وأسافلِها، وكلَّ حقٍّ لها، داخلٍ فيها وخارج عنها، وما هو معروفٌ بها ومنْسوب إليها، تمليكاً مُخلَّداً ، وإنعاماً مؤبَّداَ، وحقًّا مُؤكَّداً، يَجرِي على الأصل والفرع، ويُحْكِمِ أحكامَ الكرَم والشَّرْع، ماضياً لا تتُعقَّب حدودُه بفَسْخ، جائزاً لا تُتَجاوز عقُودُه بنسْخ، مَوْصولةً أسبابُه فلا تتطرّقُ أسباب التغيير إليها، موروثاً حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

فليعتمد كافة ولاة الدَّواوين، ومن يليهم من المتصرفين، حمل الأمر على موجبه، والحذر من تعديه وتعقبه، وأمتثال ما رسمه أمير المؤمنين وحدَّه، والوقوف عند أمره الذي عدم من مال فردَّه، وليقرّ في يد الديوان حُجَّة لمودعه بعد نسخه في الدواوين بالحضرة، إن شاء الله تعالى[2].

2.3.3 التقاليد:

جمع تقليد وتجمع أيضا تقليدات، يقال قلّدته أمر كذا إذا ولّيته إياه [3]. قال ابن الرازي: هو مأخوذ من القلادة في العنق يقال قلّدت المرأة فتقلّدت، قال: ومنه التقليد في الدين [4]. والتقليد يشتمل على طرة ومتن [5]، ويرى علي بن خلف في مواد البيان أن التقليد هو أن يقلّد بولاية أحد الولايات أو المناصب[6].

---

(1) لعل الصواب ((وبلغت مواقع)).

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج13، ص143-146.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج11، ص101.

(4) ابن الرازي، محمد بن أبي بكر عبد القادر، (ت666هـ/1267): مختار الصحاح، مكتبة النوري، دمشق، باب قلد، ص548.

(5) القلقشندي، صبح الأعشى، ج11، ص101.

(6) علي بن خلف، مواد البيان، ص633-634.

ولقد رسم علي بن خلف لنا من خلال التقليد الذي كتبه في عصر الخليفة المستنصر بالله حقيقة التقاليد التي كانت تصدر بتعيين الوزراء في العصر الفاطمي، وقبل الخوض في أعماق هذه التقاليد لا بد لنا من معرفة أن الوزارة في العصور الإسلامية كانت تنقسم إلى نوعين: وزارة تنفيذ ووزارة تفويض.

ويكون الوزير في وزارة التنفيذ منفذا لأوامر الخليفة، بحيث لا يعقد ولا يبرم أمرا إلا بعد استشارة الخليفة ،وكان هذا في عهود الخلفاء ذوي الشخصيات القوية والتي كانت لا تسمح للوزير أن يطغى أو يستبد بالحكم دونهم.

ويكون الوزير في النوع الثاني مفوضا من الخليفة بمباشرة أمور الدولة أي بمعنى آخر يتولى بنفسه الحكم دون الخليفة، ولا يكون هذا في فترات الضعف أو عندما يكون الخلفاء أطفالا صغارا أو شخصيات ضعيفة لا حول لها ولا قوة.

والعصر الفاطمي في مصر انقسم إلى شطرين: الشطر الأول كانت الخلافة قوية وشديدة، وكان الخلفاء من أمثال المعزّ والعزيز والحاكم ذوي شخصيات قوية وطاغية وبالتالي كان وزراؤهم وزراء تنفيذ؛ وفي الشطر الثاني كان الخلفاء ضعافا أو صغار السن ،وكانت الوزارة وزارة تفويض ، وأصبح الوزراء هم أصحاب السلطة الفعلية؛ يستبدّون بأمور الحكم جميعا . وقد "حدث هذا التطور في منتصف عهد الخليفة المستنصر عندما قصّر النيل في فيضانه وحلّت المجاعة في البلاد امتدّت قرابة سبع سنين"(1) وعندما اضطربت أمور البلاد وسادتها الفوضى، واستنجد بقائده بدر الجمالي والي عكّا، وولي الوزارة للمستنصر ، وأعاد النظام إلى ربوع البلاد وقضى على الفتن، وأصبح منذ ذلك الحين صاحب الحل والعقد ولم يعد للمستنصر معه تصرّف، ووضع التقليد منذ ذلك الحين أن ينزوي الخليفة وأن يصبح الوزير هو صاحب السلطان، وتتابع الوزراء بعد بدر الجمالي إلى نهاية الدولة وهم على هذا الوضع حتى سُمي الشطر الثاني من العصر الفاطمي بعهد الوزراء العظام.

وعودة إلى التقليد الذي كتبه ابن خلف، نجد أن التقليد بدأ بالحمد كالعادة ويثني بالصلاة على محمد خاتم الأنبياء وعلى عليّ "أكمل الوزراء" وعلى الأئمة من ذريتهما.

---

(1) المقريزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، نشر زياد والشيّال، الطبعة الثانية، القاهرة، 1957.

ثم يستطرد الكاتب مبيّنا أهمية الوزارة ، وكالعادة يلتمس لها السند من أصول المذهب الشيعي مستشهدا بالسابقة الأولى وهي اتخاذ سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام عليّاً وزيرا له، ويأتي بشاهد آخر من كتاب الله عز وجل ومن قول موسى ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾[1] ومن قول النبي عليه الصلاة والسلام لابن عمه "أنت مني كهارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي "[2] ثم يخاطب الخليفة في هذا التقليد وزيره فيقول : إنه عجم عود الرجال يرتاد لوزارته حقيقا بها "حتى انتهت رؤيته إليك، فرآك لها من بينهم أهلا " ولهذا ولاّه النظر في مملكته وأعمال دولته برها وبحرها، وسهلها ووعرها، وبدوها وحضرها، ورد إليه سياسة رجالها وأجنادها وكتّابها وعرفائها ورعيتها ودواوينها وارتفاعها ووجوه جبايتها وأموالها.

ويستمر الخليفة في حديثه لوزيره فيذكّره –رغم علمه بحصافته وفطنته وتجربته– دستور الحكم الذي يجب عليه أن يلتزمه، فينصحه بالحلم والرفق ومراعاة العدل بين الرعية، وثواب المحسن وعقاب المسيء.

ثم يتطرق الخليفة إلى السياسة التي يرسمها للوزير ليتبعها حيال طبقات رجال الدولة والرعية، والخليفة ينص على طبقتين هامتين من طبقات رجال الدولة وهما: الأجناد، والكتّاب المستخدمون في استخراج الأموال.

أما وصيته عن طوائف الأجناد فيقول فيها لوزيره:

أمّا طوائف الأجناد فتقرهّم على مراتبهم في ديوان الجيش المنصور، وتسديد الأمور، وتراعي وصول أطماعهم إليهم، أوقات الاستحقاق إليهم"[3] وفي وصيته بالكتّاب فيقول: أمّا الكتّاب المستخدمون منهم في استخراج الأموال، وعمارة الأعمال فتخصر كفاتهم بما تقتضيه كفايتهم وأمناءهم بما توجبه أمانتهم، وتستبدل بالعاجز الخبيث الطُعْمَة والطَّبْعِ المستشعر شعار التهمة ليحتفظ النَزِه المأمون

---

(1) سورة طه، الآيات 29-31.

(2) محمد ناصر الدين الألباني: صحيح الجامع الصغير وزيادته حديث رقم 1484.

(3) جمال الدين الشيّال، مجموعة الوثائق الفاطمية، ص278.

نزاهته وأمانته، ويقلع الدنس الخئون عن دنسه وخيانته، وتأمر من تختاره لخدمة أمير المؤمنين منهم أن يسير بالسير الفاضلة، ويعملوا على الرسوم العادلة، فلا يضيعوا حقاً لبيت مال المسلمين، ولا يخيفوا أحداً من العاملين"[1].

وأما الرعية:

فيأمرك أن تحكم بينها بالسوية وتعتمدها بعدل القضية، وترفع عنها نير الجور، وتحميها من ولاة الظلم، وتسوسها بالفضل والرأفة متى استقامت على الطاعة، وتأدبت في إتباعها وتقومها متى أجرت إلى المنازح والافتتان، وأصرت على مغضبة السلطان "[2] ثم يختتم الخليفة السجل بالدعاء لوزيره بالتوفيق في عمله وفي تحمّل أعباء هذه الوظيفة الخطيرة.

وتقليد آخر وضع واستمر منذ بدر الجمالي إلى نهاية الدولة وهو أن يكون الوزير من رجال السيف لا من رجال القلم كما كان العهد في الشطر الأول - وأن يكون له الإشراف على رجال القلم من كتّاب وقضاة ودعاة وعلى رجال السيف من أجناد وأمراء جميعا.

ويتضح مما سبق أن التقاليد في العصر الفاطمي تميزت بمميزات منها الإطالة، والاستشهاد بالقرآن الكريم، وبث روح التشيع من خلال هذه التقاليد وبداية التقاليد بالحمد والثناء والصلاة على سيدنا محمد خاتم الأنبياء . وعلى الإمام علي وعلى الأئمة وذريتهم . ثم الثناء لمن كتب بحقه هذا التقليد ثم بعض الوصايا يتطرق إليها من خلال هذا التقليد، ويختم عادة الخليفة التقليد بالدعاء وبالتوفيق للوزير أو من كتب بحقه هذا التقليد.

ومن الأمثلة على التقاليد "تقليد من إنشاء ابن خيران":

سجل تقليد من إنشاء ابن خيران:

وقام في الأمر بعده أي بعد الخليفة الحاكم ولده أبو الحسن علي الظاهر لإعزاز (دين) الله؛ وأُخذت له البيعة بعد أبية في يوم عيد النحر من سنة 411هـ، واستقامت الأمور بعد ميلها، وأمنت النفوس بعد وجلها، وحسنت السيرة بعد قبحها،

(1) المرجع السابق، ص281.

(2) المرجع السابق، ص281، ملحق الوثيقة صفحة 277-282 الشيّال.

وارتضيت السياسة بعد النفور عنها؛ ورُدَّ تدبير الأعمال والنظر فيها، وتسديد الأحوال ولمّ ما تشعَّث منها، إلى الوزير صفى أمير المؤمنين وخالصته، أبي القاسم على بن أحمد الجرجائي؛ وكتُب له السجلُّ بالتقليد من إنشاء ولى الدولة أبي علي بن خيران - متولى الإنشاء وقرىء بالحضرة على القواد والمقدمين في ذي الحجة سنة 418هـ؛ ونسخته بعد البسملة:

(أما بعد، فالحمد لله مطلق الألسن بذكره، ومجزل النعم بشكره ومصرف الأمور على حكم إرادته وأمره؛ الذي أستحمد بالطَّول والنعماء، وتمجَّد بالحكمة والسناء، وملك ملكوت الأرض والسماء، واستغنى عن الظهراء والوزراء؛ وأكرم عباده بأن جعل تذكرت لهم في صحفٍ مكرمةٍ، مرفوعةٍ مطهرةٍ، بأيدي سفرةٍ، كرم بَررَة، فسبحان من نظر لخلقه فأحسن وأنعم، وعلَّم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم).

يحمده أميرُ المؤمنين حمد مخلص في الحمد والشكر، متخصص بشرف الأمانة ونفاذ النهي والأمر، ويرغب الله تعالى في الصلاة على نبيه محمد الذي نزل عليه الفرقان ليكون للعالمين نذيراً، وعزّ به الإيمان وجعل له من لدنه [1]سلطاناً تصيراً، وانتخب أبانا علياً أمير المؤمنين أخاً ووزيراً، وصيِّره على أمر الدين والدنيا منجداً له وظهيراً؛ صلى الله عليهما وسلم في العترة الزاكية من سلالتهما سلاماً دائماً كثيراً.

وإنِّ أحقَّ مَنَّ عُوِّل في الوزارة ونصب لحفظ الأموال وتميزها وسياسة الأعمال وتدبيرها، وإياله طوائف [2] الرجال كبيرها وصغيرها، من كان حفيظاً لما يستحفظ من الأمور، قووما بمصالح الجمهور، عليما بمجاري السياسة والتدبير؛ ولذلك قال يوسف الصديق – عليه السلام -: (اجْعَلنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إني حفيظٌ عليم)[3].

ولو أستغنى أحد من رعاة العباد عن وزير وظهير يكاتبه على أمره ويظاهره، لكان كليم الله موسى - صلى الله عليه – وهو القوى الأمين عنه مستغنيا، ولم يكن له

---

(1) الأصل ((لديه)).

(2) الأصل ((طوالف)).

(3) سورة يوسف الآية 55.

من الله – جلَّ جلالُه - طالباً مستدعياً، وقد قال: (قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي { 25 } وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي { 26 } وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي { 27 } يَفْقَهُوا قَوْلِي { 28 } وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي { 29 } هَارُونَ أَخِي { 30 } اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي { 31 } وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي { 32 } كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً { 33 } وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً)[1].

ولما كنتَ بالأمانة والكفاية علماً، عند أهل المعرفة والدراية مقدماً؛ وكان الكُتّاب على اختلاف طبقاتهم وتفاوت درجاتهم يسلمون إليك في الكتابة، ويقتدون بـك فـي الإصابة، ويشهدون لك بالتقدم في العناء، ويهتدون بـ حلمك اهتداء السَّفْر بالنجم فـي الليلة الظلماء، ولا يتناكرون الانحطاط عن درجتك في الفضل لتفاوتها في الارتفاع، ولا يَرُدُّ ذلك رادٌ من الناس أجمعين إلا خصمه وقوع الاجماع؛ هذا مع المعـروف من أستقلالك بالسياسة، وأستكمالك لأدوات الرياسة، وتدبيرك أمور المملكـة؛ ومـا أُلِفَ بُرشد وساطتك من سمو اليمن البركة.

رأى أمير المؤمنين –وبالله توفيقه - أن يستكفيك أمر وزارته، وينزلـك أعلـى منازل الاصطفاء بخاص أثرته، ويرفعك على جميع الأكفاء بتام تكرمتـه، وينـوّه باسمك تنويها لم يكن لأحد قبلك من الظهراء في دولته؛ فسمَّاك بالوزير لموازرتك له على حمل الأعباء؛ ووكَّد هذا الاسم بالأجلّ لأنك أجلُّ الوزراء؛ وعزَّز ذلك بصـفى أمير المؤمنين وخالصته إذ كنت أعز الخلصاء والأصفياء؛ وشرَّفك بالتكنية تسـميقاً بك في العلياء؛ ودعا لك بأن يمتعه الله بك ويؤيدك ويعضدك دعاءً يجيبه فيـك رب السماء؛ فأنت الوزير الأجلُّ صفيُّ أمير المؤمنين وخالصتُه المحبوّ بالمنِّ الجسـيم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وأمر أمير المؤمنين بأن تدعى بهذه الأسماء وتُخَاطَبْ، وتكْتُبَ بها عـن نفسـك وتُكَاتَبْ، ورسم ذكر ذلك فيما يجرى من المحاورات، وإثباته في ضروب المكاتـبات، ليثبت ثبوت الاستقرار، ويبقى رسمه على مرّ الليالي والنهار.

---

(1) سورة طه، الآيات 25-34..

فأحمد الله تبارك وتعالى على تمييز أمير المؤمنين لك بتشـــريفه واختصاصـــه، وإجلاله إياك أعلى محال خواصه؛ واجْرِ على سننك الحميد في خدمتـــه، ومـــذهبك الرشيد في مناصحته؛ إذ كان قد فوَض إليك أمر وزارته، وجعـ ـلك الوسيط بينه وبين أوليائه وأنصار دعوته، وولاة أعمال مملكته، وكتّاب دواوينه وسائر عبيده ورعيته، شرقاً وغرباً، وبعداً وقرباً [1]؛ وامض توقيع من تنصبه للتوقيع عن أمير المؤمنين في الإخراج والإنفاق، والإيجاب والإطلاق، وناط بك أزمَّة الحلّ والعقد، والإبرام (82) والنقض، والقبض والبسط ، والإثبات والحط، والتصريف والصرف؛ تفويضاً إلـــى أمانتك التي لا يقدح فيها معاب، وسكونا إلى ثقتك التي لا يلم بها ارتيـــاب؛ وعلمـــاً بأنك تورد وتصدر عن علمٍ وحزمٍ تفوق فيها كل مقاوم، ولا تأخذك في المناصـــحة لأمير المؤمنين والاحتياط له لومة لأئم وجميع ما يوصى به غيرك ليكون له تـــذكرة وعليه حجة، فهو مستغنًى عنه معك لأنك تغنى بفرط معرفتك عـــن التعريـــف، ولا تحتاج مع وقوفك على الصواب وعلمك به إلى توقيف.

غير أن أمير المؤمنين يؤكد عليك الأمر بحسن النظر لرجـــال دولتـــه دانـــيهم وقاصيهم، بارك الله فيهم، وأن يتوفَّر على ما يعود بصلاح أحوالهم، وانفساح آمالهم، وانشراح صدورهم، وانتظام أمورهم؛ إذ كانوا كتائب الإســـلام، ومعاقـــل الأنـــام، وأنصار أمير المؤمنين المحفوفين بالإحسان والإنعام، حتى تحسن أحوالهم بجميـــل نظرك، ويزول سوء الأثر فيهم بحسن أثرك؛ وكذلك الرعايـــا بالحضـــرة وأعمـــال لداولة فأمرهم من المنيهِّ والمسئول عنه؛ وأمير المؤمنين يأمرك بـــأن تسد تشـــف خيرة الولاية فيهم، فمن ألفيته من الرعية مظلوماً أوْعَزْتَ بنصفَتَه؛ ومن صادفته من الولاة ظلوماً تقدمتَ بصرفه وحسم مضرته ومعرته.

فأما الناظرون في الأموال، من ولاة الدواوين والأعمال، فقد أقام أمير المـــؤمنين عليهم منك المنقى الزكاء، طبًّاً بالأدواء، لا يصانع ، ولا تطبيه المطامع، ولا ينفـــق عليه المنافق، ولا يعتصم منه الخؤون السارق، كما أنه لا يخاف لدية الثقة الناصح، ولا يخشى عاديَة الأمين في خدمته المجتهد الكادح.

---

(1) الأصل: ((قربا وبعدا)) ولا تستقيم بها السجعة.

والذي يدعو المتصرف إلى أن يحمل نفسه على الخطة النكراء، في الاحتجار والارتشاء، أحَدُ أمريْن : إما حاجة تضطره إلى ذلك،(وإما) جهالة تورده المهالك؛ فإن كان محتاجاً، سدَّ رزقُ الخدمة فاقتهُ ، ورجا الراجون بُرْءَهُ من مرض الإسفاف وإفاقَتَهُ؛ وإن كان جاهلاً، فالجاهل لا يبالي على ما أقدم عليه، ولا يفكر في عاقبة ما يصير أمره إليه؛ ومن جمع هذين القسمين كانت نفسه أبدا تسفُّ ولا تعفُّ، ويده تكفّ ولا تكفّ، ووطأته تثقل ولا تخف، فلا تَرِبَ من تنزَّه وعفّ، ولا أثرى مَنْ رضى لنفسه بدنئ المكسب وأسفّ.

وما يستزيدك أمير المؤمنين على ما عندك من حسن التأني والاجتهاد في إصلاح الفاسد، واستصلاح المعاند، واستفاءَة الشارد بالمعصية إلى طاعته، وإعطاء رجال الدولة ما توجب لها حقوق الخدمة من فضل نعمته.

وأمير المؤمنين يقول بعد ذلك قولاً يؤثر عنده في المشرق والمغرب، ويصل إلى الأبعد والأقرب،إن أكثر من وقع عليه اسم الوزارة قبلك إنما تهيَّأ له الحظ والاتفاق، ولم يوقع أسمها عليك ويعزف بك أمرها إلا باستجاب واستحقاق، لأنها احتاجت إليك حاجة الرمح على عامله، والعبء إلى حامله، والمكفول إلى كافله؛ وكم أفرجتْ عن الطريق إليها لسواك، وأجتهدتْ أن يعدوك مقامها إكباراً له فما عداك.

والله يكبت[1] بجميل رأى أمير المؤمنين خسدَتك وعداك، ويتولاَّك بالمعونة على ما قلَّدك وولاك، ويمتعه ببقائك، كما أمتعه بكفايتك وغنائك، ويخير له في استيزارك، كما خار له من قبل في اصطناعك وايثارك، بمنه وكرمه.

والسلام عليك ورحمة الله.

وكتب يوم الجمعة لأثنى عشرة خلت من ذي الحجة سنة 418هـ[2].

3.3.3 الإقطاعات:

أما الإقطاعات فجمع إقطاع ومصدره أقطع، والقطيعة الطائفة من أرض الخراج.

---

(1) الأصل:((يكتب))، ولا يستقيم بها المعنى.

(2) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص80-83.

وأما أصلها في الشرع فما رواه الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق بسنده إلى ابن سيرين عن تميم الداري أنه قال : "استقطعت رسول الله صلى الله عليه وسلم أرضا بالشام قبل أن تفتح فأعطانيها ، ففتحها عمر بن الخطاب في زمانه فأتيته، فقلت إن رسول الله صلى الله عليه وسلم - أعطاني أرضا من كذا إلى كذا، فجعل عمر ثلثها لابن السبيل، وثلثاً لعمارتها، وثلثاً لنا"[1].

وقد ذكر القلقشندي أنها كان يكتب في الإقطاعات عن الخلفاء الفاطميين بالديار المصرية على نحو مما كان يكتب فيها عن خلفاء بني العباس[2].

وكانت طريقة كتّاب الخلفاء العباسيين في كتابة الإقطاعات أن يكتب فيها "هذا كتاب من فلان (بلقب الخليفة) إنك ذكرت من أمر ضيعتك الفلانية كذا وكذا، وسألت أمير المؤمنين في كذا وكذا، وقد أجابك أمير المؤمنين إلى سؤالك في ذلك ونحوه"[3].

وقد رسم علي بن خلف في مواد البيان رسم هذه الإقطاعات، وذكر:

"أمير المؤمنين بما وهبه الله تعالى من شرف الأعراق، وكرم الأخلاق ومنحه من علوّ الشأن، وارتفاع السلطان ..... الخ" فنجد المؤلف في بداية هذا الرسم يشيد بأخلاق ومكانة وعلو شأن الخليفة المعطي لهذا الإقطاع.

ثم ينتقل المؤلف في تحديد مقدار ما قطعه حيث يقول : "رأى أمير المؤمنين مضاعفة أياديه لديه، ومواصلة إنعامه إليه وإجابة سؤاله، وإنالته أقاصي آماله..... خرج أمره بإنشاء هذا المنشور بأنه قد أقطعه الناحية الفلانية، لاستقبال سنة كذا بحقوقها وحدودها، وأرضها العامرة ووجوه جبايتها "وينص على كل حق من حقوقها وحدّ من حدودها، فإذا استوفى القول عليه، قال : إنعاما عليه، وبسطا لأمله، وإبانة

---

(1) ابن عساكر، أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي (499هـ/571م)، تاريخ مدينة دمشق، تحقيقمحيي الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروري، ط 1، دار الفكر العربي، بيروت، 1995، ج11، ص68،

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج13، ص139.

(3) المرجع السابق، ج13، ص130.

عن خطره، فليعلم ذلك كافة الولاة والنظّار والمستخدمين من أمير المؤمنين ورسمه، ليعملوا عليه وبحسبه وليحذروا من تجاوزه وتعدّيه"(1).

وهذه نسخة سجلّ بإقطاع عن العاضد آخر خلفاء الفاطميين أيضا لبعض أمراء الدولة، من إنشاء القاضي الفاضل وهي:

"أمير المؤمنين وإن عَمّ جوده كما عَمّ فضل وجوده، وسار كثير إحسانه وبِرّه في سهول المعمورة ونجوده، ورحم الله الـ خلق بما استأثره دون الخلائق من قربه في سجوده فإنه يخص بني القربى من جدّه، والضاربين معه في أنصباء مجده، من سلالته الزكيّة وطينته المِسكيّة وأعراقه الشريفة ....الخ.

ولما عرضت بحضرته ورق ة من ولده الأمير فلان الذي أقرّ الله به عين الإسلام، وأنجز به دَيْن ا لأيّام، وأطلعه بدرا في سماء الحسب، وجلا بأنواره ظلام النُوَب، وامتاح(2)من مذبع النبوّة وارتوى ....الخ. خرج أمير المؤمنين إلى فتاه وناصره ووزيره ومُظاهِره، السيد الأجل الذي انتصر الله به لأمير المؤمنين من أعدائه وحسم بحسامه ما أعضل مِن عارض الخَطْب ودائه ....الخ.

ونفذت أوامره بأن يوعز إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السجل إلى الديوان الفلاني بإقطاعه الناحية وما معها منسوبا إليها وداخلا فيها لاستقبال سنة كذا، منحة سائغة، لا يعترضها التكدير، ونعمة سابغة لا ينقضها التغيير، وحباءً موصول الأسباب، وعطاء بغير منٍّ ولا حساب، يتحكم فيه على قضايا الاختيار، وتنفذ فيه أوامره الميمونة الإيراد والإصدار"(3).

4.3.3 الهُدَن:

هَدَنَ يهدِنُ هدوناً : سَكَنَ. وهَدَنَه أي سكّنه، وهادنه مهادنةً، صالحه والاسم منهما الهدنة، وأصل الهدنة السكون بعد الهيج، ويقال للصلح بعد القتال والم وادعة بين المسلمين والكفار وبين كل متحاربين. وتأتي الهدنة بمعنى الدَّعة والسكون(4).

---

(1) علي بن خلف، مواد البيان، ص631، 632.

(2) امتاح: استقى.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج13، ص142، 143.

(4) لسان العرب، باب هَدَنَ، ص434، 435.

ويقول علي بن خلف : "وهذا الفن من المكاتبات له من الدولة موضع خطير، ومن المملكة موقع أثير . ويتعين على الكاتب أن يُخلي له فكره، ويعمل فيه نظـــره، ويتوفّر عليه توفّراً يحكم مباذ يه، ويهذّب معانيه وأن يتحيّط من سقط يـــدخل علــى الشريعة نقيصة[1]أو يجرّ إلى السلطان وه يصة[2]، وأن يأتي بما يدلّ علـــى علـــوّ الكلمة، وعزّ الأمة وانبساط القدرة وحضور النصرة .... الخ، ليعود ذلك بالرفع من أهل الدين والوضع من المخالفين"[3].

"وفي الشرع: الهدنة عبارة عن صلح يقع بين زعيمين فـــي زمـــن معلـــوم بشروط مخصوصة والأصل فيها أن تكون بين ملكين مسلم وكافر أو بين نائبيهمـــا، أو بين أحدهما ونائب الآخر . وعلى ذلك رتّب الفقهاء –رحمهم الله- باب الهدنة في كتبهم"[4].

وقد يتعاقد عظماء أهل الإسلام على التـــوادع والتســـالم، واعتقـــاد المـــودّة والتصافي، والتوازر والتعاون، والا تعاضد، ويشترط الأضعف منهم للأقـــوى تســـليم بعض ما في يده ..... الخ والانقياد إلى اتّباعهوالطاعة أو الإ كرام، وامتثال الأوامر والنواهي؛ وغير هذا ما لا يحصى . والكاتب إذا استقرى المعاني التي يقـــع فيهـــا الاصطلاح عليها، وكان ذا طبع قويم، وخاطر سليم، تهيأ له الاحتياط فيها بما يحتاط به في مثلها[5].

وقد أوضح علي بن خلف في مواد البيان الرسم في الهُ ـ نةَ وهـــي أن تُ فتَـــتَح بحمد الله تعالى على الهداية إلى دين الإسلام الذي أذلّ به كل دين وأعزّه، والا توغّل في توحيدوتقديسه وتمجيده والثناء عل يه بآلائه، والصلاة على خيرة أنبيائه، محمـــد صلى الله عليه وسلّم وعلى آله. ثمّيذكر رغبةالخلفاء الراشـــدين علـــيهم الســـلام أجمعين في السلم الذي حضّ الله تعالى عليه، فقال جلّ قائلاً : ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ

---

(1) نقيصة، العيب، لسان العرب، باب نَقَصَ، ص101.

(2) هيصة، ما يغمز منه ويحط من قدره، لسان العرب، مادة وَهَصَ، ص308.

(3) علي بن خلف، مواد البيان، ص529.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى، ج14، ص5.

(5) علي بن خلف، مواد البيان، ص531.

لَهَا﴾[1] ....ثم يقدم مقدمة تكون بساطا لـ ذكر السبب الذي أوجب عقد الهدنة، وأوجب قبول الموادعة ثم يشفع الشروط التي انعقدت عليها المسالمة، مستظهرا فيها للدين على المعاهدين، و ليتحرّزن خلل يتطرق به إلى نقض شيء مما شرط، أو استعمال لفظ مشترك أو معنى ملتبس يوقع شبهة توجد السبيل إلى التأول، وليأخذ المأخذ الواضح الذي لا تتوجه عليه معارضة ولا تتطرق إليه مناقضة، ويؤكد الشرط في حفظ تجار المسلمين، ورعاية المسافرين، وصونهم برّاً وبحراً وسهلاً[2].

وقد رسم علي بن خلف رسما يُحتَذى الكاتب به متى احتاج إلى استعماله مثله؛ وهو يقول فلان بن فلان والله الطالب الغالب، المدرك المهلك، الضار النافع، المطّلع على السرائر والخفايا، العالم بما تجنّه الضمائر والطوايا، الذي لا تخفى عليه خافية الأعين وما تخفي الصدور، القائم على كل نفس بما كسبت، والمجازي لها بما احتقبت، وحق محمد صلى الله عليه وسلم، وحق القرآن العظيم المنزّل على قلبه، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أنه يفي بما تضمنه هذا العقد، ولا يخالف شيئا من أحكامه وحدوده، ولا ينقض عهداً ولا عقداً ولا شرطاً من عهوده وشروطه وعقوده، ولا يعمل بما يخالفه وينافيه، ولا يتأول وجهاً من وجوه التأويل فيه وعليه، بذلك عهد الله وميثاقه وما أخذه على ملائكته ورسله وأنبيائه"[3].

وللهدنة أو للكتاب الذي يكتب بشأنها (طُرّة) تبدأ بلفظ "هذا عقد صلح "، أو "هذا كتاب هدنة "، أو "هذه موادعة"، أو "هذه مواصفة" ثم تلي ذلك أوصاف لهذه الهدنة بأنها ناجحة ومؤدية إلى الخير العام ونحو ذلك.

وأما متن الهدنة فيبدأ بلفظ "هذا ما هادن عليه " أو "هذه هدنة أو موادعة أو مواصفة أو صلح" وقد يفتتح المتن بلفظ "أما بعد. فهذا كتاب مهادنة" أو "مواصفة".

وهذا كله بين الملك المسلم وأخيه الملك المسلم، فإذا كانت المكاتبة بين ملك مسلم وآخر غير مسلم، فإن المكاتبة تفتتح بلفظ "هذه هدنة" أو بلفظ "استقرت الهدنة

---

(1) سورة الأنفال، الآية 61.

(2) علي بن خلف، مواد البيان، ص 529-531.

(3) المرجع السابق، ص531، 532.

بين فلان وفلان " وقد تفتتح المهادنة بخطبه تبدأ بحمد الله على ما يكون في المكاتبات الخاصة بالولايات"[1].

وفي أوائل عهد المستنصر بالله عقد هذا الخليفة هدنة مع الإمبراطور ميخائيل الرابع سنة (429هـ، 1037م) يسمح له بإتمام إصلاح كنيسة القيامة على أن يطلق سراح خمسة آلاف أسير مسلم، فأخلى الإمبراطور سبيل الأسرى، وأرسل المعماريين إلى بيت المقدس، وأنفق كثيرا من الأموال على تجديد بناء هذه الكنيسة[2].

5.3.3 الكتب عند حدوث الآيات السماوية:

جرت العادة أن يكتب السلطان إلى الرعايا عند حدوث الآيات المهولات التي يريد الله تعالى بها إرشاد عباده إلى الإقلاع عن معصيته، والإقبال على طاعته، كالرياح والعواصف، والزلازل والصواعق، واحتباس القطر وخروجه في التِّسكاب عمّا جرت به العادة، يتضمّنها من الوعظ الشافي والرقيق ما يأخذ بمجامع القلوب ويشعرها التقوى والرهبة ويبعث على المراقبة[3].

والرسم فيها أن تفتتح بحمد الله على آلائه التي يفيضها ابتلاء واختباراً، وآياته التي يرسلها تخويفاً وإنذاراً، وموهبته في التوقيف بسابغ نعمته على طاعته والتحذير بدافع نقمته من معصيته، والصلاة على رسوله الذي أنقذ بشفاعته، وعصم من نزول القوارع بنبوّته[4]. ثم يقدم مقدمة تتضمن أن الله تعالى يقدّم الإعذار أمام سخطه وعذابه، ويبدأ الإنذار قبل غضبه وعقابه، فمن استيقظ من سِنَتِه، ونظر لعاقبته، ونزع إلى طاعته، وأقلع عن معصيته، كشف ضرّه، وضاعف أجره، ومن أضرب

---

(1) انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج14، ص17، 18.

(2) أبو الفداء إسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماه (ت 732هـ/1331م)، المختصر في أخبار البشر، ج2، ص158.

(3) علي بن خلف، مواد البيان، ص519، 520.

(4)القلقشندي، صبح الأعشى، ج8، ص315.

عن موعظته، وتـعمى عن تبيهه وتذكرته أخذه على غرّتـــه، وســـلبه ســـربال[1] نعمته[4].

ثم يؤخذ[5] في حثّ الأمة على النزاع إلى الصلوات، والمسارعة إلى بيـــوت العبادات والإكثار من التضرّع والخشوع، والاستكانة والخنـــوع، وإذراء الـــدموع، وإخلاص التوبة عن محتقب الآثام ومجترح الأوزار، والتوسل إلى الله فـــي قبـــول الإنابة بقلوب نقية، وطويّات على الطهارة مطويّـــة، وســـرائر صـــحيحة ونيّـــات صريحة، يصدّقها الندم على الماضي، وعقد العزم على الإقلاع في الآتي، والرغبة إليه في رفع سخطه وإنزال رحمته، وما يجاري هذا[6].

وينبغي للكاتب أن يتلطّف في الموعظة، ويبالغ في الـــذكرى التـــي تحصـــر الخواطر، وتقدح الأنفس، وتحرك العزائم نحو الإخلاص، فإنه إذا أبرز هذه المعاني في صورة تشعر الخيفة من غضب الله تعالى وعقابه، وترغب في عفوه وثوابه، نفع الله من رغب عن الهوى، ورغب في التقوى بكتابه[2].

6.3.3 الكتب في التوفقة بين السنين الهلالية والخراجية:

لا شك أن استحقاق وجباية الخراج منوطة بالزروع والثمار، من حيـــث أن الخراج يؤخذ منها . وأن هذه الزروع والثمار منوطة بالشهور والسنين الشمسية، من حيث أن كل نوع منها يظهر في وقت من أوقاتهـــا مـــلازم لـــه لا يتحـــوّل عنـــه، واستخراج الخراج في الدين الإسلامي مرتبط بتاريخ الهجرة النبوية شهوره وســـنيّه عربية، والشهور العربية تنتقل من وقت إلى وقت، فربما كان استحقاق الخراج فـــي أول سنة من السنين العربية، ثم تراخى الحال فيه إلـــى أن صـــار اســـتحقاقه فـــي أواخرها، ثم تراخى حتى صار في السنة الثانية فيصير الخراج منسوبا للسنة السابقة

---

(1) سربال: القميص أو كل ما يلبس، المنجد في اللغة والأعلام، باب سَرَبَ، ص329.

(4) علي بن خلف ، مواد البيان ،ص520

(5) المصدر السابق، ص520،521.

(6) المصدر السابق ، ص521

واستحقاقه في السنة اللاحقة فيحتاج حينئذ إلى تحويل السنة الخراجية السابقة إلى التي بعدها[1].

ويرى علي بن خلف في مواد البيان أن السبب في انفراج ما بين السنين الشمسية والهلالية أن أيام السنة الشمسية هي المدة التي تقطع الشمس الفلك فيها دفعة واحدة وهي ثلاثمائة وخمسة وستون يوما وربع يوم بالتقريب حسب ما توجبه حركتها، وأيام السنة الهلالية هي المدة التي يقطع القمر الفلك فيها اثنتي عشرة دفعة، وهي ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوما وسدس يوم، فيكون التفاوت بينهما أحد عشر يوما وسدس يوم، فتكون زيادة السنين الشمسية على السنين الهلالية في كل ثلاث سنين شهرا واحدا وثلاثة أيام ونصف يوم تقريبا وفي كل ثلاث وثلاثين سنة، سنة بالتقريب، فإذا تمادى الزمان تفاوت ما بين السنين تفاوتا قبيحا، فيرى السلطان عند ذلك أن تنقل السنة الشمسية إلى السنة الهلالية بالاسم دون الحقيقة توفيقا بينهما، ومتى أوعز بذلك لم يقف على الغرض فيه إلا الخاصة، دون العامة، وأسرع إلى ظن المعاملين وأرباب الخراج أن ذلك عائد عليهم بظلم وحيف، وإلى ظن الجند ومستحقي الإقطاع أنه منتقص لهم فرسم بلغاء الكتّاب في هذا المعنى رسوما تعود بتفهيم العييّ وتبصير العميّ وتوصل المعنى إلى المراد الكافة إيصالا يتساوون في تصديقه وتيّقنه ولا يتوجه عليهم شبهة ولا شك فيه[2].

وهو أن تفتتح الكتب بعد التصدير والتحميد بأن أمير المؤمنين بما وفّقه الله تعالى من النظر في مصالح المسلمين والأخذ بعزائم الدنيا والدين، لا يجد ثغرة فيها خلل إلا سدّها، ولا مزلقة يتوجه بها زلل إلا مهدّها ووطّدها...... وأمير المؤمنين يسأل الله تسديده في كل ما يحل ويعقد.

ثم يقال: وإن الله تعالى هدانا بتبصرته إلى الوقوف على عجائب صنعته، وأقدرنا بالتمييز الذي خصّنا بفضيلته، على التطرّق إلى علم الغائبات عن حواسّنا من دقائق حكمته .وأوجدنا السبيل بما منحنا من التحصيل والإدراك، إلى الإحاطة بحركات النجوم والأفلاك العلم بما يحدث بينها من ممازجة واتصال .... الخ فقال

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج13، ص58، 59.

(2) انظر علي بن خلف، مواد البيان، ص58، 59، 60.

جل قائلا ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[2] ليدلّ جلّ اسمه على تفصيل حالاتها وتغاير الأزمنة باختلاف حركاتها، ويذكر الغاية في اختلاف السنين الشمسية والهلالية.

ثم يقال: وقد رأى أمير المؤمنين، والله يوفّق آراءه نقل سنة كذا الخراجية إلى سنة كذا الهلالية، فاعمل بما تضمّنه كتابه هذا؛ وتقدّم إلى من قبلك من العمال بإجراء الأمر عليه في جماعاتهم وأعمالهم وأن ينسبوا ما كان جاريا في السنة المنتقل عنها إلى السنة المنتقل إليها . واقرأ كتاب أمير المؤمنين على من قبلك من الأجناد والرعايا والمعاملين، ليعلموا أن هذا النقل لا ينتقص ذا عطاء من عطائه، ولا يتجيّف معاملا في معاملته، فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله تعالى[3].

ومن الأمثلة على ذلك . الكتاب الذي أصدره الأفضل وزير الآمر سنة 501هـ/1107م وهو من إنشاء ابن الصيرفي:

"....... وقد رأى أمير المؤمنين، وبالله التوفيق، ما خرج به أمره إلى السيد الأجلّ الأفضل الذي نبّه على هذا الأمر وكشف غامضه، وأزال بحسن توصّله تنافيه وتناقضه، أن يوعز إلى ديوان الإنشاء هذا السجلّ مضمّناً ما رآه ودبّره، مودعا إنفاذ ما أحكمه وقرّره، من نقل سنة 499 إلى سنة 501 لتكون موافقة لها، ويجري عليها حالها، ويكون ما يستأدونه من إقطاعاتهم ويستخرجونه من واجباتهم جارياً على نظام محروس ونطاق محيط غير منحوس ...الخ.

فليعتمد ذلك في الدواوين بالحضرة وفي سائر أعمال الدولة وقاصيها ودانيها وفارسها وشاميها. ويتنبّه كافة الكتّاب والمستخدمين وجميع العمّال والمتصرّفين إلى اقتفاء هذه السنن وإتّباعه وليحذروا الخروج عن أحكامه المقرّرة وأوضاعه وليبادروا

---

(1) سورة يونس، الآية 5.

(2) سورة يس، الآيتان 39.

(3) انظر علي بن خلف، مواد البيان، ص560، 561.

إلى امتثال المرسوم فيه، وليحذروا من تجاوزه وتعدّيه ولينسخ في دواوين الأمـــوال والجيوش المنصورة، وليخلد بعد ذلك في بيوت المال المعمورة . وكتب في محـــرم سنة 501هــ/1107م[1].

(1) المقريزي، الخطط المقريزية، ج2، ص31-34.

الفصل الرابع

الأساليب والخصائص الفنية للكتابة في ديوان الإنشاء الفاطمي

لقد امتازت المكاتبات التي صدرت عن ديـوان الإنشـاء الفـاطمي بعـدة خصائص فنية أهمها:

1.4 الاستشهاد من القرآن الكريم:

كان الكتّاب أحيانا يقتبسون في رسائلهم وسجلاّتهم وتوقيعاتهم بعض آيات من القرآن الكريم.

فهذا ابن الصيرفي في سجلِّه الذي كتبه سـنة (501هـ، 1107م) والـذي أصدره الأفضل وزير الآمر يأمر بتصحيح الخراج:

"ووّفقه لما يعود على الكافّة بشمول الانتفاع، حتى صار اسـتبدال الحقـوق بواجبات الشريعة الواضحة الأدلّة، واستيفاؤه بمقتضى المُعدّ له فيما يجـري علـى الخراج وأوضاع الآهلة، ويرغب إليه في الصلاة على محمد الذي ميّـزه بالحكمـة وفصل الخطاب، وبيّن ما استُبهم من سبل الصواب، وأنزل عليه في محكم الكتـاب: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾[1] صلى الله عليه وعلى أخيه وابن عمه أبينا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب "[2] ...... "ومن أيـن يستمر بينهما ائتلاف أو يعـدم لهما اختلاف، أم كيف يعتقد ذلك من البشر، والله تعالى يقول: ﴿الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾[3] فقد وضح التباعد بما جاء منصوصـاً فـي الكتاب، وظهر برهانه بما اقتضاه موجب الحساب، فيحتاج بحكم ذلك إلى نقل السنة الشمسية إلى التي تليها لتكون موافقة للهلالية وجارية معها"[4].

---

(1) سورة يونس، الآية 5.

(2) المقريزي، الخطط المقريزية، ج2، ص31.

(3) سورة يس، الآية 40.

(4) المقريزي، الخطط المقريزية، ج2، ص33.

ومن هذا القبيل ما جاء في البيعة التي كتبها الوزير أبو الفتح يانس الحافظي عن الحافظ لدين الله الفاطمي بعد وفاة ابن عمه الآمر بأحكام الله "...... أما بعد، فالحمد لله اللطيف بعباده وبريته الرؤوف في أقداره وأقضيته، المهيمن فلا يخرج شيء عن إرادته ومشيئته؛ ذي النعم الفائضة الغامرة، والمنن المتتابعة المتظاهرة والآلاء المتوالية المتناصرة، القائل في محكم كتابه : ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾(1) مدبّراً أرضه بخلفائه، الذين هم زينة للدنيا وبهجة، وهادي خلقه بأوليائه لئلا يكون للناس على الله حجة، فسبحان الذي هو للنعم مسبغ وبالكرم جدير، و﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(2) يحمده أمير المؤمنين أن جعله خليفة دون أهل زمانه "(3) ...... وظهر من آياته ما كبّر له المخبتون، واشتهر من معجزاته ما خصم به المتعنّتون، وخاطب الله فيما أنزل عليه بقوله : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾(4) فحينئذ نقله الله إلى ما أعدّ له من جنّاته وخصّه بشرف الشفاعة في يوم مجازاته، وصدقه وعده فيما بوّأه من النعيم المقيم: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾(5) وعلى أبينا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أولى الناس بالنبي".

وهذا سجلّ كتبه أبو منصور بن سورين صادر من الإمام الحاكم بأمر الله إلى من شهد الصلاة الجامعة في مساجد القاهرة المعزية ومصر والجزيرة وموضوعه تبرير قتل الخليفة الحاكم بأمر الله لوزيره برجوان: "أما بعد فالحمد لله الذي قال وقوله الحقّ المبين -: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾(6) يحمده أمير المؤمنين على ما أعطاه من خلافته،

(1) سورة إبراهيم، الآية 27.

(2) سورة الملك، الآية 1.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج9، ص301.

(4) سورة الزمر، الآية 30.

(5) سورة الجمعة، الآية 4.

(6) سورة الأنبياء، الآيتان 22-23..

وجعل إليه –دون بريّته–من البسط والقبض، والإبرام والنقض . معاشر المسلمين: إن برجوان كان فيما مضى عبدا ناصحا أرضى أمير المؤمنين حينا فاستخدمه كما يشاء فيما شاء وفعل به ما شاء، كما سبق في العلوم وجاز عليه في المختوم. قال الله –عزّ وجلّ-: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾[1] ولقد كان أمير المؤمنين ملّكه، فلما أساء ألبسه النقم، لقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾[2] وقوله –عزّ وجلّ-: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى﴾[3] محظره (كذا) أمير المؤمنين عما صبا إليه، ونزّ (كذا) ما كان فيه؛ وتمّت مشيئة الله –عزّ وجلّ- ونفذ قضاءه وتقديره فيه؛ وكان ذلك في الكتاب مسطوراً"[4].

وهذا توقيع كتبه القاضي الفاضل عن الخليفة العاضد بخطّ يده في طرّه عهد الوزارة إلى أسد الدين شيركوه، ومستشهدا به من القرآن الكريم:

"هذا عهد لا عهد لوزير مثله، وتقليد أمانة رآك الله تعالى وأمير المؤمنين أهلا لحمله؛ والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مراشد سبله؛ فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت خدمتك إلى بنوّة النبوّة؛ واتّخذ أمير المؤمنين للفوز سبيلا[5] ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾[6]".

وهذا توقيع بخطّ الخليفة العاضد وصادر عنه، بتعيين صلاح الدين بن يوسف بن أيوب قبل استقلاله بالسلطنة، وهو:

"هذا عهد أمير المؤمنين إليك وحجته عند الله تعالى عليك، فأوف بعهدك ويمينك، وخذ كتاب أمير المؤمنين بيمينك؛ ولمن مضى بجدّنا رسول الله –صلى الله

---

(1) سورة الشورى، الآية 27.

(2) سورة الزخرف، الآية 55.

(3) سورة العلق، الآية 6.

(4) المقريزي، اتعاظ الحنفاء بذكر الأئمة الفاطميين الخلفاء،ج1 ، ص298-301.

(5) القلقشندي، صبح الأعشى، ج9، ص427.

(6) سورة النحل، الآية 91.

عليه وسلم- أحسن أسوة، ولمن بقي بقربنا سلوة[1] ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2]".

وهذا تقليد تعيين وزير صادر عن أحد الخلفاء لم يَذْكُر فيه الوزير المعين وكاتبه علي بن خلف: وقد أورده القلقشندي في صبح الأعشى:

"وأولى الناس باتّخاذ الوزراء واستخلاص الظهراء، من جعله الله إلى حقّه داعيا ولخلقه راعيا، ولدار الإسلام حاميا، وعن حماه مراميا، واستخلفه على الدنيا وكلّفه سياسة المسلمين والمعاهدين ولذلك سأل موسى -عليه السلام-وهو القوي الأمين في استخلاص أخيه هارون لوزارته وشدّ أزره بمؤازرته، فقال : ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾[3] واستوزر محمد -صلى الله عليه وسلم- وهو المؤيد المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ابن عمّه عليّاً سيد الأوصياء بدليل قوله أنت "منّي كهارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي "[4]....... وإنما تستعين الأئمة على ما كفلها الله بكفاءة الأعوان، وأهل النصرة في الأديان، وذوي الاستقلال والتشمير"[5].

2.4 العقائد الفاطمية:

فهي منسوبة إلى فرقة شيعية إسماعيلية نسبة إلى الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق، وقد انقسمت الشيعة بعد وفاة جعفر الصادق إلى فرقتين:

فرقة نادت بإمامة موسى الكاظمي بن جعفر الصادق، وسلسلوا الإمامة في الأكبر سناً من عقبة، ولذلك لقبوا بالإمامة الإثني عشرية.

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج9، ص427.

(2) سورة القصص، الآية 83.

(3) سورة طه، الآيات 29-31.

(4) الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح الجامع الصغير وزيادته، بيروت، المكتب الإسلامي، ط2، 1986، ج1، ص311. بدل كهارون، بمنزلة هارون، رقم الحديث، 1484.

(5) القلقشندي، صبح الأعشى، ج10، ص398، 399.

ب. الفرقة الثانية التي تفرعت عن الشيعة فهي فرقة الإسماعيلية، الذين قالوا بإمامة إسماعيل بن جعفر، والذي تنسب إليه هذه الفرقة[1].

1. الألوهية:

تذهب الإسماعيلية في عقائدها دائماً إلى النفي المطلق للصفات عن الله (الذي يسمونه المبدع الأول)، لأنه تعالى فوق متناول العقل والعقل عاجز عن إدراك كنهه... والإسماعيلية بعد أن تجرد الله -عز وجل- من جميع أسمائه وصفاته، تحولها إلى أول مبدع أبدعه وهو -كما يزعمون- العقل الأول، فالواحد -كما يزعمون- أبدع من نوره أول مبدع وهو (السابق) فهو إذن العقل الأول والحجاب المفضل ثم ظهر عنه (التالي) من نوره، ثم ظهرت جميع الموجودات منهما وبهما فالفيض الأول (أي العقل الأول أو السابق) هو أصل الإيجاد، وهو المبدأ وإليه المعاد[2].

ونرى مما سبق أن الإسماعيلية تقول بتعدد الآلهة، وترى أن أحدهما علة لوجود الثاني، لا بنفسه ... وليس على التعدد من القرآن، كقوله تعالى: "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا"[3]، "نَحْنُ قَسَمْنَا"[4]، وزعموا أن هذا إشارة إلى جمع يصدر عن واحد[5].

والإسماعيلية تقول: "إن العقل الأول أو المبدع هو الذي يرمز إليه تعالى بـ (القلم) في الآية الكريمة "ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ"[6]، وعلى هذا فالقلم هو الخالق وهو الذي أبدع النفس الكلية التي رمز إليها القرآن "باللوح المحفوظ"، ووصفت بجميع الصفات التي للعقل الكلي، إلا أن العقل كان أسبق إلى توحيد الله وأفضل فسمي (السابق)

---

(1) الخطيب، محمد أحمد، عقيدة الدروز، عالم الكتب، الرياض، ط3، 1989م، ص14-15.

(2) الخطيب، محمد أحمد، الحركات الباطنية في العالم الإسلامي، مكتبة الأقصى، عمان، ط1، 1984، ص85-87.

(3) سورة الحجر، الآية: 9.

(4) سورة الزخرف، الآية: 32.

(5) الغزالي، أبو حامد، فضائح الباطنية، ص38.

(6) سورة القلم، الآية: 1-2.

وسميت النفس (بالتالي)، وبواسطة العقل والنفس وجدت جميع المبدعات والمخلوقات من جماد وحيوان ونبات وإنسان وما في السموات من نجوم وكواكب[1].

فالخالق عند الإسماعيلية إذن هو العقل الكلي والنفس الكلية، وبمعنى آخر إن ما يقوله المسلمون عن الله سبحانه وتعالى خلعه الإسماعيليون على العقل الكلي فهو الإلـه عنـد الإسماعيلية، وإذا ذكر الله عند الإسماعيلية فالمقصود هو العقل الكلي، وهذه الصفات التي أسبغوها على العقل الأول أو السابق وعلى التالي كذلك لم تعلنها الإسماعيلية عبثـاً، بـل جاءوا بها لإسباغ صفة خاصة على الإمام، ذلك أنهم ذهبوا إلى أن العقل الكلي في العالم العلوي يقابله في العالم الجسماني ومعنى هذا عندهم أن كل الأسماء والصفات التي خلعت على العقل الكلي هي أيضاً صفات وأسماء للإمام، لأن الإمام مثَلٌ للعقل الكلي، فأسماء الله الحسنى التي قالوا إنها أسماء للعقل الكلي هي أسماء للإمام، فالإمام إذن هـو الواحـد، الأحد، الفرد، الصمد، والمنتقم، والجبار... إلخ من الأسماء، ولذلك قال ابن هاني الأندلسي الشاعر في مدح المعز لدين الله الفاطمي:

ما شئت لا ما شاءت الأقـــدار فاحكم فأنت الواحد القهـــار[2]

2. النبوات:

الوحي عند الإسماعيلية قائم على اعتقادهم بأن العقل وليس الله هو مدبر هذا الكـون، وهو مرسل للوحي إلى الأنبياء، وعلى هذا منهم يزعمون أن الوحي هو : ما قبلته نفـس الرسول من العقل وقبله من أمر باريه[3].

والنبي عندهم (الإسماعيلية) شخص فاضت عليه من السابق –بواسطة التـالي- قـوة قدسية صاخبة[4].

وينبغي على النبي قبل أن يصل إلى مرتبة الذ بوة أن يمر بمرتبة الولي أو (الولايـة)؛ لأنه يجمع في نفسه الصفات الثلاث: الولاية والنبوة والرسالة[5].

وقد سمى الإسماعيليون الأنبياء (بالنطقاء)؛ لأن النطق كما قالوا قسـمان: الأول: مـا يتميز به الإنسان عن البهائم وهو النطق عما في الدنيا.

---

(1) حسين، محمد كامل، طائفة الإسماعيلية، مكتبة النهضة المصرية، 1958م.

(2) المرجع السابق، ص159-160.

(3) الخطيب، محمد أحمد، الحركات الباطنية، ص96.

(4) الغزالي، أبو حامد، فضائح الباطنية، ص40.

(5) بدوي، عبدالرحمن، مذاهب الإسلاميين، دار العلم للملايين، بيروت، 1973م، ص294.

والثاني: النطق عما في الدار الآخرة المتميز به أهل التأييد الذين يتكلمون عما وراء الحجاب[1].

3. اليوم الآخر:

الإسماعيلية تؤمن بتناسخ الأرواح وإنكار البعث والحساب والجنة والنار، والمقصود بتناسخ الأرواح، أن الأرواح بعد موت جسدها تنتقل إلى جسد آخر، وهذا الجسد يكون حسبما كانت عليه في حياتها السابقة، فإما أن تحل الروح في جسد إنساني، وإما في جسد حيواني، أو حتى في جماد أو نبات.

فأرواح المؤمنين -عندهم- عندما تموت وتخرج بالهيكل النوراني تعود بعدها إلى الأرض بأجسام أخرى وتدخل الدعوة الإسماعيلية من جديد إلى أن تصل إلى مرتبتها قبل موتها.

أما أرواح المعاندين، فتدخل في أدوار متكررة من العذاب تتقمص في كل دور سبعين قميصاً[2].

ونظرية الدور عندهم والتي تقوم على أن الوجود يقوم على العدد سبعة تدل على إيمان الإسماعيلية بالنتائج، فهذه النظرية جعلت الأنبياء شخصاً واحداً وكذلك الأئمة، يظهرون في كل دور بنفس ظهورهم في الدور الذي سبقه، أي بمعنى آخر تفنى أجسامهم وتبقى أرواحهم تتعاقب على أجسام أخرى[3].

وأولت الإسماعيلية القيامة وكل ما يقع فيها من أحداث وحقائق، بأنها قيام النفوس الجزئية المفارقة للمبدعات الحسية، الآلات الجسدانية، وقيام الشرائع والأديان لظهور صاحب الزمان وجنة النعيم هي عالم العلم، ودرجاتها هي مراتب العلوم[4].

---

(1) المؤيد لدين الله، داعي الدعاة، ديوان المؤيد، تحقيق، محمد كامل حسين، دار الكاتب المصري، 1949م، ص135.

(2) الخطيب، محمد أحمد، الحركات الباطنية، ص115.

(3) المرجع السابق، ص112.

(4) تامر، عارف، أربع رسائل إسماعيلية، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1978م، ص69-70.

وعلى هذا فإن نعيم الجنة ولذاتها عند الإسماعيلية، إنما هي لذات معنوية وليست حسية قطعاً لذلك فإنهم ينكرون الجنة والنار ولا يؤمنون بها [1] فالتخلص من النتائج بعدم عودة الروح الى الجسد ورجوعها الى الالتصاق بأصلها، وتخلصها من الحسن، والمادة هي الجنة بعينها عندهم؛ لأن الجنة لا يمكن أن تكون لذاتها حسية، لأن ما هو حسي متغير فاسد[2].

4. التَّقية:

بالفتح ثم بالكسر لغةً :الخوف والحذر والكتمان وهي إحدى عقائد الشيعة الرئيسية على اختلاف طوائفها فالشيعي لا يستطيع أن يخفي مذهبه ويكتم عقيدته فحسب بل يجب عليه أن يفعل ذلك وأن يبالغ في الإخفاء والكتمان فأصبحت هذه العقيدة صفتهم المميزة وسمة مألوفة في سيرهم ، وقد آمنت الشيعة بهذه العقيدة حتى تستطيع أن تحرك قواها عبر الدعاية الخفية المستترة، فكثرت أسرارها العقائدية التي لا يجوز البوح بها للآخرين، فاستعان بها دعاة التشيع وجعلوها مبدأ من مبادئهم الأساسية مستهدفين من وراء ذلك عدم إفشاء أسرارهم ليوهموا الناس أنها مقدسة[3].

وإن دعاة الإسماعيلية في مصر لم يستطيعوا أن يصرحوا بالصفات التي سبغوها على الأئمة، والتي جعلته ممثلاً للعقل الكلي، للعامة أو المبتدئين، بل لم يكن يعرفها إلا من استمع إلى داعي الدعاة نفسه في المجالس التي كان يعقدها للخاصة فقط ، أما جمهور الناس فلم يكن الدعاة بقادرين على الإبانة عن هذه العقائد أو الإشارة إليها ..ولذلك عمد دعاة الإسماعيلية في مصر إلى إخفاء أكثر عقائدهم السرية عن الناس ولم يظهروا منها إلا ما كان هيناً ورقيقاً بالشعب، وما كان لا يخالف العقائد التي كانت سائدة في مصر[4].

وهذا يفسر لنا في مذاهبهم ، ولذلك نجدهم يحاولون جاهدين أن يظهروا لأئمتهم علماً باطناً أوحاه جبريل للنبي -صلى الله عليه وسلم- وأسره -عليه الصلاة

---

(1) الخطيب، محمد أحمد، الحركات الباطنية، ص115.

(2) السجتاني، أبو يعقوب إسحق، الينابيع، مصطفى، غالب، بيروت، 1965م، ص135.

(3) الخطيب، محمد أحمد، الحركات الباطنية، ص46.

(4) حسن، محمد كامل، طائفة الإسماعيلية، ص160.

والسلام-إلى علي بن أبي طالب، وتناقلته الأئمة من بعده ..ويزعم دعاة التشيع والإسماعيلية أن جعفر الصادق هو أول من أظهر هذه العقيدة وأمر أتباعه بها ، لذلك فقد امتلأت كتبهم بالكثير من الروايات المزعومة عن جعفر في وجوب هذا المعتقد.

لقد ركّزت المكاتبات التي صدرت عن ديوان الإنشاء على العقائد الفاطمية وهذا يظهر في السجلاّت التي تصدر في الأعياد والمواسم أو في تولية إمام أو أحد رجال الدولة من وزراء وقضاة ودعاة، ففي مثل هذه السجلاّت كان الكتّاب يلمّون بالعقائد، ويقومون بتأويل بعض آيات القرآن الكريم تأويلا يتّفق مع مذهبهم الفاطمي، ويعبّرون في معظم كتاباتهم عن رأي الفاطميين في كل مناسبة وفي كل عيد، فمثلا السجلاّت التي صدرت في عيد الغدير كانت تنصبّ على ولاية علي بن أبي طالب والأئمة المنصوص عليهم من بعده، وسجلّ مأتم عاشوراء كان في الحسين بن علي وما لاقاه أهل البيت من أهوال، وسجلّ رؤية رمضان في ذكر عقيدة الفاطميين في هلال رمضان، وهكذا كانت هذه السجلاّت حافلة بالمعتقدات الفاطمية التي لا يمكن أن تصدر عن دولة غير فاطمية المذهب.

وسجلّ البيعة الصادر عن الحافظ لدين الله إلى كافة أهل الدولة ولعل كاتبها ابن الصيرفي يقول فيه : "....... ولا خلاف بين كافة المسلمين في أن الله تعالى أمر جدّنا محمدا -صلى الله عليه وسلم- بعقد ولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب – صلى الله عليه- فعقدها له يوم غدير خُمٍّ، وأمير المؤمنين علي ابن عمه وكان له حينئذ عم حاضر، وأمضى ما أمر به والإسلام يومئذ غضّ ناضر، وكذلك أمير المؤمنين، هو ابن عم الإمام الآمر بأحكام الله أمير المؤمنين، وقد نصّ مع حضور عمومته عليه، وفعل ما فعل جدّه رسول الله إقتداء به وانتهاء إليه، وكان أبو علي المنصور الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين -صلوات الله عليه - جعل ابن عمه عبد الرحيم بن إلياس ولي عهد المسلمين ميّزه بذلك على كافة الناس أجمعين"(1).

والسجلّ التالي من تقليد تعيين الصالح طلائع بن رزّيك وزيرا للخليفة الفائز وهو صادر من الخليفة الفائز وكاتبه ابن الخلاّل:

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج9، ص309.

"....... يحمده أمير المؤمنين على ما نقله إليه من خصائص آبائـــه الأئمـــة الأطهار وأيّده به في إبصار دعوته من العلوّ والاستظهار .... ونسأله أن يصـــلي على جدّه محمد نبيّه الأمين ورسوله المبعوث في الأمّيّين، الذي جـــلا الله ظلمـــات الجهالة بمبعثه، وشرف الأئمة من ذريته بمقامه ومورثه، وجعله خير رسول علـــى خير أمة أخرجت للناس وعلى أخيه وابن عمّه أبينا أمير المؤمنين علـــي بـــن أبـــي طالب قسيمه في المناسب والفضائل وثالثه في تشفيع الـــذرائع والوســـائل مفـــرّج الكروب عنه بمؤازرته وصدق كفاحه وباب مدينة علمه الذي لا يوصـــل إليـــه إلا باستفتاحه وعلى الأئمة من ذريتهما الذين بلّغ الله بهم الأرب والسُّول، وأغنى الأئمة بهداهم عن التقفية بعده برسول والعترة المصطفين "[1]؛ تلمح في هذا السجلّ العقائـــد الفاطمية واضحة جلية من مكانة الإمام علي ووصفه بمفرّج الكروب، ومكانة الأئمة منهم قد سدُّوا مكان الرسل حسب مفهوم الشيعة.

وقد اعتمد الفاطميون الباطنية وجعلوها وسيلة لنشر مبادئهم، ولجـــأوا إلـــى التأويل غير المشروع، أي الذي لا يوافق العقائد الإسلامية، فتراهم يفسّـــرون قولـــه تعالى: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً﴾[2] بأن السماء هي الإمام، والماء المدرارا العلم ينصب من الإمام إليهم؛ ومعنـــى "يمـــددكم بأموال وبنين" أن الأموال هي العلم والبنين هم المستجيبون، ومعنى "يجعل لكم جنّات ويجعل لكم أنهارا " أن الجنّات هي الدعوة السرية أو الباطنية والأنهار هـــي العلـــم الباطني، وكذلك فسّروا قوله تعالى: في سورة الحشر ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[3] أن الشيطان عمر بن الخطاب والإنســـان هو أبو بكر الصديق ومعنى اكفر لا تؤمن بإمامة علي بن أبي طالب، وتفسير قولـــه تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾[4] أن الشمس والقمر هما الحسن والحسين، وأن إبليس

---

(1) السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص120.

(2) سورة نوح، الآيات 10-12.

(3) سورة الحشر، الآية 16.

(4) سورة الرحمن، الآية 5.

وآدم المشهوران في القرآن أبو بكر وعلي إذ أمر أبا بكر للسجود لعلي والطاعة له فأبى واستكبر إلى غير ذلك من مستقبح أكاذيبهم وأباطيلهم(1).

3.4 المقدّمات التي كان يبدأ بها الكتّاب رسائلهم وسجلاّتهم:

لقد دفعتهم عقيدتهم الدينية وتمذهبهم بالمذهب الفاطمي إلى أن يبدأوا رسائلهم وسجلاّتهم بالحمد لله ثم الصلاة على النبي محمد -عليه الصلاة والسلام - ثم على الوصي والأئمة من أهل البيت، ومتعمدين دائما ذكر محمد بأنه جد الأئمة، محاولين بذلك إثبات نسبهم في كل سجلّ من سجلاّتهم، وكل رسالة من رسائلهم، وكأنهم يريدون من ذلك رداً على سجلاّت العبّاسيين في دحض نسب الفاطميين، أو أنهم أرادوا بتكرار هذه الناحية تأكيد ما حاول خصومهم نفيه.

ولعل هذه الخصلة تظهر في سجلاّت الفاطميين أوضح من رسائلهم، والسبب في ذلك أن السجلاّت الفاطمية كانت أقرب إلى البلاغات الرسمية التي تصدر عن ديوان الإنشاء.

وهذه مقدمة سجلّ "الهداية الآمرية في إبطال الدعوة النزارية " وموضوعه تبرير أحقية المستعلي -والد الآمر- في الخلافة، وإثبات عدم أحقية أخيه نزار لها . صادرة عن الخليفة الآمر بأحكام الله إلى معشر المؤمنين في جميع أنحاء الدولة وممتلكاتها. من إنشاء ابن الصيرفي:

"الحمد لله الذي جعلنا للمتقين إماما، وأقامنا للهدى أعلاما، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تكون للمؤمنين وسيلة وذماما، ونصلي على جدّنا سيدنا محمد رسوله الذي أسبل ببلاغه من سماء الحكمة غماما، ونسخ بأحكام دينه أنصابا وأزلاما، وعلى أ بينا وصيه ووارث مقامه وعلمه علي بن أبي طالب أعظم الخلق قربا وإلماما، وأولهم إيمانا وإسلاما، وعلى الأئمة من ذريتهما الذين احتووا بهدايتهم من الحكمة زماما، وأزاحوا بأنوارهم من الضلالة ظلاما، صلى الله عليهم صلاة

---

(1) الغزالي، الإمام أبو حامد (505هـ/1111م) فضائح الباطنية أو المستظهري نشر جولد تسهير (ليدن 1616)، ص13.

دائمة ولقّاهم تحية وسلاما [1]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2].

وهذه مقدمة سجلّ تولية شاور الوزارة للمرة الثانية صادرة عن الخليفة العاضد إلى وزيره شاور، وكاتبها الموفق بن الخلاّل صاحب ديوان الإنشاء . "سلام عليك: فإن أمير المؤمنين يحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو، ويسأله أن يصلي على جدّه محمد خاتم ال نبيين، وإمام المرسلين، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين الأئمة المهديين، وسلّم تسليما.

أما بعد، فالحمد لله مانح الرغائب، ومنيلها، وكاشف المصاعب، ومزيلها، ومذل كل عصبة كلفت بالغدر والشقاق ومذيلها، ناصر من بُغي عليه، وعاكس كيد الكائد إذا فوّق سهمه إليه، وراد الحقوق على أربابها أو مرتجع المراتب على من هو أجدر برقيِّها وأولى بها، ومسّني الخير بتيسير أسبابه، ومسهّل الرتب بتمهيد طرقه وفتح أبوابه، ومدني نائي الحظ بعد نفوره واغترابه، ومطلع الشمس بعد المغيب ومتدارك الخطب إذا أعضل بالفرج القريب، مبدع ما كان ويكون، ومسبب الحركة والسكون، محسن التدبير، ومسهّل التعسير [3]: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[4].

وهذه مقدمة رسالة صادرة عن الخليفة الأمر بأحكام الله (والوزير هو الأفضل شاهنشاه) وموضوعها إعلام ولاة الأقاليم بوفاة الخليفة المستعلي وولاية ابنه الآمر، وكاتبها ابن الصيرفي:

---

(1) شيّال، جمال الدين، مجموعة الوثائق الفاطمية وثائ ق الخلافة وولاية العهد والوزارة، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002، ص212.

(2) سورة آل عمران، الآيتان 100-101.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج10، ص30.

(4) سورة آل عمران، الآية 26.

"فالحمد الله المتوحد بالبقاء القاضي على عباده بالفناء الذي تمجّد بالأزلية والقدم، وتفرد بالوجود وتنزهه عن العدم، وجعل الموت حتما مقضيا على جميع الأمم. يحمده أمير المؤمنين على ما خصّه به من الإمامة التي قمّصه سربالها وورثه فخرها وجمالها، حمد شاكر على جزيل العطية، صابر على جليل الرزيّة، مسلِّم إليه في الحكم والقضية ويسأله أن يصلي على جدّه محمد الذي ثبتت حجته ووضحت محجته، وعلت كلمته، وأنافت على درجة الأنبياء درجته، صلى الله عليه وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي جعل الله الإمامة كلمة في عقبه باقية، وحبه جُنّة [1] يوم الفزع الأكبر واقية وعلى الأئمة من ذريتهما الطاهرين، صلاة دائمة إلى يوم الدين........" [2].

4.4 كثرة الجمل الدعائية والمعترضة:

يقصد بالجمل الدعائية : العبارات التي تتضمن الدعاء للمرسل إليه أو المخاطب أو الدعاء للسلطان أو الأمير أو الحاكم أو الدعاء على الأعداء ويكون موقعها إما في مقدمة الرسالة أو بعد عبارة التخلص أو في الخاتمة.

ويقصد بالجمل الاعتراضية أو المعترضة : العبارات التي تعترض الكلام وتكون للدعاء أو لغيره.

ووجدت هذه الظاهرة في أسلوب عبد الحميد الكاتب، ووردت في مقدمة رسالته إلى الكتّاب[3] كما وردت بكثرة عند كتّاب الأندلس في القرن الخامس الهجري[4].وتعد هذه الظاه رة أصلا من أصول التعبير الأدبي، وتقوم عليه الرسائل على اختلاف موضوعاتها وأغراضها[5].

---

(1) جُنّة: بضم الجيم، السترة وكل ما وقي من سلاح. (لسان العرب، جَنَنْ).

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج8، ص240، 241.

(3) المرجع السابق، ج10، ص118

(4) القيسي، فايز عبد النبي فلاح، أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، دار البشير، عمان، 1409هـ/1989م، ص320-322.

(5) المرجع السابق، ص320.

ومن الأمثلة على هذه الجمل : من خلال سجلّ إعلان وفاة الخليفة المستعلي وولاية الآمر مكانه وهو صادر عن الآمر بأحكام الله إلى كافة أولياء الدولة وكاتبه ابن الصيرفي:

ففي المقدمة: "....... ويسأله أن يصلي على جدّه محمد خاتم النبيين -**صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين، الأئمة المهديِّين وسلّم تسليما**- أما بعد "، وفي وسط السجلّ "...... وإن الإمام المستعلي بالله أمير المؤمنين -**قدّس الله روحه**- كان ممّن أكرمه الله بالاصطفاء وخصّه بشرف الاجتباء". "........ وقد كان الإمام المستعلي -**قدّس الله روحه**- عند نقلته جعل لي عقد الخلافة من بعده، وأودعني ما حازه من أبيه عن جدّه ".إلى أن يقول : "....... فأوصاني أن أجعله لي -**كما كان له**- صفيّا وظهيرا، وأن لا أستر عنه من الأمور صغيرا ولا كبيرا ". وفي ختام السجلّ "....... **وأمير المؤمنين يسأل الله أن تكون خلافته كافلة بالإقبال، ضامنة ببلوغ الأماني والآمال، وأن يجعل دِيَمها دائمة الخيرات، وقسمتها نامية على الأوقات إن شاء الله تعالى**"[(1)].

وهذا منشور صادر عن الخليفة الآمر بأحكام الله إلى كافة الأمراء وسائر الولاة وجميع النواب والمستخدمين وموضوعه إمضاء ما كان الوزير الأفضل شاهنشاه قد قرره وخرجت به توقيعاته -قبل قتله- وعدم تغيير شيء منها . وكاتبه أبو الحسن علي بن أبي أسامة.

"خرج أمير المؤمنين -**صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين**- بإنشاء هذا المنشور:

بأن يعتمد في ديوان التحقيق والمجلس وسائر دواوين الدولة -**قاصيها ودانيها، قريبها ونائيها**- إمضاء ما كان السيد الأجل (والدعاء)- قرره وخرجت به توقيعاته....... فليحذر كافة الأمراء وسائر الولاة -**نصرهم الله وأظفرهم**- وجميع النواب والمستخدمين وسائر الكتّاب والمتصرفين بجميع الأعمال من تأويل فيه، وتعقب تغيير شيء من أحكامها على ما قرره وأمر به"[(2)].

(1) ابن الصيرفي، في الإشارة إلى من نال الوزارة، ص13-15.

(2) جمال الشيّال، مجموعة الوثائق الفاطمية، ص294.

وهذا توقيع بخط الفائز وموضوعه توقيع بخط الخليفة الفائز على طره التقليد بتوليه الصالح طلائع بن رزّيك الوزارة وكاتبه هو ابن الخلاّل كاتب الإنشاء.

لو"زيرنا السيد الأجل الملك **ل**صالح ناصـــر الأئمـــة، كاشـــف الغمـــة ...... واستحقاق غايات المن الجزيل، ومزية الولاء الذي بعثه علـــى بـــذل الـــنفس فـــي نصرتنا، ودعاه **–دون الخلائق-** إلى القيام بحق مشايعتنا، ما يبعثنا على التبرع لـــه ببذل كل مصون ....فالذي تشتمل عليه ضمائرنـ ا أضعاف أضعافه، ولذلك شـــرفناه بجميع التدبير والإنالة ورفعناه إلى أعلى رتب الأصفياء بما جعلناه له من الكفالة.

والله تعالى يعضد به دولتنا، ويحوط به حوزتنا، ويمـــده بمـــواد التوفيـــق والتأييد، ويجعل أيامه في وزارتنا ممنوحة غاية الاستمرار إن شاء الله تعالى"[1].

ومن بيعة إعلان خلافة الحافظ لدين الله بـ عد وفاة ابن عمه الآمر بأحكـــام الله وطلب البيعة له وهي صادرة من الحافظ لدين الله إلى كافة أهل الدولة وكاتبها ابـــن الصيرفي. ومنها: "فيّسر الله –سبحانه- ما كان مرتقبا من ظهوره، وأذن في إشراق الأرض بما انتشر في آفاقها من نوره وبعثه **–جلّت قدرته-** إلـــى الأمـــة بأســـرها قاطبة.... وكان والده الأمير أبو القاسم **قدّس الله روحه** - بمنزلة الأشـــجار التـــي يتأنى بها إلى أن يظهر زهرها .... ولا خلاف بين كافة المســـلمين فـــي أن الله تعالى أمر جدّنا محمدا **صلى الله عليه وسلم** - بعقد ولاية أمير المؤمنين علي بـــن أبي طالب **صلى الله عليه** - فعقدهاله يوم غدير .... وكان أبو علي المنصـــور الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين **–صلوات الله عليه-** جعل ابن عمه عبد الرحيم إلياس ولي عهد المسلمين ..... وقد علم الإمام الحاكم **–عليه السلام-** أن المراد بذلك من يأتي بعده ممن أولده أو أنسله ...... وافق جدّه **–عليه السلام-** وكان لقبـــه مـــن لقبه مشتقا...... والرمز إنانة والنص على أمير المؤمنين أمانة، فاقتدى بجدّه رسول الله **صلى الله عليه وسلم** - في استخلاف أمير المؤمنين مع حضور عمومته، وفعل في ذلك فعلته، وجرى على قضيته، وكشف غما أبهمه الإمام الحاكم بأمر الله **–قدّس الله لطيفته**فتساوى الخاص والعام في معرفته . وفي الختام **وأمير المؤمنين يسأل**

(1) المرجع السابق، ص312.

الله أن يعرفكم بركة إمامته ويُمْن خلافته وأن يجعلها ضامنة بلوغ المطالب، كافلة لكافتكم بسعادة المبادئ والعواقب"[1].

ومن سجلّ عهد تعيين أسد الدين شيركوه وزيرا للخليفة العاضد صادرا عنه إلى وزيرأسد الدين شيركوه وكاتبه القاضي الفاضل . "...... وكنت أيها السيد الأجلّ **أدام الله قدرتك وأعلى كلمتك** - أعظم نعم الله تعالى أثرا، ...... ودعاك إمام عصرك بقلبه ولسانه وخطه -**على بعد الدار** - وتحقق أنك تتصرّف معه حيث تصرّف وتدور معه حيث دار..... وولاّه كما ولى جدّه -**صلى الله عليه وسلم**- قبلة يرضاها..... والله -**سبحانه وتعالى**- يحقق لأمير المؤمنين فيك أفضل المخايل"[2].

5.4 التناص وتوظيف الموروث:

يعد التناص أو تداخل النصوص من أحدث المناهج النقدية، ويجمع أغلب الباحثين في حقول النقد الأدبي على أن الكاتبة الفرنسية جوليا كرستيفا رائدة هذا المنهج وذلك من خلال بحوثها التي كتبتها ما بين عامي (1966-1967م) [3].

وتعرّف جوليا كرستيفا التناص بأنه "النقل لتعبيرات سابقة ومتزامنة، وهو اقتطاع أو تحويل "[4] وتعريفها هذا التقت مع ما يراه رولان بارت حيث يرى : "أن كل نص هو نسيج من الاقتباسات ، والمرجعيات، والأصداء، وهذه لغات ثقافية قديمة، وكل نص (الذي هو تناص على نص آخر) ينتمي إلى التناص فالاقتباسات

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج9، ص301-307.

(2) ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، نشره، جمال الدين الشيال، ج1، القاهرة، 1953، ج2، القاهرة، 1957، ج1، ص164.

(3) انظر الزعبي، أحمد، التناص نظريا وتطبيقيا، إربد الكتاني، ط1، 1415/1995، ص9؛ المديني، أحمد، في أصول الخطاب النقدي الجديد، دار الشؤون الثقافية، العراق، بغداد، ط1، 1989، ص102.

(4) الزعبي، أحمد، التناص نظريا وتطبيقيا، ص9.

التي يتكون منها مجهولة المصدر، ولكنها مقروءة فهي اقتباسات دون علامات تنصيص"[1].

ويعرّف أحمد الزعبي التناص بقوله : "التناص في أبسط صوره يعني أن يتضمن نص أدبي ما نصوصا، أو أفكارا أخرى سابقة عليه عن طريق الاقتباس، أو التضمين، أو التلميح أو الإشارة، أو ما شابه ذلك من المقروء الثقافي لدى الأديب، بحيث تندمج هذه النصوص أو الأفكار مع النص الأصلي وتندغم فيه لتشكل نصا جديدا واحدا متكاملا"[2].

ويوسع جعفر العلاّق في تعريفه لمفهوم التناص حيث يقول : "أن التناص لا يقصر حركة النص على النصوص الأخرى فقط بل يتجاوزها إلى مظاهر غير نصية كثيرة، فقد يكون التناص إيماء مباشرة، أو غائمة إلى عمل كامل، أو مجتزأ، وقد يكون كذلك تلميحا إلى شخصية، أو مكان، أو حادثة[3].

ويرى الزعبي أن التناص ليس جديدا وإنما هو موضوع له جذوره في الدراسات النقدية شرقا وغربا، ولكن تحت مسميات ومصطلحات أخرى عديدة، فالاقتباس والتضمين والاستشهاد، والقرينة والتشبيه والمجاز والمعنى وما شابه ذلك في النقد العربي القديم تدخل في مفهوم التناص بصورة حديثة"[4].

ومما هو لافت للنظر أنه قد ظهرت ضروب مختلفة من التناص في كتابات ديوان الإنشاء الفاطمي، وقد تجلى ذلك في:

أ. تناص آيات القرآن الكريم.

فالنص القرآني يمثل في أذهان الكتّاب المثل الأعلى في صياغته، ومعناه، وفصاحته، وبلاغته، لذا نراهم يكثرون من الأخذ منه وإدراجه في كلامهم، ليزيده حكمة وجمالا. فقد أكثر كتّاب ديوان الإنشاء الفاطمي من التناص، ووظّفوه كثيرا من الآيات في مكاتباتهم الصادرة عن هذا الديوان.

---

(1)الزعبي، أحمد، التناص نظريا وتطبيقيا، ص10.

(2) المرجع نفسه، ص9.

(3) العلاّق، جعفر، الشعر والتلقي (دراسات نقدية)، دار الشروق ، ط1، ض1997، ص132.

(4) الزعبي، أحمد، التناص نظريا وتطبيقيا، ص15.

فهذا السجلّ الذي كتبه ابن الصيرفي في إعلان وفاة الخليفة المستعلي وولاية الآمر مكانه أكثر فيه من التناص لآيات القرآن الكريم. ومثال ذلك.

ولا يكون أمرهم عليهم غمّة " وهذه الفقرة تناص مع الآية الكريمة ﴿ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ ﴾(1)، "وذلك هدى الله" وفي هذه تناص مع الآية الكريمة ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾(2)، "فإنا لله وإنّا إليه راجعون" وهذا تناص مع الآية الكريمة ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ﴾(3).

وفي السجلّ الذي صدر عن الخليفة الآمر بأحكام الله إلى معشر المؤمنين وكاتبه أيضا ابن الصيرفي حيث يقول:

"وقد ضرب الله عليهم الذلّة والمسكنة ولهذا باءوا بغضب من الله" وهذا تناص مع الآية الكريمة ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّه ﴾(4)، "فتبّت أيديهم" وفي هذا تناص مع الآية الكريمة ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾(5)، الّذي لا ينطق عن الهوى " وهذا تناص مع الآية الكريمة ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾(6)، "ليشتروا به من حطام الدنيا ثمنا قليلا" وهذا تناص مع الآية الكريمة ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَـذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً ﴾(7)، "وأخذوا أخذ القرى وهي ظالمة" وهذا تناص مع الآية الكريمة ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾(8)،"وبأي حديث بعده يؤمنون " وهذا تناص مع الآية الكريمة ﴿فَبِأَيِّ

---

(1) سورة يونس، الآية 71. انظر السجل في الإشارة لمن نال الوزارة لابن الصيرفي، ص13-15.

(2) سورة الزمر، الآية 23.

(3) سورة البقرة، الآية 156.

(4) سورة البقرة، الآية 61. انظر السجل في مجموعة الوثائق الفاطمية للشيال، ص212-228.

(5) سورة المسد، الآية 1.

(6) سورة النجم، الآية 3.

(7) سورة البقرة، الآية 79.

(8) سورة هود، الآية 102.

حَديثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾[1]، "لا يعلم تأويلها إلا الراسخون في الـ علم" وهذا تناص مع الآية الكريمة ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ﴾[2].

وفي سجلّ بيعة للقاضي الفاضل أيضا أكثر فيه من التناص حيث يقول:

و"جعلها كلمة باقية في عقبه " وهذا تناص مع الآية الكريمة ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[3]، و"جعل نار الحوادث بردا وسلاما " وهذا تناص مع الآية الكريمة ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾[4]، "وأقرض الله قرضا حسنا" وهذا تناص مع الآية الكريمة ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾[5]، "لأحيت بها العظام وهي رميم" وهذا تناص مع الآية الكريمة ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾[6]، "رأت كيف يفرق فيها كل أمر حكيم" وهذا تناص مع الآية الكريمة ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[7]، و"الله لك نعم المولى ونعم النصير " وهذا تناص مع الآية الكريمة ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَوْلاَكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾[8]، "إنه هو السميع البصير" وهذا تناص مع الآية الكريمة ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾[9].

---

(1) سورة الأعراف، الآية 185.

(2) سورة آل عمران، الآية 7.

(3) سورة الزخرف، الآية 28. انظر السجل في صبح الأعشى للقلقشندي، ج9، ص399-405.

(4) سورة الأنبياء، الآية 69.

(5) سورة البقرة، الآية 245.

(6) سورة يس، الآية 78.

(7) سورة الدخان، الآية 4.

(8) سورة الأنفال، الآية 40.

(9) سورة الإسراء، الآية 1.

وفي تقليد كتبه ابن الخلاّل وهو صادر عن الخليفة الفائز وموضوعه تعيين الصالح طلائع بن رزيك وزيرا له فقد أكثر فيه من تناص الآيات الكريمة ومنها:

ذلك"فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو فضل عظيم " وهذا تناص مع الآية الكريمة ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾(1)، "يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم، والله متمّ نوره ولو كره الكافرون " وهذا تناص مع الآية الكريمة ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾(2)، "وجعله خير رسول على خير أمة أخرجت للناس" وهذا تناص مع الآية الكريمة ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾(3).

ومن نص توقيع على طرة السجلّ صادر عن الخليفة العاضد يقضي بتعيين صلاح الدين وزيرا له، وكاتب هذا التوقيع هو الخليفة العاضد نفسه حيث يقول:

وخُذ كتاب أمير المؤمنين بيمينك " وهذا تناص مع الآية الكريمة ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ﴾(4)، ولمن مضى بجدنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أحسن أسوة" وهذا تناص مع الآية الكريمة ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾(5).

ب. تناص الحديث النبوي الشريف.

لا يختلف تناص الحديث عند كتّاب ديوان الإنشاء الفاطمي عن تناص آيات القرآن، إلا أن تناص الحديث لم يكن عندهم بالكثرة التي وجدت في الآيات، وكان تناصهم للأحاديث التي تتفق مع دعوتهم الفاطمية:

ومنها نسخة تقليد في رسم ما يكتب للوزير عند تعيينه للكاتب علي بن خلف حيث يقول:

---

(1) سورة الجمعة،الآية 4. انظر السجل في مجموعة الوثائق الفاطمية للشيال، ص301-310.

(2) سورة الصف، الآية 8.

(3) سورة آل عمران ، الآية 110.

(4) سورة الحاقة، الآية 19. انظر نص التوقيع في مجموعة الوثائق الفاطمية للشيال، ص355.

(5) سورة الأحزاب، الآية 21.

"ومن قول النبي عليه السلام لابن عمه علي أنت مني كهار ون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي " هذا تناص من حديث رسول الله "أنت مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي"(1).

وفي سجلّ إعلان وفاة الخليفة المستعلي وولاية الآمر مكانه صادر عن أمير المؤمنين أبي علي الآمر بأحكام الله إلى كافة أولياء الدولة وكاتب هذا السجلّ ابن الصيرفي حيث يقول فيه:

"من عبد الله ووليه أبي علي الآمر بأحكام الله أمير المؤمنين إلى كافة أولياء الدولة........ أحمرهم وأسودهم" وهذا تناص مع الحديث الشريف :"بُعِثتُ إلى الأحمر والأسود"(2) أي العرب والعجم.

وفي سجلّ صادر عن الخليفة الآمر بأحكام الله وموضوعه تبرير أحقية المستعلي –والد الآمر- في الخلافة وإثبات عدم أحقية أخيه نزار لها:

"وذلك أن مولانا المستنصر بالله من دوره بمنزلة سليمان من دور بني إسرائيل" وهو المشار إليه بسليمان وقد قال النبي "كائن من أمتي ما كان في بني إسرائيل حذو النعل بالنعل والقذّة بالقذّة"(3).

وفي سجلّ بيعة إعلان خلافة الحافظ لدين الله بعد وفاة ابن عمه الآمر بأحكام الله وطلب البيعة له وكاتبه ابن الصيرفي:

" وجعله" خليفة على كافة الناس بعد وفاته؛ وتحمّل بأمر الله فيما ولاّه وأولاه وخطب الناس في حجة الوداع فقال: "من كنت مولاه فعلي مولاه"(4).

---

(1) الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح الجامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي، ط 2، 1406هـ، 1986، بيروت، ص 311، رقم 1484. انظر نسخة التقليد في صبح الاعشى للقلقشندي، ج10، ص397-402.

(2) مصنف ابن أبي شيبة، كتاب الفضائل، حديث رقم 5.انظر سجل الوفاة في الإشارة لمن نال الوزارة، لابن الصيرفي، ص13-15.

(3) مصنف ابن أبي شيبة، كتاب الفتن، حديث رقم 279. والقذة: ريش السهم؛ انظر السجل في مجموعة الوثائق الفاطمية للشيال، ص212-229.

(4) ابن ماجة، باب فضل علي بن أبي طالب، حديث رقم 121؛ انظر سجل البيعة، مجموعة الوثائق الفاطمية للشيال، ص244-251.

ج. تناص الموروث الديني المذهبي:

ونراه ذلك بوضوح في السجل الذي كتبه على الأرجح ابن الصيرفي الموسـوم بالهداية الآمرية في إبطال الدعوى النزارية، وموضوعه تبرير أحقية المستعلي - والد الآمر - في الخلافة وإثبات عدم أحقية أخيه نزار لها. وصادرة عـن الخليفـة الآمر بأحكام الله.

وهذه أمور جلية لا يكابر فيها إلا من يجحد العيان و يدفع البرهان، وإلـى هـذا أشار الله تعالى بقوله: "واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سـليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين"(1).

"وذلك أن مولانا المستنصر بالله من دوره منزلة سليمان من دور بني إسـرائيل فهو المشار إليه بسليمان، وقد قال النبي صلى الله عليه و سلم -: "كائن في أمتي ما كان في بني إسرائيل حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة" فسليمان هذه الأمة هو مولانـا المستنصر بالله لأنه واقع في الرتبة و العدد من أئمة دوره موقع سليمان في الرتبـة والعدد من أئمة دوره، وأيضاً فإنه أوتي ملكا لم يؤت مثله أحد مـن آبـاءه طـولا وتمكينا كما أوتي سليمان، وسخرت له الريح والشياطين كمـا سـخرت لسـليمان، فتسخير الريح تأييده في كل مقام، وتسخير الشياطين له انقياد المارقين له والمخالفين لأمره ونهيه، وقوله: "وما كفر سليمان" أي ما كفر مولانا المستنصر بالله ولا جحـد حقيقة علمه في معنى الإمام من بعدي، بل عقد الإمامة لمولانا المستنصر بالله فـي يوم النكاح على رؤوس الأشهاد. وكفر بذلك من اتبع الهوى و آثر الدنيا، إذ كانت الخلافة والإمامة محل المنافسة وباعث الحسد و لهذا قال سبحانه: "ولكن الشـياطين كفروا" أي هؤلاء الذين شطئوا عن الحق وبالغوا في الحيلة فضلوا وأضلوا.

ويمضي كاتب السجل في المقارنة بين المستنصر و سليمان عليه السلام، فيقارن بما حدث أيضاً بين ما حدث بين ولدي المستنصر : المستعلي ونزار، وما حدث بين ولدي سليمان "رحبون" و"يربعون"(2) ومما يعضد هذا التأويل ما ورد في أسفار بني

---

(1) سورة البقرة، الآية: 102.

(2) رحبعون هو "رحبعام" و"يربعون" وهما ابنا سليمان عليه السلام وقد خلف رحبعون أباه على عرش إسرائيل حوالي 935 ق.م، وما أن تولى الحكم حتى ثارت أسباط بني إسرائيل عليه،

إسرائيل من أن سليمان نص بالإمامة على ولده رحبون ، كما نص مولانا المستنصر بالله على مولانا المستعلي بالله فحسده المسمى يربعون فخرج عليه واتبعه جماعة ممن أضلهم بمكره و استهواهم بسحره، وغيرلهم نصوص الدين ، وأزالهم عن الصراط الواضح المبين كما فعل نزار في خروجه على مولانا المستعلي بالله ، وكانت الدائرة على يربعون و أصحابه، كما كانت الدائرة على نزار وأصحابه وكانت العاقبة لابن سليمان صاحب الحق كما كانت العاقبة لمولانا المستعلي بالله - أمير المؤمنين - فإن الله في طاعتها، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

6.4 المحسنات البلاغية والبيانية:

1.6.4 الجناس:

وهو من المحسنات البديعية وهو كلمتان اتفقتا لفظا واختلفتا معنى . وهو نوعان:

أ. **تام**: وهو ما اتفق فيه متماثلان عدد حروف، وترتيب حروف، ونوع حروف، وحركة حروف.

ب. **ناقص**: وهو ما اختلف فيه المتماثلان عدد حروف أو ترتيب حروف، أو نوع حروف، أو حركة حروف[1].

ويرى ابن الأثير أن الجناس سبعة أقسام، واحد فقط يدل على حقيقة التجنيس والباقي مشبهة، فالقسم الحقيقي ما تساوت حروف ألفاظه في تركيبها ووزنها وحد التجنيس عنده اتفاق اللفظ واختلاف المعنى[2].

نتيجة للضغط والضيق والإرهاق الذي عانته أيام سليمان؛ و قد بايعت الأسباط الثائرة يربعام و كان عائدا من مصر في هذا الوقت، ولم يبق على الولاء لرحبعام إلا سبط يهوذا الذي يقطن في الجنوب، وهكذا حدث الانقسام في بني إسرائيل وظهرت مملكتان إسرائيل شمالاً ، ومملكة يهوذا جنوباً انظر الشيال مجموعة الوثائق الفاطمية، ص66. نقلاً عن العهد القديم سفر الملوك الأول إصحاح 12، 13.

(1) محمد سعيد إسبر ورفيقه، معجم الشامل في اللغة العربية ومصطلحاتها، ط 2، دار العودة، بيروت، 1985، ص409، 410.

(2) انظر ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص380، 385.

وقد برزت هذه السمة في أغلب المكاتبات الصادرة عن ديوان الإنشاء في العصر الفاطمي.

وفي سجلّ بيعة إعلان خلافة الحافظ لدين الله بعد وفاة ابن عمه الآمر بأحكام الله وطلب البيعة له وهو صادر عن الخليفة الحافظ لدين الله إلى كافة أهل الدولة وكاتبه ابن الصيرفي:

"........ الذين حكموا **فأقسطوا**، وما **قسطوا**، .... ثم **حلّه** أمير المؤمنين **محلّ** نفسه في الجلوس على الأسمطة، ودلّت سيرته الفاضلة على أنه قد عمر ما **بين** الله **وبينه**، .... وبالكافة رؤوفا **رفيقا**، وعلى الرعايا عطوفا **شفيقا** .... إلى كافة أهل الدولة **شريفهم ومشروفهم، وأميرهم ومأمورهم**، .... وفي مصالح البريّة **ساعيا**، وإلى سبل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة **داعيا**، ...... إلى أن **لمعت** آيات الحق **وسطعت، وانحسمت** مادة الباطل **وانقطعت**، .... وكان له حينئذ عم **حاضر**، وأمضى ما أمر به والإسلام يومئذ غض وعوده **ناضر**، ونقش اسمه في **السكّة**، وأمر بالدعاء له على المنابر **وبمكّة**، ...... وإنما تحت ذلك معنى لطيف **غامض**، وسر عن جمهور الناس مستتر وبرقه لأولي البصائر **وامض**"(1).

وفي سجلّ بيعة إعلان البيعة لولي عهد بعد موت العاهد صادرة عن الظافر بأمر الله بن الحافظ لدين الله وكاتب هذا السجلّ أبو الحجّاج يوسف بن محمد بن الخلاّل:

"..... الذي لا **يغير** ملكه مرور **الغير**، ولا **يصرف** سلطانه **تصرّف** القدر ..... وحكمة تامة حتى **يرث** الله الأرض ومن عليها وهو خير **الوارثين** ..... بل **أجّل** لكل منهم **أجلا** مكتوبا، ...... أوضح بآبائه الأئمة سبل **الحقائق**، فأصبحوا خلفاء الخالق وأئمة **الخلائق** .... الذي فضّ بجهاده جموع **الإلحاد** وحصد باجتهاده من مال عن الهدى **وحاد**، وصدع به ما أمر به حتى عمّ **التوحيد** ودانت لمعجزاته الأمم وقد دعاها وهو المفرد **الوحيد** ..... وقدوة **السعداء** وسيد

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج9، ص300-307.

الشهداء، .... وعاضد الدين بذي **الفقار**، ومن لم يزل الحق إلى ذبّه شديد **الافتقار**"[(1)].

وفي تقليد تعيين وزير لعلي بن خلف:

"المانّ على عباده بأن جعلهم بالتوازر **إخوانا**، وبالتظافر **أعوانا**، ...... مفاتيح **الحقائق** ومصابيح **الخلائق**، ...... وأولى الناس باتّخاذ الوزراء واستخلاص الظهراء، من جعله الله تعالى إلى حقّه **داعيا** ولخلقه **راعيا**، ...... لنص ذلك بتطرق **الخلل** ودخول الوهن **والشلل**، .....والخبرة بمجاري **الأعمال**، وأبواب **الأموال**، .... جامعا بين الأبوة **والاختصاص** والطاعة **والإخلاص** ...... مؤمّنا للمظلوم **الخائف**، مخيفا للظالم **الحائف**، مذكّرا **بإحسان المحسنين** .... وأن تطالع أمير المؤمنين بذرّه **وجلّه** وعقد أمرك **وحلّه**"[(2)].

وهذا توقيع بخط الخليفة العاضد على طره الصادر بتعيين صلاح الدين وزيرا له، وكاتب التوقيع هو نفسه الخليفة العاضد:

"هذا عهد أمير المؤمنين **إليك** وحجّته عند الله تعالى **عليك**، فأوف بعهدك **ويمينك**، وخذ كتاب أمير المؤمنين **بيمينك**، ولمن مضى بجدّنا رسول الله –صلى الله عليه وسلم- أحسن **أسوة**، ولمن بقي بقربنا **سلوة**"[(3)].

2.6.4 السجع:

وعرّف ابن الأثير السجع بأنه تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحد وقد امتدحه وعاب من يذمّه، وعدّ ذلك عجزاً عن الإتيان به[(4)].

ويشترط ابن الأثير في السجع أن تكون ألفاظه حلوة حارّة طنّانة رنّانة، لا غاثّة ولا باردة[(5)]، وقد اتفق القزويني مع ابن الأثير في تعريف السجع حيث قال : إن

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج9، ص 296-300.

(2) المصدر السابق، ج10، ص397-402.

(3) المصدر السابق، ج9، ص427-428.

(4) ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج1، ص308.

(5) المصدر السابق، ص313.

السجع تواطؤ الفاصلتين في النثر على حرف واحد [1]، ويرى القلقشندي أن السجع مشتقّ من الساجع، وهو المستقيم لاستقامته في الكلام واستواء أوزانه، قيل من سجع الحمامة، وهو ترجيعها الصوت على حدّ واحد[2].

فلقد كان كتّاب ديوان الإنشاء الفاطمي يولعون باستخدام السجع، ونرى الكتّاب جميعا التزموا السجع في كتاباتهم، حيث نجد هذه الخصلة منذ ابتداء الدولة الفاطمية إلى أن قوّض صلاح الدين أركانها نراها في رسالة المعز لدين الله إلى القرمطي[3]، وفي رسالة العزيز بالله إلى عاضد الدولة البويهي وهذه الرسالة كانت من إنشاء يعقوب بن كلس[4] وفي السجلاّت الكثيرة التي كُتِبت في عهد الحاكم [5]، وفي كتابات ابن خيران وابن الصيرفي وابن الشخباء ثم في رسائل القاضي الفاضل.

وفي سجلّ العهد الذي كتبه القاضي الفاضل وهو صادر عن الخليفة العاضد إلى وزيره أسد الدين شيركوه، نرى السجع سمة بارزة في هذا السجلّ حيث يقول:

"إلى السيد الأجلّ، الملك المنصور، سلطان الجيوش، أسد **الدين**، كافل قضاة **المسلمين**، وهادي دعاة **المؤمنين**، وأمتع بطول بقائه أمير **المؤمنين**، وأدام **قدرته**، وأعلى **كلمته**، ويسأله أن يصلي على سيدنا محمد خاتم **النبيين**، وسيد **المرسلين**، صلى الله عليه وعلى آله **الطاهرين**، الأئمة **المهديين ......** وإذا عدّد أمير المؤمنين هذه النعم **الجسيمة**، والمنح **الكريمة**، واللطائف **العظيمة**، والعوارف **العميمة**، والآيات **المعلومة**، والكفايات **المحتومة**، والعادات **المنظومة**، وكنت أنت أيها السيد الأجلّ –أدام الله **قدرتك**، وأعلى **كلمتك-** أعظم نعم الله **أثرا**، وأعلاها **خطرا**، وأقضاها للأمة **وطرا**"[6].

---

(1) القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص325.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، ص302.

(3) المقريزي، اتعاظ الحنفاء في أخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج1، ص251.

(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج4، ص124.

(5) المقريزي، الخطط المقريزية، ج3، 33.

(6) القلقشندي، صبح الأعشى، ج10، ص80-92.

وهذا سجلّ تقليد تعيين أبي القاسم أحمد الجرجرائي وزيرا للخليفة الظاهر وكاتبه ولي الدولة أبو علي بن خيران وقد أكثر فيه من استخدام السجع حيث يقول:

"أما بعد، فالحمد لله مطلق الألسنة **بذكره**، ومجزل النعم **بشكره**، ومصرّف الأمور على حكم إرادته **وأمره**، الذي استحمد بالطول **والنعماء**، وتمجد بالحكمة **والسناء**، وملك ملكوت الأرض **والسماء**، واستغنى عن الظهراء **والوزراء**، وأكرم عباده بأن جعل تذكرة لهم في صحف **مكرّمة**، مرفوعة **مطهّرة**، بأيدي **سفرة** كرام **برره**، فسبحان من نظر لخلقه فأحسن **وأنعم**، وعلّم **بالقلم**، علّم الإنسان ما لم **يعلم**"(1).

وفي السجلّ الذي كتبه ابن الصيرفي وهو صادر عن الخليفة الآمر بأحكام الله إلى والٍ من ولاة الأقاليم في تجديد ولايته حيث يقول:

"أما بعد، فالحمد لله مولى المنائح من **نعمه**، ومجز العطايا من مواهبه **وقِسَمِه**، ومعوِّد الصنع الجميل من لطفه **وكرمه**، الذي له الحكم الظاهر **عدله**، ولديه الطول الفائض **فضله**، وعنده مفاتح الغيب وإليه يرجع الأمر **كله**.

يحمده أمير المؤمنين على ما أ فرده من سَنِيِّ **المواهب**، ونظمه له من عقود **المناقب**، ونقله غيله من تراث آبائه الكرام الذين جلا ضياؤهم ظلام **الغياهب**، وتزينت بهم الأرض تزين السماء الدنيا بزينة **الكواكب**، ويسأله أن يصلي على جده محمد الذي نشر به **الرحمة**، وكشف **الغمة**، وأنقذ **الأمة** صلى الله عليه وعل ى أخيه وابن عمه علي بن أبي طالب، أمير المؤمنين المذكور في زُبُر **الأولين**، وعلى الصفوة من ذريتهما الهداة **الراشدين**، صلاة باقية إلى يوم **الدين**"(2).

وهذه نسخة ولاية العهد أوردها علي بن خلف في مواد البيان:

"الحمد لله معزّ دينه بخلفائه **الراشدين** ومرتّب حقه بأوليائ ه **الهادين**، الذي اختار دين الإسلام لصفوته من **بريته**، وخص به من استخلصه من أهل **طاعته**، وجعله حبله **المتين**، ودينه الذي أظهره على كل **دين**، وسبيله **الأفسح**، وطريقه **الأوضح**، وابتعث به نبيه –محمد صلى الله عليه وسلم- فصدع **بأمره**، وأعلن **بذكره**،

(1) ابن الصيرفي : القانون في ديوان الرسائل والإشارة لمن نال الوزارة ، ص 13.

(2) القلقشندي ، صبح الأعشى ،ج8 ص 242-243.

والناس في فترة **الضلالة**، وغمرة **الجهالة**، فلما أنجز في نصره **حقه**، وتأييده لسعداء **خلقه**، قبضه إليه محمود **الأثر**، طيب **الخبر**، وقام بخلافته من انتخبه من طهره **عترته**، وأودعهم **حكمته**، وكفّلهم **شريعته**، فاقتفوا **سبيله**، وابتعوا **دليله**، كلما قبض منهم سلفا إلى مقر **مجده**، اصطفى خَلَفا للإمامة من **بعده**"[(1)].

3.6.4 الطباق:

وهو الجمع بين ضدين مختلفين كالإيراد والإصدار، والليل والنهار، والسواد والبياض[(2)]. ويرى القزويني أن الطباق هو الجمع بين المتضادين، أي معنيين متقابلين في الجملة، ويكون ذلك إما لفظين من نوع واحد :اسمين أو فعلين [(3)]. والطباق في الكلام يكسبه الوضوح من خلال ذكر المعنى وضده [(4)]، وقلما نجد في المكاتبات التي صدرت عن ديوان الإنشاء الفاطمي رسالةً أو سجلاً أو تقليداً..... الخ تخلو من أسلوب الطباق.

فالسجلّ الذي كتبه القاضي الفاضل الصادر عن الخليفة العاضد إلى وزيره أسد الدين شيركوه قد حوى كثيرا من الطباق.

"........ والإظهار الذي اشترك فيه جنود **السماء والأرض**، والإظفار الذي عقد الله منه **عقداً** لا تدخل إليه أحكام **النقض**، .... وكنت **البعيد القريب**، **المحجوب النافذ** بحجته المذعورة أعداء أمير المؤمنين، ..... **ومقدَّم** في النيّة وإن كنت في الزمان **المؤخر** ...... وأبناء جلاد يشترون **الجنة** بعزائم **كالنار** ..... وكافة رعايا الحضرة **بعيدها ودانيها**، وسائر أعمال الدول **باديها وخافيها** ؛ ......

---

(1) القلقشندي ، صبح الأعشى ،ج9 ، ص386-389 نقلاً عن علي بن خلف ، مواد البيان.

(2) الشهاب، محمود الحلبي، شاب الدين محمود، حسن التوسل إلى صناعة الترسل، تحقيق ودراسة أكرم عثمان يوسف، دار الرشيد، بغداد، 1980، ص199.

(3) القزويني، جلال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن (379هـ/1338م)، الإيضاح في علوم البلاغة، قدم له وبوّبه وشرحه علي بو ملحم، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط 2، 1991، ص287.

(4) الصفدي، خليل أيبك، أعيان العصر ،ج329/4.

وناط بك **العقد والحل، والولاية والعزل، والمنع والبذل، والرفع والخفض، والبسط والقبض، والإبرام والنقض، والتنبيه والغض، والإنعام والانتقام** ، ..... واعتمد **أحمرهم وأسودهم، وأقربهم وأبعدهم، وفارسهم وراجلهم، ورامهحم ونابلهم** ، ..... وبدّلهم من بعد **خوفهم أمناً** .... وسطوة الله تعالى التي يمضيها في **شرّ** العباد على **خير** العباد، ...... فاطلب أعداء الله **برّاً وبحراً**، واجلب عليهم **سهلاً ووعراً**"(1).

وهذا منشور أصدره الآمر ويرجح جمال الدين الشيّال أن الذي كتبه هو أبو الحسن علي بن أبي أسامة، وعلى الرغم من قصره لكنه حوى أسلوب الطباق حيث يقول:

"يعتمد في ديوان التحقيق والمجلس وسائر دواوين الدولة – **قاصيها ودانيها، وقريبها ونائيها**- بإمضاء ما كان السيد الأجلّ الأفضل قرّره وخرجت به توقيعاته الثابتة عليها علاماته في الأحكام والأموال"(2).

وهذه بيعة صادرة عن الحافظ لدين الله إلى كافة أهل الدولة وكاتبها ابن الصيرفي قد حوت كثيرا من الطباق:

"من عبد الله ووليه عبد المجيد أبي الميمون، الحافظ لدين الله أمير المؤمنين إلى كافة أهل الدولة **شريفهم ومشروفهم، وأميرهم ومأمورهم، وكبيرهم وصغيرهم، وأحمرهم وأسودهم**، ...... إلى أن **لمعت** آيات **الحق، وانحسمت** مادة **الباطل**، .... الذين حكموا **فأقسطوا** وما **قسطوا**، ..... واقتفوا آثارهم في السياسة فما **قصّروا** ولا **فرّطوا** ..... والأرض إذا **أظلمت** لفقد إمام **أضاءت وأشرقت** لقيام إمام ..... ولم يزل ناظرا في **البعيد والقريب**، ...... وقد كان يذكر ما يعلمه من حق أمير المؤمنين تارة **مجاهراً** وتارة **مخافتاً** ..... فتساوى **الخاص والعام** في معرفته، .... فأربى على **الأواخر والأوائل** ...... ويفتح لأمير المؤمنين **مشارق** الأرض **مغاربها**"(3).

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج10، ص80-90.

(2) جمال الدين الشيّال، مجموعة الوثائق الفاطمية، ص154.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج10، ص300-307.

وفي سجلّ تقليد وتعيين أبي القاسم على بن أحمد الجرجرائي وهو صادر عن أبي الحسن علي الظاهر لإعزاز دين الله وكاتبه ولي الدولة أبو علي بن خيران:

"..... وملك ملكوت **الأرض والسماء .....** ونفاذ **النهي والأمر .....** الرجال **كبيرها وصغيرها ......** ويبقى رسمه على مر **الليالي والنهار .....** وسائر عبيده ورعيته **شرقاً وغرباً، وبعداً وقرباً ......** للتوقيع عن أمير المؤمنين في **الإخراج والإنفاق، والإيجاب والإطلاق** ، وأناط بك أزمة **الحل والعقد والإبرام والنقض والقبض والبسط، والإثبات والحط، والتصريف والصرف ......** لرجال دولته **دانيهم وقاصيهم .....** قولا يؤثر عنده في **المشرق والمغرب ....** ويصل إلى **الأبعد والأقرب"**[1]**.**

(1) جمال الدين الشيّال، مجموعة الوثائق الفاطمية، ص287-292.

الفصل الخامس

مشاهير كتاب ديوان الإنشاء الفاطمي

1.5 ابن خيران (ت431هـ/1039)

أحمد بن علي ،أبو محمد ، ولي الدولة المصري المعروف بابن خيران الكاتب وله ديوان شعر (1) وولي ديوان الإنشاء بعد أبيه في عهد الخليفة الظاهر (2) وذكر المقريزي أن ابن خيران كان والياً لديوان الإنشاء في سنة (1023/414)، وقد ظل ابن خيران متولياً الديوان في أوائل عهد المستنصر، فقد أورد المقريزي توقيعاً للمستنصر كتبه ابن خيران (3) وقد جاء في (ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق، أن المستنصر بالله خلع على وزيره أبي محمد اليازوري في الرابع من ذي القعدة سنه(443هـ/1051) خلع الوزارة "وكتب له سجل التقليد بإنشاء ولي الدولة أبي علي بن خيران"(4).

ولا نعرف شيئاً عن أبيه سوى ما يرويه ياقوت : "كان أبوه أيضاً فاضلاً، بليغاً أعظم قدراً من ابنه وأكثر علماً"(5)، وكذلك لا نعرف متى ولي والده ديوان الإنشاء، ومتى ولي الا بن بعده، ولكن المقريزي ذكر في الخطط أن أبا الحسن عمار بن محمد – وكان يلي ديوان الإنشاء واستوزره الحاكم، وهو الذي تولى البيعة للظاهر - قتل في ربيع الأول سنة اثنتي عشرة وأربعمائة، فاستوزره بعده بدر الدولة أبا الفتوح موسى بن الحسين، وكان يتولى الشرطة، ثم ولي ديوان الإنشاء بعد ابن خيران(6) ونظن أن ابن خيران المذكور في نص المقريزي يختلف عن نص ياقوت،

---

(1) انظر، إسماعيل باشا، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثارهم المصنفين من كشف الظنون ج5، ص75.

(2) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج4، ص5.

(3) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج2، ص167.

(4) المصدر السابق، ص238.

(5) ياقوت معجم الأدباء، ج4، ص5.

(6) المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج2، ص167.

إذ يذهب ياقوت إلى أن الابن حلَّ محل أبيه في ديوان الإنشاء، على حين يرى المقريزي أن أبا الفتوح موسى بن الحسين هو الذي ولي الديوان بعد ابن خيران، ولقلة المصادر التي بين أيدينا لا نستطيع أن نرجح أيًّاً من هذه الآراء.

ومهما يكن من شيء، فإن ولي الدولة ابن خيران تقلد ديوان الإنشاء، للظاهر ثم للمستنصر، وفي سنه (1023/414) قرر الشريف الكبير العجميُ والشيخ نجيب الدولة، الجرجائي والشيخ العميد محسن بن بدوس مع القائد معضاد ألاَّ يدخل على الظاهر أحدٌ غيرهم، وكانوا يدخلون كل يوم خلوة ويخرجون فيتصرفون في سائر أمور الدولة، والظاهر مشغول بلذاته، وصار شمس الملوك مظفر صاحب المظلة [1]، وابن خيران صاحب الإنشاء، وداعي الدعاة ونقيب نقباء الطالبين وقاضي القضاة، ربما دخلوا على الظاهر في كل عشرين يوماً مرة ومن عداهم لا يصل إلى الظاهر ألبته [2] ويتضح من ذلك أن ولي الدولة ابن خيران صاحب ديوان الإنشاء في سنة (414هـ/1023)؛ ويقول ابن خلكان عن الشاعر أبي الحسن علي بن أحمد بن نوبخت أنه توفي بمصر في شعبان سنه ست عشرة وأربعمائة وهو على حاله من الضرورة وشدة الفاقه، وكفله ولي الدولة أبو محمد أحمد بن علي المعروف بابن خيران الكاتب الشاعر، ونفهم من هذا النص أن ابن خيران كان في ديوان الإنشاء سنه (416هـ/1025) وقد وقع ابن خيران عن الخليفة المستنصر هذا التوقيع "الفقر مر المذاق، والحاجة تذل الأعناق، وحراسة النعم بإدرار الأرزاق، فليجروا رسومهم في الإطلاق، ما عندكم ينفد وما عند الله باق"[3] ومنه ندرك أن ابن خيران صاحب ديوان الرسائل في أواخر عهد الظاهر وفي عهد المستنصر أيضاً، وقد ذكر ياقوت أن رزقه كان في كل سنة ثلاثة آلاف دينار، وله عن كل ما يكتبه من السجلات والعهودات، وكتب التقليدات رسوم يستوفيها من كل شيء بحسبه، وكان شاباً حسن الوجه، جميل المروءة، واسع النعمة، طويل اللسان، جيد العارضة، وسلم إلى منصور بن الشيرازي رسول أبي كاليجار إلى مصر

---

(1)صاحب المظلة : عبارة عن قبة على هيئة خيمة تعلو رأس عمود تحمل فوق رأس الخليفة عند ركوبه في الاحتفالات ولها مكانة جليلة لعلوها رأس الخليفة، لذلك كان حاملها من أكابر الأمراء، "إبراهيم أيوب، التاريخ الفاطمي السياسي"، ص109.

(2) المقريزي؛ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار،ج2، ص168.

(3) المصدر السابق، ص238.

من بغداد مجلدين من شعره ورسائله، واستصحبهما إلى بغداد ليعرضهما على الشريف المرتضى أبي القائم وغيره ممن يأنس به من رؤساء البلد، ويستشيره في تخليدهما دار العلم لينفذ بقية الديوان والرسائل إن علم أن ما أنفذه منهما ارتضى واستجيد[1].

وعلى الرغم من فقدان شعره، فلم يبق منه إلاَّ عدة مقطوعات قصيرة نستدل منها أن ابن خيران كان معجباً بنفسه، ويكثر الإشادة بشعره ونثره حيث يقول:.

ولقد سموت على الأنام بخاطر الله أجرى منه بحراً زاخراَ
فإذا نظمت نظمتُ روضا حاليا وإذا نثرت نثرت درا فاخرا [2]

ويقول:

خلقت يدي للمكرمات ومنطقي للمعجزات ومفرقي للتاج
وسموت للعلياء أطلب غاية يشقى بها الغاوي ويحظر الراجي [3]

ويقول أيضاً:

قد علم السيف وحد القنا أن لساني منهما أقطعُ
والقلم الأشرف لي شاهدٌ بأنني فارسه المصقعُ [4]

ونستدل من هذه الأبيات أن ابن خيران قد فتن بشعره ونثره إلى درجة أن وصف نفسه بأن منطقه يأتي بالمعجزات، وإعجابه بنفسه لم يكن في الشعر أو في النثر، بل إن حياته كان يسيطر عليها هذا التيه والإعجاب، حيث يورد ياقوت هذه القصة عنه : كان ابن خيران قد خرج إلى الجيزة متنزهاً ومعه من أصحابه المتقدمين في الأدب والشعر والكتابة، وقد احتفوا به يميناً وشمالاً، فأدى بهم السير إلى مخاضة مخوفة، فلما رأى إحجام الجماعة من الفرسان عنها، وظهور جزعهم منها، قنَّع بغلبته، فولجها حتى قطعها، وانثنى قائلاً مرتجلاً:

ومخاضة يلقى الردى من خاضها كنت الغداة إلى العدا خواضها
وبذلت نفسي في مهاول خوضها حتى تنال من العدا أغراضها [5]

---

(1) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج4، ص5.
(2) المصدر السابق، ج2، ص8.
(3) المصدر السابق، ج4، ص10.
(4) المصدر السابق، ج4، ص12.
(5) المصدر السابق، ج4، ص6.

2.5 ابن الشخباء العسقلاني (ت482هـ):

هو الشيخ المجيد أبو علي الحسين بن عبد الصمد بن أبي الشخباء العسقلاني صاحب الخطب المشهور، والرسائل المحبرَّة، كان من فرسان النثر، وله فيه اليد الطولى، ويقال :إن القاضي الفاضل- رحمه الله – كان جلَّ اعتماده على حفظ كلامه وأنه كان يستحضر أكثره [1]. وكانت وفاته –رحمه الله –مقتولاً بخزانة البنود - وهي سجن بمصر – سنة ثلين وثمانين وأربعمائة [2] وكان ابن الشخباء يلقب بالمجيد، ذي الفضيلتين (الشعر والنثر) أحد البلغاء الفصحاء، الا شعراء، له رسائل مدونه مشهورة قيل أن القاضي الفاضل منها استمد وبها اعتدَّ... كتب في ديوان الرسائل للمستنصر صاحب مصر لأن في رسائله جوابات إلى الساسيري، إلاَّ أن أكثر رسائله إخوانيات وما كتبه عن نفسه إلى أصدقائه ووزراء أمراء زمانه[3].

وذكره العماد الأصبهاني في الخريدة فقال: " المجيد مجيد كنعته قادر على ابتداع الكلام ونحته له الخطب البديعة والملح الصنَّعِة[4].

ومن خلال كتابات ابن الشخباء السابقة، والنص التالي الذي بين أيدنيا نلمح الخصائص الفنية التي امتاز بها ابن الشخباء:

يقول ابن الشخباء في رسالة يهنئ فيها بـ هزيمة أتْسِزْ بن أوق الغـزّى الذي خرج في الشام وقد كتب بها سنه تسع وستين وأربعمائة[5]:

" قد ارتفع الخلاف بين الكافة أن الله ذَخَرَ للدولة الفاطمية- ثبت الله أركانها- من الحضرة العلية المنصورة الجيوشيه - خلّد الله سلطانها – من حمى سوادها ونصر أعلامها، وضمَّ نشرْها وحفظ سريرها ومنبرها، بعد أن كان الأعداء – الذين أد تضعوا درَّ إنعامها وتوسمَّوا بشرف أيامها، فطردت يد الاصطناع إملاقهم وأثقلت قلائد الإحسان أعناقهم –رفضوا ذمم الولاء وكفروا سوابغ الآلاء، ففاجأتهم الحوادث

---

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص133.

(2) ابن بسام، الذخيرة: القسم الرابع، مكتبة جامعة القاهرة، ورقه 183.

(3) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج9، ص152.

(4) العماد الأصبهاني: الخريده: الجزء الخاص بشعراء مصر وفلسطين ورقة 14.

(5) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج9 ،ص164.

من كل طريق، ونبعبهم غراب الشتات والتفريق و استباحهم يد الشدائد، وأتـــى الله بنيانهم من القواعد، ولم تزل النفوس منذ طرق " أتسز" اللعين هذه البلاد وأنجم فيها أنجم الفساد، وتعدَّى حدود الله وكلماته، وتعرَّض لمساخطته ونقماته، عالمـــة بـــأن إملاء الحضرة العلية مدَّ الله ظلها على الكافة لم يكن عن استعمال رخ صه فـــي هذه الحال، ولا سكون إلى عوارض من الإغفال والإهمال، بل هو أمرُ رُكِّب فيـــه متن التدبير، وجرت بمثله المقادير، وأتبع فيه قوله تعالى:.

﴿وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾(1) في حـــين خدعته المطالع المرْديه، إلى الأعمال القاهرة، مؤملاً انفصام عـــروة الله المتينـــة، وأقول ما توقَّد من شجرة مباركة زيتونه ...... والله والمحمود على مامنح من هـــذه النعمة و المسؤول أن نشيد د ببقاء الحضرة العلية قواعد الإسلام ويتســم بمحاورهـــا إغفال الأيام، ويستخدم لها السيوف والأقلام، حتى لا يبقـــى علـــى وجَـــه الأرض مفحص قطاةَ إلا وقد دوَّخها سنابك خيولها، ولا مسقط نواة إلاَّ وقـــد ركـــزت فيـــه صدور رماحها و نصولها ، فقد دفعت .... خطباً جسمياً واستلقحت من السياسة أمراً عقيماً، وأعادت شمل الأمة ملوماً نظيماً ذلك فضل الله يؤتية من يشاء".

ويتضح مما سبق من هذه الرسالة من فن ابن الشخباء قي الكتابة أنه استخدم معظم الخصائصلفلية المصرية في الكتابة من الســـج ع، واســـتخدام التشـــخيص والتصوير ومراعاة النظير، والاقتباس من القرآن الكريم ، وهذه عناصر أساسية في فن القاضي الفاضل .

وليس ذلك كل ما نجده عند ابن الشخباء من عناصر استمد منهـــا القاضـــي الفاضل.

فهناك عناصر أخرى منها تصنعه لمصطلحات العلوم كقوله في مطلـــع رســـالة بعض الوزراء وقد بلغه أن شخصاً هجاه عنده :" لو لم تقض الشريعة- أطـــال الله بقاء سيبزافض المقالة، عارية من البرهان والدلالة، لكان ذلك في الغر يزة راتباً

(1) سورة الحج آية رقم 44

وفي حكم العقول واجباً [1] فقد تصنّع هنا لذكر المقالة والبرهان والواجب وحكم العقول والدلالة، وكل ذلك يسوقه في خفة تجعلنا لا نلحظه.

ومن أمثله ذلك أيضاً:.

أنه استهل رسالة للأفضل بن بدر الجمالي بقوله :" خلَّد الله أيام الحضرة الأفضلية ما فضلت الأسماء حروفاً، وتقدمت واو العطف حروفاً، ولزمت الأفعال اشتقاقاً وتصريفاً [2] .

ولكن ابن الشخباء لم يعـ مم هذا في رسائله، بل هو يظهر فيها من حين إلى حين وهذه سنه الكتاب في الأقاليم المختلفة منهم لا يستمرون عند مذهب معين من مذاهب المشرق، بل هم دائماً يتقلبون بين الـ مذاهب والأذواق المختلفة، فـ بينما ترى الكاتب يكتب رسالة من ذوق أصحاب التصنع، إذ هو يكتب أخرى من ذوق أصحاب التصنيع، أو من ذوق أصحاب الصنعة وهذا ما نذهب إليه من أن الأقاليم العربية لم تستحدث مذهباً جديداً في تاريخ الأدب العربي لا نثره ولا شعره، فقد وقفت عند صورة المذاهب الثلاثة من الصنعة والتصنع، والتصنيع، وكل ما أضافته إلى هذه المذاهب هو التنقل بينها في غير نظام، وهي الظاهرة كما تتصل بابن الشخباء تتصل بجميع كتاب العصر الفاطمي المتأخر، فليس بينهم من استطاع أن يـ بتكر مذهباً جديداً أو طريقة جديدة، وإنما الجمو د عند المذاهب المسبوقة والطرق الموروثة"[3].

3.5 ابن الصيرفي (463هـ/542هـ-1071م/1147م):

هو للشيخ تاج الرياسة ،أبو القاسم ، علي بن منجب بن سليمان المعروف بابن الصيرفي الكاتب، ومولده في يوم السبت الثاني والعشرين من شعبان سنة (463هـ/1070) وكَانَ أبوه صيْرفياً وجده كاتباً، وأخذ صناعة الترسل عن ثقة الملك، أبي العلاء، صاعد بن مفرج، وتنقل حتى صار صاحب ديوان الجيش، ثم

(1) ابن بسام: الذخيرة، القسم الرابع ورقة 183.

(2) المصدر السابق، ورقة 189.

(3) شوقي ضيف: الفن ومذاهبه، ص 363.

انتقل معه إلى ديوان الإنشاء، ومات الشريف سناء الملك ، أبو محمد الزيدي الحسيني، فتفرد بالديوان فصار فيه بمفرده، وله الإنشاء البديع والشعر الرائع والتصانيف المفيدة في التاريخ والأدب[1].

وقد أراد الوزير الأفضل بن بدر الجمالي (487-515) أن يجعل ابن الصيرفي في ديوان الإنشاء، محل الشيخ ابن أبي أسامة، ولكن خواصه منعوه من ذلك[2] وبعد وفاة ابن أبي أسامة في سنة (1128/522) آلت رئاسة الديوان إلى ابنه أبي المكارم هبة الله، إلى أن توفي في صدر خلافة الحافظ لدين الله [3] فخلفه ابن الصيرفي في رئاسة الديوان إلى أن توفي سنة (1147/542).

وهكذا فقد أمضى ابن الصيرفي أكثر من خمسين عاماً متدرجاً في ديوان المكاتبات وديوان الإنشاء حتى تولى رئاسته في أيام الحافظ لدين الله، ومع ذلك فإن أغلب السجلات التي وصلت إلينا، من عهد الآمر بأحكام الله، أنشأها ابن الصيرفي وهو لم يزل كاتباً في الديوان، وهو الذي كتب سجل انتقال المستعلي وولاية الأمر سنة (1101/495)[4].

وأنشأ السجل الخاص بنقل الشمسية إلى العربية سنة (1107/501) وأمره الوزير البطائحي، في سنة (1124/518) بكتابة السجل المعروف "بالهداية الآمرية في إبطال الدعوة النزارية " الذي أقرت فيه أخت نزار أن والدها المستنصر بالله

---

(1) المقريزي، اتعاظ الحنفا في أخبار الأئمة الفاطمين الخلفاء، حوادث سنة (542هـ) ص141، وانظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج 15، ص79-81؛ ابن سعد، النجوم الزاهرة، 552-554؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ج 2، ص233؛ جمال الدين الشيال، مجموعة الوثائق الفاطمية، 50-51؛ محمد كامل حسين، في أدب مصر الفاطمية، ص 342-348؛ إسماعيل باشا البغدادي، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثارهم المصنفين من كشف الظنون، دار الفكر، بيروت، 1990، ج5، ص198.

(2) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج5، ص79.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 1، ص130، أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج7، ص337.

(4) المقريزي، اتعاظ الحنفا في أخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج 3، ص31؛ السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج1، ص604-607.

أوصى بالإمامة عند نقلته إلى ابنه المستعلي دون نزار [(1)] وأغلب الكتب الصادرة بالبشارة بالسلامة مركوب الخليفة في الاحتفالات الموكبية، والتي تمت في أغلب الظن أيام الآمر بأحكام الله، والحافظ لدين الله أنشأها ابن الصيرفي وهو ما زال كاتباً في ديوان المكاتبات[(2)].

وأول سجل أنشأه ابن الصيرفي يرجع إلى سنة (1101/495) وآخر سجل من إنشائه، وصل إلينا مؤرخ في سنة (1141/536) ومع ذلك فالأرجح أن ابن الصيرفي بقي على رئاسة ديوان الإنشاء حتى وفاته يوم الأحد عشرين من صفر مؤرخاً سنة (1147/542) وهو التاريخ الذي حدده ابن ميسر والمقريزي [(3)]، أما ياقوت الحموي والصفدي فقد جعلا وفاته في أيام الصالح طلائع بن رزيكٍ بعد سنة خمسين وخمسمائة[(4)].

وقد عاش ابن الصيرفي حياته كلها في عصر الدولة الفاطمية، وأنشأ رسائل عن خلفاء مصر تزيد على أربع مجلدات، وبقى لنا منها قدر قليل منشور في خطط المقريزي، وصبح الأعشى، وحسن المحاضرة .ورغم هذه القلة فإننا يمكن أن نرى فيها خصائص النثر الفاطمي، وعقائد الدولة الفاطمية، وعادات خلفائها[(5)].

ويُعدّ ابن الصيرفي أبلغ الكتّاب المصريين زمن الفاطميين، ويقول فيه ياقوت : أحد فضلاء المصريين وبلغائهم ومسلَّم ذلك له غير منازع ... وله رسائل أنشأها عن ملوك مصر وتزيد على أربع مجلدات"[(6)].

---

(1) جمال الدين الشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية، ص212-230.

(2)القلقشندي، صبح الأعشى، ج8، ص316-321، 324.

(3) المقريزي، الواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج2، ص289.

(4) ابن ميسَّر:أخبار مصر، ص 128؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا في أخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ج3، ص185.

(5) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج15، ص79؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج22، ص228.

(6) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج15، ص79.

ويشيد ابن سعيد في المغرب بلاغته قائلاً : "وقعت على ترسله في مجلدات عدة، فوجدت القاضي الفاضل البيساني على منواله وينزع منزعه"[1].

وتتضح مهارة ابن الصيرفي البيانية من خلال السجل الذي كتبه على لسان الآمر بوفاة الخليفة المستعلي وولايته بعده سنة 495هـ، وقد استهله بحمد الله والصلاة على الرسول وعلى آله الطيبين الطاهرين الأئمة المهديين، يقصد آباءه من الخلفاء الفاطميين، ويقول إن الله استرعى الأئمة هذه الأمة مشيراً بذلك إلى أن الله اصطفاه لهداية الناس، ويصلي على جدِّه لأبيه علب بن أبي طالب ويقول : "إن الله أكرمه بالمنزلة العلية، وانتخبه للإمامة رأفة بالبرية، وخصّه بغوامض علم التنزيل، وجعل لهبرة التعظيم ومزية التفضيل "[2]. وكل ذلك ترداد لما كان يبدئ الفاطميون فيه من تفضيل علي بن أبي طالب على أبي بكر وعمر وغيرهما من جلّة الصحابة، وأن الله خصّه بعلم فوق العلم الديني المعروف للأمة، به يعرف المعنى الحقيقي للقرآن أو المعنى الخفي الذي يعلو على الفهم العادي ويشيد ابن الصيرفي على لسان الآمر بنشر أبيه المستعلي للعدل بين الرعية، ويصور فداحة الرزء به والفجيعة فيه ثم يقول: "وقد كان الإمام المستعلي بالله قدّس الله روحه - عند نقلته، جعل لي عقد الخلافة من بعده، وأودعني ما حازه من أبيه عن جدِّه، وعهد إليَّ أن أخلفه في العالم، وأجري الكافة في العدل والإحسان على منهجه المتعالم، وأطلعني من العلوم على السر المكنون، وأفضى إليَّ من الحكمة بالغامض المصون، وأوصاني بالعطف على البرية، والعمل فيهم بسيرته المرضية؛ بما جبلني الله عليه من الفضل، وخصّني به من إيثار العدل، وإنني –فيما استرعيته- سالك منهاجه، عامل بموجب الشرف الذي عصب الله لي تاجه"[3].

---

(1) ابن سعيد علي بن موسى المغربي "1285/673" كتاب المغرب في حلى المغرب والمشرق في حلى المشرق "ليدن سنة 1898-1899"، القسم الأول من الجزء الخاص بمصر نشره زكي محمد حسن، وشوقي ضيف، وسيده إسماعيل كاشف، "القاهرة 1953"، دار الكتب المصرية، ص252.

(2) الشيال، مجموعة الوثائق الفاطمية، ص199.

(3) المرجع السابق، ص200.

والسجل كله بهذه اللغة الصافية المسجوعة وفيه يقرر ابن الصيرفي على لسان الآمر أن الخلافة انتقلت إليه بالوراثة عن آباءه، وأن أباه عهد إليه بها، فهو يخلفه عن عهد أو وصية، وعند الفاطميين وجميع الشيعة أن الرسول أوصى بالخلافة إلى علي وأنها تنتقل بالوصية من الأب إلى الابن، ويقول ابن الصيرفي على لسان الآمر إن الله أطلعه من العلوم على السر المكنون ومن الحكمة على الغامض المصون، مشيراً بذلك إلى عقيدة الفاطميين، في أن الأئمة يتميزون من الناس بعلم باطني، يتوارثه إمامٌ بعد إمام متنقلاً من جيل إلى جيل، وهو عندهم علمٌ لا يشمل أمور الدين وحقائقه فحسب، بل أيضاً يتسع ليشمل حوادث العالم حتى يوم القيامة، وهو ما يفرض لهم على الناس طاعة واجبة، لا تحدها حدود، طاعة بدون قيد أو شرط.

4.5 أبو الفتح بن قادوس (ت553/1158م):

أبو الفتح محمود بن إسماعيل بن الحسن العمري المعروف بابن قادوس الدمياطي كاتب الإنشاء بمصر توفي سنه (553هـ/1158) وله ديوان شعر[1].

يقول عنه العماد أشعاره محكمة النسيج، كالدر في الدرج "[2]. ووصفه ابن ميسَّر بقوله: "كان من أماثل المصريين وكتابهم مقدماً عند ملوكهم[3].

وهو شيخ القاضي الفاضل وكان يسميه ذا البلاغتين، وذكره العماد في الخريده ومن شعره فيمن يكرر التكبير ويوسوس في نية الصلاة في أولها.

وفاترُ النيـة عنينهـا … مع كثـرة الرعـدة والهمـزةِ
يكبِّـرُ التسـعين فـي مـرة … كأنـه يصـلي علـى حمـزة [4]

(1) إسماعيل باشا، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون، ج 6، ص430

(2) العماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريده أهل العصر، قسم شعراء مصر، تحقيق: أحمد أمين وزميله – مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1952، الخريدة ورقة49.

(3) ابن ميسرَّ، أخبار مصر، ص97.

(4) ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص293.

ويقصد القاضي الفاضل بالبلاغتين بلاغة الشعر وبلاغة النثر.

وهناك قصة يرويها القدماء عنه وهي انتصاره للجليس بن الحباب، فقد كان ابن الصياد الشاعر مولعاً بهجاء الجليس، كثير الدعابة بأنفه، حتى قيل إن مقطعات ابن الصياد في ذلك بلغت ألف مقطوعة، فانبرى له ابن قادوس ينتصر للجليس قائلاً:

يا من يعيب أنوفنا الشم التي ليست تعاب
الأنف خلقة ربنا وقرونك الشم اكتساب [1]

ولقد انبرى ابن قادوس للدفاع عن الجليس من أجل تحقيق مآربه الشخصية، سواء في الديوان أو في غير الديوان من مناصب الدولة بحكم الصلة القوية التي كانت بين الجليس والخليفة الفاطمي من ناحية، وبين الجليس والملك الصالح طلائع بن رزيك من ناحية أخرى، ولولا أطماعه ما كان ينشد هذين البيتين.

وكان ابن قادوس يكره الادعاء والإعجاب، ويكره من يتصف بهما، ويدلنا على هذا الخلق فيه أنه اجتمع ليلة عند الصالح بن رزيك، هو وجماعة من جلسائه، فألقى عليهم الصالح مسألة في اللغة، فلم يجب عنها بالصواب سوى الرشيد بن الزبير، فأعجب به فقال الرشيد: ما سئلت قط عن مسألة إلا وجدتني أتوقد فهماً.

فقال ابن قادوس: وكان حاضراً:

إن قلت: من نارٍ خلقتُ وفقتُ كل الناس فهما.

قلنا: صدقت، فما الذي أطفاك حتى صرت فحما.

كما هجاه مرة أخرى بقوله:

يا شبه لقمان بلا حكمة وخاسراً في العلم لا راسخا
سلخت أشعار الورى كلها فصرت تدعى:الأسود السالخا [2]

وكان الدافع له على هذا الهجاء هو ما لمسه في ابن الزبير من ادعاء وإعجاب[3]. وبرغم شهرة ابن قادوس في الكتابة لم يبق التاريخ إلاَّ على القليل مما

---

(1) العماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريده أهل العصر، ورقة68.

(2) السالخا: اسم للأسود من الحيات.

(3) أحمد بدوي: الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية، ص347-348.

كتبه، وكان حظه في الشعر أسعد منه في النثر، برغم قلة ما بقي له من ذلك أيضاً، فليس لدينا من شعره إلا صفحات من ديوانه الذي قال عنه صاحب كشف الظنون أنه في مجلدين، وتجد هذا الشعر في الخريدة ووفيات الأعيان، والطالع السعيد، ومعجم الأدباء، وحسن المحاضرة، وخطط المقريزي، وفوات الوافيات ومعاهد التنصيص، والرسالة المصرية[(1)].

ومن نثره ما كتبه بالبشارة بوفاء النيل:

"النعم وإن كانت شاملة للأمم، فإنها متفاضله الأقدار والقيم، فأولاها بشكر تنشر في الآفاق أعلامه، واعتداد تحكم بإدراك الغايات أحكامه، نعمة يشترك في النفع بها العباد، وتبدو بركتها على الناطق والصامت والجماد، وتلك النعمة النيل المصري الذي تبرز به الأرض الجرز في أحسن الملابس، وتظهر حلل الرياض على القيعان والبسابس، وترى الكنوز ظاهره للعيان، متبرجة بالجواهر واللجين والعقيان، فسبحان من جعله سبباً لإنشار الموات، وتعالى من ضاعف به ضروب البركات ووفَّر مواد الأرزاق والأقوات، وهذا الأمر صادر إلى الأمير، وقد منَّ الله –جلَّ وعلا- بوفاء النيل المبارك"[(2)].

5.5 ابن الخلال (ت566هـ/1170م):

يوسف بن محمد بن الحسين الموفق ، أبو الحجاج، المعروف بابن الخلال، صاحب ديوان الإنشاء بمصر في دولة الحافظ أبي الميمون عبد المجيد صاحب مصر[(3)].

قال العماد في حقه، ناظر ديوان مصر وإنسان ناظرها، وجامع مفاخرها، وكان إليه الإنشاء، وله قوة على الترسل يكتب كما يشاء[(4)] كان صاحب ديوان

(1) أحمد بدوي: الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية، ص349.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، ج8، 332.

(3) الصفدي، صلاح الدين بن أيبك (696-764هـ): نكت الهميان في نكت العميان، تحقيق: طارق الطنطاوي، دار الطلائع، القاهرة، 1994، ص266.

(4) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج2، ص407.

الإنشاء بمصر في أيام الحافظ وأنه استمر في مرتبته إلى آخر عهد الدولة الفاطمية(1).

وكان الفاضل قد سيرَّه أبوه، قاضي عسقلان إلى ابن الخلال لـ يتخرج به في فنَّ الكتابة ويتدرب عليها فلما وصل إليه قال له: ما الذي أعددت لفن الكتابة من الآلات؟ فقال ليس عندي شيء سوى أني أحفظ القرآن الكريم وكتاب الحماسة، فقال: في هذا بلاغ، ثم أمره بملازمته فلازمه وتدرب بَين يديه، ثم أمره بعد ذلك أن يحلَّ شعر الحماسة، فحلَّه من أوله إلى آخره ثم أمره به فحله مرة ثانية(2) ويقول ابن خلكان: " ولم يزل ابن الخلال بديوان الإنشاء إلى أن طعن في السن وعجز عن الحركة فانقطع في بيته ، وكان القاضي الفاضل يرعى له حق الصحبة والتعليم، ويجري عليه ما يحتاج إليه إلى أن مات -رحمه الله تعالى -(3) وابن الخلال أحد الذين ذكرهم عمارة اليمني فقال : ووجدت بحضرته (أي بحضرة الصالح بن زريك من أعيان أهل الأدب الشيخ الجليس أبا المعالي بن الحباب والموفق بن الخلال صاحب ديوان الإنشاء، وأبا الفتح محمود بن قادوس والمهذب أبا محمد الحسن بن الزبير، وما من هذه الحلبة أحدٌ إلاَّ ويضرب في الفضائل النفسانية، والرياسة الإنسانية بأوفر نصيب، ويرمي شاكلة الإشكال فيصيب(4).

ويقال: أن الموفق بن الخلال كان يكتب إلى القاضي الفاضل وهو عاطلٌ في بيته، خادمه يوسف، وكان الفاضل يقول : إلى متى يخبأ الألف واللام، يعني يقول

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص130.

(2) الصفدي، نكت الهميان في نكت العميان، ص266.

(3) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج 2، ص409، وانظر: الصفدي نكت الهميان، ص 266، ابن الأثير، نصر الله بن محمد الأثير (ت637هـ)، الوشى المرقوم في حل المنظوم مطبعة ثمرات الفنون، 1298هـ، ص9.

(4) عمارة اليمني: النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية (طبع مدينة شالون 1897) ص34.

الخادم[1]. تكاد تجمع المصادر التي بين أيدينا والتي حدثتنا عن الموفق بن الخلال أنه كان على جانب من علو الهمة والفضل، وعلى براعته في فن الترسل[2].

وابن الخلال هو كاتب سجل ولاية شاور الوزارة للمرة ثانية ؛ أي بعد انتصاره على ضرغام، جاء فيه.

"سلام عليك، فإن أمير المؤمنين يحمد الله إليك، الله الذي لا إله إلاَّ هو، ويسأله أن يصلي على جده محمد خاتم النبيين، وإمام المرسلين، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين الأئمة المهديين، وسلم تسليماً (أما بعد): فالحمد لله فاتح الرغائب ومنيلها وكاشف المصاعب ومزيلها ومذل كل عصبة كلفت بالغدر والشقاق ومذيلها، ناصر من بغى عليه، وعكس كيد الكائد إذا فوَّق سهمه إليه، ورادَّ الحقوق على أربابها، ومرجع المراتب على من هو أجدر برقيّها وأولى بها، ومسني الخير بتيسير أسبابه، ومسهل الرتب بتمهيد طرقه وفتح أبوابه، ومدني نائي الحظ بعد نفوره واغترابه، ومطلع الشمس بعد المغيب، ومتدارك الخطب إذ أعضل بالفرج القريب،ومبدع ما كان ويكون، ومسبب الحركة والسكون محسن التدبير، ومسهل ومسهل التعسير[3]: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[4].

فمن هذا السجل [5] نرى كيف سار ابن الخلال على فهم من سبقوه من كتاب مصر الفاطمية، ثم تبين لنا كيف استطاع ابن الخلال أن يستغل مصطلحات بعض العلوم وينظمها في سلك كتابته ليضيف إليها قوة في الصناعة ولم يكن ابن الخلال كاتباً فحسب، بل كان شاعراً أيضاً، شأنه في ذلك شأن كثير من الكتاب الفاطميين،

---

(1) الصفدي، نكت الهميان في نكت العميان، ص266.

(2) محمد كامل حسين، في أدب مصر الفاطمية، ص355.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج10، ص320-327.

(4) سورة آل عمران، آية26.

(5) انظر السجل كاملاً في مجموعة الوثائق الفاطمية للشيّال، ص223.

وتظهر الصنعة البديعية في شعره، كما ظهرت في نثره من قبل فهو يقول من قصيدة:

عَذُبَتْ ليالٍ بالعُذَيْب حَوَال | وحلَتْ مواقفُ بالوصال حَوَالِ
ومضتْ لذاذاتُ تقضَّى ذكرها | تصبُى الخلى وتستهيمُ السالى
وحلَتْ مورَّدةُ الخدود فأوثقتْ | في الصَّبوة الخالي بحسنْ الخال
قالوا سراةُ بني هلال أصلها | صدقوا كذلك البدرُ فرعُ هلالِ[1]

ومن شعره أيضاً:.

وصَعْدة لدنةٍ كالتبر تفتقُ في | جنح الظلام إذا ما أبرزَت فلقا
تدنو فيخرق بُرْد الليل لهَذَمُها | وإن تأتِ رتق الإظلام ما فتقا
وتستهل بماءٍ عند وقدَتها | كما تألق برق الغيث فاندفقا
كالصبّ لوناً ودمعاً والتظا وضنىً | وطاعة وسهاداً دائما وشقا
والحب أنساً وليناً واستوى وسنا | وبهجة وطروقاً واجتلاً ولقا[2]

كما روى أن بيتاً أنشده كان سبب قطع صلة شاعر من شعراء القصر، وذلك أن الشاعر أبا القاسم بن هانئ -وكان من سلالة الشاعر ابن هانئ الأندلسي المعروف- كان يهجو ابن الخلال، فأضمر هذا له حقداً، فاتفق في بعض المواسم أن تقدم الشعراء للنشيد بين يدي الخليفة، وانتهت النوبة إلى ابن هانئ فأنشد وأجاد فسأل الخليفة ابن الخلال رأيه في قصيدة ابن هانئ، فلم يسعه إلاَّ أن يثني عليه ويبالغ في وصفه، ثم قال : ولو لم يكن له ما يمت به إلاَّ انتسابه إلى ابن هانئ الأندلسي شاعر هذه الدولة ومظهر مفاخرها، وناظم مآثرها،لولا بيت أظهر منه الضجر عند دخول جوهر هذه البلاد فقال له الخليفة : ما هو؟ فتحرج الموفق ابن الخلال إنشاده وأبى الخليفة إلا أن ينشده وفي أثناء ذلك صنع الموفق بن الخلال بيتاً

---

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص408.

(2) الصفدي، نكت الهميان في نكت العميان، ص267.

هجا فيه الأئمة الفاطميين، فعظم ذلك على الخليفة، وقطع صلة الشاعر، وكاد يفرط في عقوبته[1].

وكان الموفق بن الخلال خال القاضي الجليس عبد العزيز بن الحسين بن الحباب فحصل لابن الخلَّال نكبةٌ ،وحصل لابن الحباب بسبب خاله ابن الخلَّال صُداع فكتب ابن الحباب إلى القاضي الرشيد بن الزبير.

تسمَّع مقالي يا ابن الزبير فأنت خليقٌ بأن تَسْمَعَهْ
بلينا بفي نسبٍ شابك قليل الجدَى في زمان الدَّعه
إذا ناله الخيُر لم نرجُهُ وإن صفعُوهُ صُفِعْنا مَعَهْ [2]

ولعلَّ لمخمل ما قاله عن تقلبات الأيام، وربما أنشأه بعد أن أدبرت عنه الدنيا، واضطر إلى البقاء ضريراً في منزله، فقال[3]:

شيم الأيام صدٌ بعد ودٍ والليالي عهدها أهون عهد
إن أعانت عدلت، أو خذلت سلبتْ، أو أدت راعت بفقدِ
أفٍ للدنيا، فكم تخدعنا من حباها بمعاً دٍ مستردِ
ما وفت أعوام قرب بالذي جنت اللوعة من ساعة بعدِ
يا أخا العزةِ، حسب الدهر من عظة المغرورِ ما أصبح يبدي
تؤثر الدنيا فهل نلت بها لحظة تخلص منَ هم وكدَّ

وهي قطعة نابضة بالحياة تصف ألمه في آخر أيامه.

---

(1) محمد كامل حسين، في أدب مصر الفاطمية، ص357-358.

(2)الصفدي: نكت الهميان في نكت العميان، ص267.

(3)أحمد بدوي: الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر الشام، ص355.

6.5 القاضي الفاضل:

وهو الفاضل،محي الدين ،أبو علي ،عبدالرحيم بن الشرف ، أبو الحسن على بن أحمد بن أبي الفرج اللخميّ العسقلاني [1]المولد، عُرِفَ بالبيسانيّ [2]وولي أبـوه القضاء والخطابة بعسقلان، واستخدم شاور [3] القاضي الفاضل في ديوان المكاتبات مع الموفق بن الخلال[4]،ومولده يوم الاثنين خامس عشر من جمادى الآخرة، سـنة تسـع وعشـرين وخمسـمائة (526هـــ/ 1134) والأرجـح أنـه ولـد سـنه (526هـ/1131م)؛ لأنه يذكر في إحدى رسائله أنه تجاوز السبعين عامـاً، قـائلاً : فإن السّبعين حُزت عتبتها وقطعت عقبتها، وأسال الله الخير فـي القـدوم عليـه ، واللطف عند الوقوف بين يديه". ولعلَّه كتب هذه الملاحظات في العام الأخيـر مـن حياته سنة (596هـ/1099-1200)؛ وهذا يرجح ولادته سنة (526هـ/1131)[5]. ولقد عاش القاضي الفاضل نحو سبعة عشر عاماً من حياته في عسقلان فـي كنـف والديه، فدرس القرآن الكريم والحديث وديوان الحماسة، وغيرها من العلـوم، فـي

---

(1) العسقلاني: نسبة إلى عسقلان، وهي مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بـين غزة وبيت جبرين، يقال لها عروس الشام، وكذلك يقال لها دمشق (معجم البلدان: 127/4).

(2) البيسانيّ: نسبة إلى مدينة بيسان وهي مدينة بالأردن بالغور الشامي وهـي بـين حـوران وفلسطين، وتعدَّ من أوائل المدن التي فتحها العرب، حيث ازدهرت أيام العرب، واشـتهرت بنخيلها وخمورها التي كانت تصدر للحجاز (معجم البلـدان:625/1)والـروض المعطـار : 119 ودائرة المعارف الإسلامية: 409/4).

(3) هو شاور بن لجير بن نزار، أبو شجاع، وزير من الولاة فيه نجابه وفروسية ، لقـب بـأمير الجيوش ....انظر (مالك الأبصـار : 239/11، والروضـتين 130/1، البدايـة والنهايـة 278/12 تاريخ ابن خلدون: 77/4، ووفيات الأعيان 239/2 والأعلام، 154/3).

(4) هو أبو الحجاج يوسف بن محمد المعروف بابن الحلال، الملقب صـاحب ديـوان الإنشـاء بمصر في دولة الحافظ الـ عبيري وأحد كبار المترسلين (ت566هـ). انظر: وفيات الأعيـان 219/7، شذرات الذهب 219/4، وتاريخ ابن الفرات : 133/1، وفية ابن الخلال، وثمـرات الأوراق: 137، الأعلام: 247/8.

(5) الحنبلي: عبدالحي بن العماد الحنبلي"شذرات الذهب في أخبار مـن ذهـب "، القـاهرة: دار الفكر، 1979، ج4، ص342.

جوامع المدينة التي كانت موئلاً للفقهاء من فلسطين وغيرهم ممن أراد الجهاد والشهادة، وفي تلك الفترة الحرجة التي كانت خلالها معنويات أهالي عسقلان والمسلمين في الشام ومصر محبطة لتوالي الهزائم والإحباطات، وتركزت آمال الجميع على منقذ يأخذ بيدهم إلى طريق النصر، فظهر عماد الدين زنكي، ونادى للجهاد وكسر الفرنج في الرها وحرّرها سنة (539هـ/1144)، فأحيا الآمال بالنصر وأعاد للمسلمين شيئاً من الثقة بالنفس فالتفّوا حوله وساندوه وأذاعوا أنباء نصره[1].

كانت نقطة التحول في مسيرة عبدالرحيم البيساني العسقلاني سنة (543هـ/1148) عندما قرر والده أن يرسله إلى القاهرة ليتدرب على الإدارة مثله، ويتعلم فنَّ الكتابة والإنشاء، فقد جرت العادة بين أصحاب الدواوين في البلاد التابعة للخلافة الفاطمية أن يرسلوا أبناءهم إلى ديوان الإنشاء في القاهرة، لما له من سمعة حسنة، ولما للمتخرجين منه من مجالات للعمل في القاهرة أو في المقاطعات والثغور[2].

وأدرك القاضي الأشرف أن ابنه يتمتع بموهبة أدبيةً، وقد عبَّر عن ذلك بشعر نظمه في سن مبكرة من عمره أو في نثر متين لديوان الحماسة، وقد فهم وحفظ القرآن الكريم قبل أن يكمل السابعة عشرة من عمره، فرأى الكتابة الديوانية، ومن ثمَّ الإدارة أفضل مجال لإبراز مواهب ابنه هذا الذي اختلف عن باقي أبنائه[3].

أرسل القاضي الأشرف ابنه عبدالرحيم إلى الإسكندرية، وأوصاه بالذهاب إلى ديوان الإنشاء والمكاتبات الذي كان يرأسه ابن الخلال، أحد كبار كتَّاب مصر وأدبائها، وقد كان القاضي الأشرف يعرْف ابن الخلال بالسماع وعن طريق المراسلة"؛ لأن ديوان ثغر عسقلان، كان من أهم الدواوين المصرية، ومرتبطاً في جميع شؤونه بدواوين القاهرة مثل ديوان الإنشاء والمال والثغور، ولقد عُرف ابن

---

(1) شكيل، هادية دجاني، القاضي الفاضل عبدالرحمن البيساني العسقلاني، دورة التخطيط في دور صلاح الدين وفتوحاته، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1993، ط1، ص40.

(2) هادية دجاني، القاضي الفاضل، ص42.

(3) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج7، 219-220.

الخلال بدوره القاضي الأشرف بالطريقة ذاتها وبالمرسلات الرسمية، وربما عن طريق المكاتبات الشخصية [1] وحالما استقر عبدالرحيم في مصر، قصد ديوان الإنشاء في القاهرة، حيث قابل الشيخ موفق الدين يوسف بن الخلال، كاتب الدست رئيس الديوان[2] فاستقبله بكل لطف وحفاوة، ثم استفسر عن أهدافه، فرد عليه عبدالرحيم بأنه قصده للتدريب على الكتابة والإنشاء والإدارة، ولما سأله ابن الخلال عمَّا أعدَّه لفن الكتابة أجاب بأن مه حصوله العلمي حفظ القرآن الكريم، وديوان الحماسة، فأجابه ابن الخلال قائلاً : في هذا بلاغ، ثم طلب منه أن يلازمه ففعل، ثم طالبه بعد ذلك بنثر ديوان الحماسة ففعل[3].

لاحظ ابن الخلال نبوغ تلميذه الصغير فوجهه خير توجيه، وساعده في تنمية مواهبه، ولقد أثمرت رعاية ابن الخلال لتلميذه الصغير، فلقي منه الوفاء عندما كبر وفقد بصره وحركته (ت566هـ/1169-1170) ولم يبق له من يقوم به، فكان عبدالرحيم خير راع ومعين ومساعد مخلص، يواده ويزوره ويقدم له كل ما يحتاج إليه من لوازم الحياة[4].

وقد درَّب ابن الخلال عبدالرحيم على فنون النثر والكتابة الديوانية، كما وصله بعالم من كبار علماء البلاغة في عصره، وهو القاضي المفضل كافي الكفاة أبو الفتح أسعد الدمياطي المعروف بابن قادوس [5](ت553هـ/1158) فاحتضنه هذا الآخر، ودرَّبه في فن البلاغة، ولكنه نظراً لكثرة أشغاله في الدواوين لم يعطه وقتاً كافياً للمناقشة والبحث، فكان عبدالرحيم يرافقه في أثناء ركوبه من الديوان في القاهرة إلى مصر ويتباحث معه في شتّى الأمور المتعلقة بفنون الكتابة والآداب، وهكذا تبوّ عبدالرحيم في أثناء دراسته على يد اثنين من كبار المتنفذين في مصر، إذ أصبح اسمه يقترن باسميهما في بداية أمره في الديوان.

---

(1) هادية دجاني، القاضي الفاضل، ص43.

(2) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج7، ص219-220.

(3) المصدر السابق، ج7، ص220.

(4) المصدر السابق، ج7، ص225.

(5) ابن ميسَّر، تاريخ مصر، ج2، ص97.

شاهد عبدالرحيم في كل من مصر والقاهرة حياة علميـــة دينيـــة مزدهـــرة مختلفة إلى حد ما عن حياة عسقلان العلمية الدينية المحدودة والموجهة إلى الجهاد، فقد رأى في مصر كثيراً من الجوامع، كجامع عمرو بن العاص المعروف بالجـــامع العتيق، وسط الفسطاط، وجامع ابن طولون (تم بناؤه سنة 266هـ/876م) خـــارج الفسطاط، في القطائع بالإضافة إلى عدد كبير من المساجد الصغرى عُرفت بمساجد الخمس، ويذكر في بناء هذه المساجد الصغرى أنه عندما دب الفناء بأهل مصر في عهد كافور، خفّت الزكاة كثيراً، فجمع ما أمكن جمعه ليسلِّم إلى كـــافور فرفضـــها قائلاً: "ابنوا بها المساجد واتخذوا لها الأوقاف، فكان سبب كثرتها"[(1)].

ومع كل ما رآه القاضي الفاضل في القاهرة من أشكال وألوان زاهية ظاهرياً، فإن الحياة فيها كانت رسمية جافة، تفتقر إلى الروح الشعبية التي تميزت بها مصر، فقد كانت الفئات المختلفة منعزلة عن بعضها بأحيائها، ولكنَّها تتصارع بشأن النفـــوذ بحيث تعكر صفو الحياة في القاهرة، ولكم وقعت خلافـــات مســـلحة بـــين الفـــرق العسكرية المختلفة فيها، وهذا ما أضعف الخلافة الفاطمية وأدى فـــي النهايـــة إلـــى سقوطها[(2)]، كانت القاهرة عاصمة الفاطميين الذين عزلوا فيها أنفسهم عن الشـــعب المصري، إذ أحاطوها بسور وحرّموها على العامة، بحيث لا يستطيع أحد منهم أن يدخلها من دون إذن خاص، وإن دخلها الرسل والأمراء وذوو النفوذ، فإنهم يدخلونها بين صفوف من الحرس والخدم المسلَّحين حتى يصلوا إلى مجلس الخليفة الذي كان يعيش بعيداً عن مرأى الشعب[(3)].

دخل عبدالرحيم ديوان الإنشاء طالباً في السابعة عشرة من عمـــرة، وظـــل يتدرج فيه وفي غيره من الدواوين إلى أن تولَّى رئاسته بعد ثلاثة وعشرين عاماً من دخوله القاهرة، وتولاه بعد أستاذه الشيخ موفق الدين بن الخلال مباشرة.

ودرس عبدالرحيم في ديوان الإنشاء موضوعات أخـــرى، بالإضـــافة إلـــى البلاغة والنثر الفني، وأسس الكتابة الصحيحة التي تلقاها على يد ابن الخلال وابـــن

---

(1) هادية دجاني، القاضي الفاضل، ص46.

(2) المقريزي، اتعاظ الحنفا في أخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ج3، ص149.

(3) المقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، ج1، ص361-362.

قادوس، وبينها قواعد اللغة العربية من نحو وصرف؛ لأن هذه العلوم "رأس مال الكاتب" وأُسُّكلامه وكنز إنفاقة "، وغريب اللغة لانتشار الغريب من الألفاظ في القرآن والحديث والشعر، كما درس الأمثال والخطب، وهذه جميعها من مصادر الكاتب، ولابد أن يكون قد درس موضوعات أخرى تتجلّى في كتاباته وكان العلم بها مطلوباً من الكتاب، مثل التاريخ والعقيدة الإسماعيلية ؛لأنهم يستشهدون بالا كثير من الشعارات الإسماعيلية في كتاباتهم، ولمّا كان ديوان الإنشاء يدرب الطالب على فن الكتابة في الدواوين كافة، مثل ديوان الجيش وديوان المال، فلا بد من أن يتدرب الطالب على الإدارة المالية بصورة خاصة وهي تتطلب المعرفة بجغرافية مصر ونوعية الأراضي وطرق الري و الإقطاعات وغيرها[1]. وكان عبدالرحيم بحكم تدريبه وعمله التدريبي في ديوان الإنشاء، يتصفح ما يقع بين يديه من الوثائق، وربما حفظه جيداً كنموذج للكتابة الحسنة، ومن الكتاب السابقين له الذين أعجب بأسلوبهم ابن أبي الشخباء العسقلاني[2].

وكان ديوان الإنشاء بالإضافة إلى مسؤولياته المتفرعة، أحد معاهد العلم العديدة في القاهرة، ومهمته تدريب الطلبة على الكتابة والإدارة ثم دفعهم إلى العمل فيها في دواوين مصر المركزية أو الإقليمية العديدة، فهو مـ عهد تدريبي أكثر مما هو علمي، ولكن القاهرة كانت تزخر أيضاً بالمعاهد العلمية والحلقات الثقافية[3].

وجد عبدالرحيم القاهرة مركزاً ثقافياً زاهراً، فاستفاد منه في تكوينة الثقافي العلمي، وأما حنكته السياسية التي تجلت بأوضح مظاهرها بعد نحو عشرين عاماً من دخوله القاهرة، فقد استمدَّ أصولها من الأحداث السياسية التي شاهدها وعاشها، وكان من الأحداث الأولى التي شاهدها عبدالرحيم أول دخوله القاهرة، صراع دموي بين طائفتين عسكريتين هي الطائفة الجيوشيه الأرمنية والطائفة الريحانية السودانية، وقد شلت خلالها الحركة داخل القاهرة، وانتهت بهزيمة الريحانية[4].

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص 204–206.

(2) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص 89-90.

(3) محمد كامل حسين،في أدب مصر الفاطمية،دار الفكر العربي،القاهر،1963،ص45- 46.

(4) المقريزي، اتعاظ الحنفافي، أخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ج3، ص189.

درس القاضي الفاضل وعمل في القـاهرة خـلال حكـم الخليفـة الظـافر (544-549هـ/1149-1154) أي خلال فترة حالكة من تاريخ مصـر، تميـزت بأحداث عظام داخل مصر وخارجها أدت إلى سقوط عسقلان في يد الفرنج وانهيار الخلافة الفاطمية، وكان أول هذه الأحداث صراعاً دموياً بشأن الوزارة بين بعـض أمراء الدولة، فقد اختار الخليفة الظافر بحسب وصية والده الخليفة الحـافظ الأميـر نجم الدين أبي الفتح سليم بن محمد بن مصال (ت544هـ/1149)، لكن سرعان ما ظهر لابن مصال منافس هو الأمير على بن إسحاق بـن السـلار والي البحيـرة والإسكندرية. الذي خطب الوزارة لنفسه وتوجه مع ركن الإسلام عباس بن تميم بن المعز بن باديس والي الغربية إلى القاهرة ، ودخلها بعد المفاوضـات مـع الخليفـة الظاهر، وخلع عليه بالوزارة ولقب بالسيد الأجل أمير الجيوش [1]. وقد رافـق ابـن السلار في ثورته هذه طلائع بن رزِّيك أحد الأمراء المقدِّمين الطامعين في الحكـم، وقد كُتب له أن يلي الوزارة بعد مقتل ابن السلار (ت549هـ/1154م) وربيبـة عباس، وكتب لعبدالرحيم أن يبدأ مسيرته العلمية منذ قيام الوزارة[2]. لم تمضِ خمسة أعوام على وزراة ابن السلار حتى ثار عليه ربيبه (ابن زوجته) عبـاس، وتسـبب بقتله على يد ابنه (ابن عباس) نصر، وكان نصر خليل الخليفة الظافر، وقد اسـتغل بساطته واستفاد منه مالاً وجاهاً، ثم اغتاله، كما اغتال والده "عباس" بمساعدته بعض أفراد الأسرة الفاطمية، ويعين خليفة طفلاً عمره خمسة أعوام وعشرون يوماً سـماه الفائز[3]. لأن القصر الفاطمي سرعان ما جمع قواه بقياده نسائه (عمـات الظـافر) اللائي اتصلن بطلائع بن رزيك والي الأشمونين يستنجدن به على عباس، دخل ابن رزيك القاهرة يوم الأربعاء التاسع عشر من ربيع الأول من سنة (549هـ/1154) ليلقى بدوره مصرعه بعد وزارته بسته أعوام، وكان بين الشعراء الـذين قصـدوه للتهنئة عبدالرحيم البيساني (القاضي الفاضل)[4].

---

(1) المقريزي: اتعاظ الحنفافي، أخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ج3، ص196-198.

(2) المصدر السابق، ج3، ص197.

(3) المصدر السابق، ج3، ص197.

(4) المصدر السابق، ج3، ص214.

علَّمت الأحداث الجارية ضمن القصر الفاطمي، وداخل القاهرة عبدالرحيم دروساً في السياسة، طبق بعضها في حياته، وإذا كانت هذه الأحداث التي شاهدها قد زادته علماً وخبرة، فإن أحداثاً أخرى ناجمة عنها أصابته في الصميم وولَّدت في نفسه شيئاً من المرارة ظهرت عاقبتها بعد أن أصبح ذا نفوذ في الدولة الفاطمية، فأول ما أصاب قلبه من سهام، في بداية خلافة الظافر، وفاة والده القاضي الأشرف مهاناً حزيناً مجرداً من كل ما جناه في حياته[1].

بعد مقتل ابن رزيك على يد شاور، اتصل به القاضي الفاضل، وتوثَّقت الصلة بينة وبين شجاع بن شاور، حتى صار أكبر من اتصل به القاضي الفاضل في عصر الدولة الفاطمية، ويحتفظ ديوانه بـ كثير من القصائد التي مدحه بها، وقد هيأت له هذه الصلة أن يتصل بالعاضد آخر الخلفاء الفاطميين، وفي ديوانه مفتتح قصيدة مدح بها خليفة فاطمياً، يقول فيها متخلصاً من الغزل إلى المديح:

فإن فؤادي بعدكم قد فطمته عن الشعر الاّ مدحه لابن فاطم

وعن العاضد صدرت سجلات ومكاتبات تعلم القاضي الفاضل،منها تلك الرسالة التي أرسلها العاضد إلى نور الدين محمود يطلب أن يقيم عنده أسد الدين شيركوه، كما كتب سجل تنصيب أسد الدين وزيراً، فلما مات كتب سجل تنصيب صلاح الدين وزيراً من بعده[2]. فلما ولي صلاح الدين أمر مصر استخلصه لنفسه.

فتح القاضي الفاضل أشرف صفحات حياته يوم اتصل بصلاح الدين، ففوض إليه الوزارة وديوان الإنشاء، واتخذه ساعده الأيمن فيما أراده من إصلاحات مالية وحربية، فصار القاضي الفاضل لسان صلاح الدين إلى الخلفاء والملوك والأمراء والمسجل لحوادث الدولة وأحداث هذه الحقبة من الزمن، وتمكن من السلطان غاية التمكن حتى لم يعد في الدولة إنسان يعلوه في مكانته ومنزلته، وقد صحب القاضي الفاضل السلطان صلاح الدين في غزواته بـ بلاد الشام بين سنتي585 و586هـ، ثم أقام بمصر ليشرف على الإدارة المالية ويعمل على تجهيز الجيش والأسطول، و

---

(1) المقريزي: اتعاظ الحنفافي، أخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ج3، ص219-220.

(2) بدوي أحمد أحمد، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ط 2، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ص357.

بعدئذٍ عاد إلى سوريا بجوار صلاح الدين وظل بالقرب منه حتى مرضـــه الأخيـــر وشاهد وفاته في 27 صفر 589هـ، وبعد ذلك اعتزل القاضـــي الفاضـــل الحيـــاة السياسية بعد أن رأى اختلال الأحوال وتفرق الكلمة، بعيداً عن خضم الحياة العامة، وفي ليلة اليوم الذي دخل فيه العدل القاهرة، توفي الفاضل يوم الثلاثاء أو الأربعاء 6 أو 7 ربيع الأخر سنه 596هـــ (26 أو 27 يناير ســـنة 1200م) ودخـــل الملـــك الأفضل فصلى عليه، وكان له يوم مشهود[(1)].

ولم يكن القاضي الفاضل رئيساُ لديوان الإنشاء في عهد صلاح الدين فحسب، بل كان الوزير الذي لا يبرم صلاح الدين أمراً من غير مشورته، بل كان ينوب عنه في مصر، عند انشغاله بشؤون الشام وجهاد الصليبيين فيها[(2)].

وقد اجتمع في القاضي الفاضل من الصفات ما حببه إلى صلاح الـــدين فقـــد كان نزيهاً نظيفاً قليل اللذات، كثير الحسنات، دائم التهجد، ملازماً للقرآن، والاشتغال بعلوم الأدب[(3)].

ومن مظاهر الخير لدى القاضي الفاضل أنه أقام مدرسة في القاهرة، ووقف الأوقاف لطلبة العلم[(4)].

وقد كان القاضي الفاضل شاعراً إلى جانب كونه ناثراً، وقد طبع له ديـــوان شعر ولا بد من الإشارة إلى أن تراث القاضي الفاضل النثري، ذو قيمـــة تاريخيـــة وثائقية، أكثر من قيمته الأدبية، لأن ذلك التراث رسائل مرتبطة بأحـــداث تاريخيـــة وبخاصة أحداث الحروب الصليبية، وهي تكشف صورة الواقع السياسي فـــي ذلـــك العصر الذي كتبت فيه، وما يزال كثير من هذه الرسائل موجوداً تحت أسماء متعددة في عالم المخطوطات، منها ترسل القاضي الفاضل، ورســـائل القاضـــي الفاضـــل،

---

(1) بدوي، أحمد أحمد، الحياة الأدبية في عصر الحـــروب الصـــليبية بمصـــر والشـــام، ط 2، ص358-359.

(2) ضيف، عصر الدول، 412.

(3) ابن العماد والحنبلي، ج4، 325.

(4) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، ج2، 241.

والبدر النظيم في ترسل عبد الرحيم، وابن سناء الملك كتاب "نصـــوص الفصـــول وعقود العقول".

القاضي الفاضل وطريقته في الكتابة

طريقتة في الكتابة :.لقد نشأ القا اضي الفاضل في عصر بلغ فيه التأنق البياني في الشعر والنثر مبلغاً عظيماً، حتى أ صبح التنميق غاية الكاتب يصرف كل همه إلى إلباس الكلام الزخارف البديعية واللفظية، وقد كانت للقاضي الف اضل يد طولى، فـــي هذه الحركة حتى عُ دَّ شيخ الصناعة الكتابية وكانت لـــه طريقـــة خاصـــة وترجـــع عناصرها إلى:.

1. التصوير التشخيصي: يقوم ذلك بالتوفر على الاستعارات، وطرق المـ جاز المختلفة، ثم بالتشخيص الكثير مما هو من مميزات الشعر.
2. الإيغال في الجناس والطباق والتورية : لقد أولع القاضي الفاضـــل بهـــا، وأكثر من استعمالها في رسائله، وأطال جمله، وباعـــد بـــين فواصـــلها المسجَّعة، تتم له القرائن والمرشحات لبيان التورية والجناس ؛ فنـ شأ من ذلك كل غموض وتعقد.
3. الإكثار من حل المنظوم والتضمين.
4. الإطناب : وكثر في هذه الطريقة الإسهاب فمال القاضي الفاضل ولاسيما من تبعه من الكتاب إلى العطف والترادف وغيـــر ذلـــك مـــن أســـاليب التطويل[1] وقد ذكر ابن خلكان " أن القاضي الفاضل كان جُــلَّ اعتمـــاده على حفظ كلامه، وأنه كـ ان يستحضر أكثر ه" [2] ويعني بذلك ابن الشخباء، وربما كان هو السبب الذي من أجله قال بعض الذين كتبوا عن القاضـــي الفاضل: أنه تلميذ ابن الشخباء، لأنه كـ ان يحذو حذوه في الصياغة، [3] ولم يكن ابن الشخباء مصرياً بل كان من عسقلان وهي مكان نشأة القاضـــي الفاضل ومما سبق أن فن القاضي الفاضل لا يعدو وفي عناصره الأساسية

---

(1) حنا فاخوري: تاريخ الأدب العربي، ص720 -721.

(2) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج1، ص133.

(3) محمد كامل حسين: في أدب مصر الفاطمية، ص337.

إلا ما سبق عند ابن الشخباء، وهذا ما يجعلنا نؤمن بأن القاضي الفاضل لم يأت بطريقة جديدة تخالف الطرق الموروثة، بل لقد كان يعيش – كغيره من أدباء عصره - في الإطار الفني العام لمذاهب المشرق، وكان يعجب بمذهب التصنع وما وصل إليه ابن الشخباء مواطنه في استخدامه [1].

ونبوغ القاضي الفاضل في ا ستعمال التورية، كان سبباً في أعجاب أدباء عصر المماليك به وفي مشيهم تحت رايته .وذلك لأن التورية - في الحق – عنصر أصيل من عناصر التعبير المصري، [2] وقد كان لافتتانهم بأدبه أثر في إقبالهم ع لى معارضته في بعض ما كتب ، والمعارضة الأدبية في الشعر أو النثر دليل ضمني على الاعجاب والتقدير وعلى الاقتداء [3] .

وغلب منهج القاضي الفاضل كذلك على أذواق النقاد يهتدون بهديه ويترسمون خطاه، في أكثر ما تناولوه من مسائل النقد والحق أنه قد شارك الفاضل في صنع أذواق النقاد، أدباء غيره عاشوا قبله، وبعده[4].

ومن خلال رسالة القاضي الفاضل عن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب الديار المصرية إلى الناصر لدين الله الخليفة يومئذٍ ببغداد وبفتح القدس[5].

نجد القاضي الفاضل يفتتح رسالته القدسية بالبسملة وبالدعاء للخليفة العباسي الناصر لدين الله ، فيدعو له بالبقاء يقول : "أدام الله أيام الديوان العزيز النبوي الناصري" وفي هذا الافتتاح الفاضلي القدسي براعة استهلال وفيه تعظيم للمكتوب إليه.

---

(1) شوقي ضيف: الفن ومذاهبه، دار المعارف – مصر ، 1965، ص375.

(2) سليم ، محمود رزق، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، مكتبة الآداب، 1385/1965/ط1، ج7، ص283.

(3) انظر تذكرة الصفدي، ج 13 ورسالة للقاضي الفاضل، وبها معارضه ابن عبد الظاهر لها، وفي خزانه الأدب ص 431، وكذلك في ثمرات الأوراق، رسالة للقاضي الفاضل وأخرى لابن حجة يعارضه فيها.

(4) محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، ص284.

(5) انظر الرسالة كاملة القلقشندي، صبح الأعشى، ج6، ص496-504.

ويستمر القاضي الفاضل في الدعاء للخليفة ويطيل فيه ويقـرن الـدعاء بمـدح الخليفة والإشادة به، يقو ل: "أدام الله...، ولازال مظفر الجدّ بكل جاحد، غنياً بالتوفيق عن رأي كل رائد ...، ومازالت غيوث فضله إلى الأولياء أنواء إلى المرابع، وأنواراً إلى المساجد".

وتتحدث الرسالة القدسية عن موضوع واحد، فتصور الف تح وآثاره والفاتح والعدو المحتل، والمعركة وهي العناصر المشتركة التي تقوم عليها الرسالة القدسية.

إن هذه الوحدة في الرسائل القدسيات تتمثل في وحدة الموضوع، ووحدة المشاعر التي يثيرها، وما يتصل بذلك من ترتيب الأفكار والصور ترتيباً ينتهـي بالخاتمـة المناسبة.

ويختتم القاضي الفاضل رسالته القدسية اختتاماً متناسباً مع هدف الرسالة المبشرة بالفتح العظيم، مبيناً أن السلطان صلاح الدين جاهداً في فتح سائر الثغـور، يقـول : وهذه البشائر لها تفاصيل الإنكار من غير الألسنة تتشخص، ولا بما سوى المشافهة تتلخص، فلذلك أنقذنا لساناً شارحاً من طليعته إلى ساقته".

أما من ناحية الألفاظ فنجد القاضـي الفاضل في رسالته القدسية يختـار الألفـاظ المناسبة للتعبير عن المعاني التي يتحدث عنها كما يبدو فـي قولـه : "…. وأجلـت المعركة عن صرعى من الخيل والسلاح والكفار ….، فإنه قتلهم بالسيوف، الأفلاق، والرماح، الأكسار فنيلوا بثأر من السلام، ونالوه أيضاً بثأر فكم أهلة سيوف تقارض الضراب بها حتى عادت كالعراجين وكم أنجم رماح تبادلت الطعان حتى صـارت كالمطاعين".

واستخدم القاضي الفاضل الغريب في العديد من المواضع في رسالته القدسـية، ولعل الذي دفعه إلى ذلك تمثيل في الوصول إلى السجع، أو الجناس ، أو غيـر مـن الفنون البديعية ومن ذلك قوله منصورا العدو المحتل : "لا يرون في ماء الحديد لهـم عصرة، ولا في فناء الأفنية لهم نصرة، وقوله : "لا جرم أنهم يتهافتون علـى نـاره فراشهم تجتمع في ظل ظلامة خشاشهم، لقد استخدم الكاتب لفظة "عصرة" بمعنى منجاة، للوصول إلى السجع بين عصرة ونصرة.

واستخدم لفظة "خشاشهم" بمعنى حشرات الأرض يصور بها عامتهم للوصول الذي يلزم به في رسالته.

واستخدم القاضي الفاضل بعض المصطلحات اللغوية كاستخدامه الجار والمجرور ومتعلقهما في حديثه عن الفاتح وتعلق النصر به وبالجيوش الإسلامية، فكما أن الجار والمجرور لا بد لهما من متعلق، فإن النصر لا بد له من مثل ذلك، يقول: "ويقر عينه وعيون أهل الإسلام أن تعلق النصر منه ومن عسكره بجار ومجرور".

واستخدم القاضي الفاضل ألفاظاً وتعبيرات في رسالته القدسية يشيع استخدامها في النصرانية مثل الصلبان، والتثليث والقومص، والكنائس، والديوية والاسبارتية..، وهذا أمر طبيعي في الصراع كان قائما بين المسلمين وأعدائهم وهو صراع عسكري، وصراع في العقيدة.

ويتسم أسلوب الرسالة القدسية بالإطناب والتفضيل والاستسقاء وهذا يتناسب مع طبيعة تلك الرسائل الخاصة ...

ويبدو التأثر بالقرآن الكريم جلياً في الرسالة القدسية، التي أنشأها القاضي الفاضل حيث يقول: فإنها بحر للأقلام فيه سبح طويل" وهو ينظر إلى قوله تعالى: "إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً"(1).

وفي حديثه عن العدو الصليبي المحتل يقول: "وقد ضربت عليه الذلة والمسكنة وبدّل الله مكان السيئة الحسنة، وجعل الله ضلوع الكفار لنار جهنم وقوداً وهو ينظر إلى قوله تعالى: "وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ"(2)، وقوله تعالى: "ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ"(3)، وقوله: "وَأُولَـئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ"(4).

---

(1) سورة المزمل، الآية: 7.

(2) سورة البقرة، الآية: 61.

(3) سورة الأعراف، الآية: 95.

(4) سورة آل عمران، الآية: 10.

7.5 الخاتمـــة:

لقد اتضح لنا من خلال الفصول السابقة أنه قد بـــرز منـــذ بدايـــة العصـــر الفاطمي، ازدياد نفوذ ديوان الإنشاء تدريجياً ، فبعد إن كان المعز يقوم بالتوقيع على الكتب نفسه، نجد العزيز أسند هذه المهمة إلى وزيره يعقوب بن كلس إضافة إلـــى سلطة الإشراف على المكاتبات، ويبقى الإشراف على المكاتبات من حـــق الـــوزير حتى عصر الخليفة المنتصر حين قام بعزل أبي جعفر محمد بن جعفر المغربي عن الوزارة، وأفرد له ديوان الإنشاء فمنذ ذلك الوقت أصبح ديوان الإنشـــاء لـــه إدارة مميزة ذات رئيس مباشر يتبع تبعية عامة للوزير، وما برح ديوان الإنشاء قائما حتى عصر المماليك، وقد عرف هذا الديوان بأسماء مختلفة في عصر الفاطميين ، وأطلق عليه في أول الأمر اسم ديوان الرسائل، وكان يطلق عليه أحيانا ديوان المكاتبات.

وكانت من مهمة هذه الديوان إنشاء المكاتبات الصادرة باسم رئيس الدولـــة ، وتصديرها، وتسليم ما يرد إليه من شكاوي وكتب وعرضها عليه ، وتوجيه تعليقاتـــه عليها إلى الجهات المختصة، والعمل على تنظيم ذلك كله.

ولأهمية موظفي الديوان وصفهم ابن الصيرفي بأنهم رؤساء الدولة ، وكثيرا ما وجدنا وظيفة الكتابة تؤهل صاحبه للوزارة، ومما يدل على أهمية ديوان الإنشاء من خـــلال أن بعض الوزراء تولى ديوان الإنشاء بعد صرفه من الوزارة إذ لم يكن من المعتاد استخدام الوزراء بعد عزلهم.

وظلت تقاليد ديوان الإنشاء الفاطمي أصلا لما جد في العصر الأيوبي وعصر المماليك وربما يرجع الفضل في ذلك إلى القاضي الفاضل الذي خدم فـــي ديـــوان الإنشاء الفاطمي وتمرّس بأنظمته قبل أن يستولي صلاح الدين على مقاليد الحكـــم ، ويسند إليه رئاسة ديوان الإنشاء.

ولقد ظلت نظم ديوان الإنشاء الفاطمي وتقاليده معمـــولاً بهـــا فـــي عصـــر الأيوبيين فقد كان من سياسة صلاح الدين عدم المساس بنظم الفـــاطميين الإداريـــة ، فأبقى على ديوان الإنشاء بتقاليده وأنظمته والذي ساعد على استمرار تقاليد الإنشاء الفاطمي وعلو شأن هذا الديوان أن من تولى رئاسته -قبيـــل القضـــاء علـــى الدولـــة الفاطمية-. أديب فذ لعب أهم الأدوار في تاريخ الحركة الإدارية والأدبية في ذلـــك

العصر لأ وهو القاضي الفاضل . وقد بلغ من شدة إعجاب صلاح الــدين الأيــوبي بمكاتبات القاضي الفاضل أن كان يقول : (فتحت البلاد بكتابات القاضي الفاضل لا بالعساكر)، ولقد ذاع صيت رسائل القاضي الفاضل حتى أقبل الأدباء على اقتنائهــا وجمعها في مجلدات واتخاذها مثالاً يحتذونه ويستشهدون به . ولــم يقــف لجهــود القاضي الفاضل عند حد الإبقاء على تقاليد ديوان الإنشاء الفاطمي بل عمــل علــى الاستفادة من الأنظ العباسية التي دخلت مصر بحكم الظروف الجديــدة ، وربمــا رغب في العمل على التوفيق بين تقاليد الديوانين ، فقوى أو أ ضر الصداقة بينه وبين العماد الكاتب الذي خدم الدولة العباسية وسعى في التوسط له لدى صــلاح الــدين الأيوبي حتى عينه في الإشراف على ديوان الإنشاء بالشام.

المراجـــع

ابن الأثير، الجزري (637م/ 1239): 1996، **المثـل السـائر فـي أدب الكاتـب والشاعر**،تقديم روحي الفيصل : منشورات وزارة الثقافة في الجمهوريـة العربية السورية، دمشق.

ابن الأثير، الجزري (637م/ 1239): 1298هـ. **الوشي المرقوم في حل المنظوم**، مطبعة ثمرات الأوراق،.

ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمود الشيباني (ت630/ 1232): 1963/1387. **الكامل في التاريخ** ط2، دار الكتاب العربي، بيروت،

الأبار، أبو عبد الله محمد (1260/1199): (د.ت). **الحلة السيراء** تحقيق: حسـين مؤنس الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة.

إسماعيل باشا البغدادي ، **هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثارهم المصـنفين مـن كشف الظنون**: 1990م. دار الفكر، بيروت.

ابن أبي أصيبعه، أبو العباس أحمد بـن القاسـم بـن خليفـة موفـق الـدين (ت 667هـ/1270م): 1299**كتاب عيون الأنباء في أخبار الأطباء جزءان** ، القاهرة،

الألباني، محمد ناصر الدين : 1986م**صحيح الجامع الصغير وزيادتـه** ، المكتـب الإسلامي، بيروت.

أمين، أحمد: **ظهر الإسلام**. 1945. دار الكتاب العربي، بيروت، ط3.

أيوب، إبراهيم: 1997م. **التاريخ الفاطمي الاجتماعي**. ط1، الشركة العالمية للكتاب، لبنان،.

أيوب إبراهيم، 1997.**التاريخ الفاطمي السياسي** ، ط1، الشركة العالمية للكتـاب، لبنان،.

بدوي، أحمد أحمد : 1952. **الحياة الأدبية في عصر الحـروب الصـليبية بمصـر والشام**. مطبعة نهضة مصر، القاهرة.

بدوي، عبد الرحمن، 1977. **مذاهب الإسلاميين**، دار العلم للملايين، بيروت.

ابن بسام، **الذخيرة**، (د.ت). القسم الرابع، مكتبة جامعة القاهرة، ورقة، 183.

بكار، الزبير، 1381**جمهرة نسب قريش وأخبارها** ، تحقيـق : محمـود شـاكر، القاهرة.

البلاذري، أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر (ت892): (د.ت).**فتـوح البلـدان .** تحقيق: عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع، دار النشر للجـامعيين، بيروت.

تامر، عارف، 1978. **أربع رسائل إسـماعيلية**، منشـورات دار مكتبـة الحيـاة، بيروت.

ابن تغري بردي، جمال الدين بن يوسف (ت874/1469): **النجوم الزاهـرة فـي ملوك مصر والقاهرة**، نسخة مصورة من طبعـة دار الكتـب، القـاهرة، 1929، 16 جزءا.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر : **البيان والتبيين** تحقيـق : درويـش حويـدي، المكتبة العصرية، صيدا.

الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس : 1401هـ/1980. **كتـاب الـوزراء والكتاب**، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، ط2.

الجويني، مصطفى الصاوي : 1390/1970. **ملامـح الشخصـية المصـرية فـي الدراسات البيانية فيالقرن السابع الهجري** ، الهيئة العامة للتأليف والنشر، القاهرة .

ابن حجر، العسقلاني، أحمد بن علي، (ت852هـ/1448): 1966م. **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، تحقيقمحمد سيد جاد الحق، ط 2، دار الكتـب الحديثة، القاهرة.

حسن إبراهيم حسن، 1964. **تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسـورية وبلاد العرب.** مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

حسن إبراهيم وطه شرف، 1948م. **المعز لدين الله إمـام الشـيعة الإسـماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في مصر.** القاهرة.

حسن باشا، 1978. **الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار**. ط1، دار النهضة العربية، مصر.

حسين، محمد كامل، 1958. **طائفة الإسماعيلية**، مكتبة النهضة المصرية.

حسين، محمد كامل: 1963. **في أدب مصر الفاطمية**. القاهرة، دار الفكر العربي.

حمادة، محمد ماهر : 1980/1400. **الوثائق السياسية والإدارية للعهود الفاطمية والأتابكية والأيوبية دراسة ونصوص**. ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت.

الحنبلي، عبد الحي بن العماد : 1979. **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، دار الفكر، القاهرة.

الخالدي، بهاء الدين محمد بن لطف الله : (د.ت). **المقصد الرفيع المنشأ الهادي لديوان الإنشا**، مخطوط رقم 1027، مكتبة الجامعة الأردنية، عمان.

خضر، أحمد عطا الله : 1989. **الحياة الفكرية في مصر في العصر الفاطمي**. دار الفكر العربي، القاهرة.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون المغربي : 1420هـ/1999م. **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**. دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني.

الخطيب، محمد أحمد، 1989. **عقيدة الدروز**، عالم الكتب، الرياض، ط3.

الخطيب، محمد أحمد، 1984. **الحركات الباطنية في العالم الإسلامي**، مكتبة الأقصى، عمان.

الخميني، آية الله، 1988. **الحكومة الإسلامية** تقديم وتعليق : د. عمر الخطيب، دار عمار، عمان.

المقدمة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

ابن خلف، علي : 1982. **مواد البيان**. تحقيق: حسين عبد اللطيف، منشورات جامعة الفتح، طرابلس.

ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر الشافعي (ت681/1282): (د.ت) **وفيات الأعيان وأنباء الزمان**، تحقيق: حسان عباس، 7 أجزاء.

الدروبي، محمد محمود، 1990 **الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث** الهجري، دار الفكر، عمان.

الرازي، محمد بن أبي بكر عبد القادر (ت666هـ/1267). (د.ت). **مختار الصحاح**: مكتبة النوري، دمشق باب قلد.

الزركلي، خير الدين: (د.ت). **الأعلام**، (قاموس تراجم)، دار العلم للملايين، بيروت.

الزعبي، أحمد: 1995/1415. **التناص نظريا وتطبيقيا**، الكتابي، إربد.

السجستاني، أبو يعقوب إسحق، 1965. **الينابيع**، تحقيق: مصطفى غالب، بيروت.

سرور، محمد جمال الدين: 1965. **تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق**. القاهرة.

سليم، محمود رزق : 1965/1385م. **عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي**. مكتبة الآداب.

السيوطي، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن (ت911هـ/1505م): 1387هـ/1967. **حسن المحاضرةفي تاريخ مصر والقاهرة** . تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية.

الشافعي، محمد بن إدريس (150هـ- 204هـ): (د.ت). **الأم**. دار المعرفة، بيروت.

ابن شاكر ا لكتيبي، محمد بن شاكر بن أحمد الحلبي (1362/764): 1951. **فوات الوفيات** جزءان، بولاق سنة 1299هـ، القاهرة.

أبو شامة، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل (ت665هـ/1266): 1287هـ/1870. **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين**. القاهرة،

شكيل، هادية دجاني : 1993. **القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني، ودورالتخطيطي في دولة صلاح الدين وفتوحاته،** مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت.

الشيال، جمال الدين : 1422هـ/2002. **مجموعة الوثائق الفاطمية وثائق الخلافة وولاية العهد والوزارة**. مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

ابن أبي شيبة، الإمام الحافظ أبي بكر عبدالله بن محمد بن إبراهيم (159هـ/235هـ): (د.ت). **مصنف ابن أبي شيبة**، تقديم: سعد عبدالله آل

حميد، تحقيق: حمد بن عبدالله الجمعة ومحمد بن إبراهيم اللحيدان، مكتبة الرشيد، الرياض.

ابن شيث، عبد الرحيم بن علي بن شيث القرشي (ت 1062/652): 1988م. **كتاب معالم الكتابة ومغانم الإصابة**، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت.

صبحي، أحمد محمود، 1969. **نظرية الإمامة لدى الشيعة الاثني عشرية** ، دار المعارف، القاهرة.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت764هـ/1362): 1931. **الوافي بالوفيات**، الاستانة.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت764هـ/1362): 1994. **نكت الهميان في نكت العميان**. دار الطلائع، القاهرة.

الصولي، أبو بكر محمد بن يحي بن عبد الله (ت335هـ/946م): 1415هـ/1994. **أدب الكتاب** شرح وتعليق : أحمد حسن لبج، دار الكتب العلمية، بيروت.

ابن الصيرفي، علي أبو القاسم (ت542هـ/1147): 1924م. **الإشارة لمن نال الوزارة**، المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة.

قانون ديوان الرسائل،**الإشارة لمن نال الوزارة** . تحقيق: أيمن فؤاد سيد، الدار المصرية اللبنانية، 1990/1410، المقدمة.

ضيف، شوقي: 1965. **الفن ومذاهبه**، دار المعارف، مصر.

الظاهري، خليل بن شاهين (لاتا): 1894. **زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك**، اعتنى بتصحيحه: بولس رآويس، طبعة باريس.

عباس، إحسان: 1988. **عبد الحميد بن يحيى الكاتب**. دار الشروق.

عبد الباقي، محمد فؤاد : 1406هـ/1986**المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم** . دار الحديث، القاهرة.

عبد الحميد حسن، (د.ت). **صفحات من الأدب المصري من العصر الفاطمي إلى النهضة الحديثة.**

عريب، سعد: (د.ت).**صلة تاريخ الطبري** . منشورات مكتبة الخياط، بيــروت، (لا، تا).

ابن عساكر، أبي القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله بن عبد الله الشافعي (499هـ-571): 1995. **تاريخ مدينة دمشق**، تحقيق: محب الدين أبي سعيد عمــر بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت.

العقاد، محمود، (د.ت). **فاطمة الزهراء والفاطميون**، نهضة مصر، (د.ت).

العلاق، جعفر: 1997م **الشعر والتلقي (دراسات نقدية)**. دار الشروق،.

العماد الأصبهاني، 1952م.**قسم شعراء مصر** . تحقيق: أحمد أمين وزميله، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر خريدة القصر وجريدة العصــر، الخريـــدة ورقة 49.

عماره اليمني، 1897م**النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية** . طبع مدينـــة شالون.

العمري ابن فضل الله، شهاب الــدين أحمــد بــن يحــي (ت749هـــ/1348م): 1408هـ/1988. **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**. مكتبة الســليمانية، استانبول.

العمري ابن فضل الله، شهاب الــدين أحمــد بــن يحــي (ت749هـــ/1348م): 1413هـ- 1992م.**التعريف بالمصطلح الشريف** . تحقيــق: د. ســمير الدروبي، منشورات جامعة مؤتة.

غربال، محمد شفيق : (د.ت).**الموسوعة العربية الميسرة** دار الشعب ومؤ سســة فرنكلين، القاهرة.

الغزالي، أبو حامد (505هـ/ 1111): (د.ت)**فضائح الباطنية أو المســتظهري** . نشر جولد تسهير، (ليدن 1616).

أبو الفداء، إسماعيل بن علي عماد الدين صــاحب حمــاه (ت732هـــ/ 1331): (د.ت). **المختصر في أخبار النشر**. المطبعة الحسينية، القاهرة.

قبيت، غامستون: 1968.**القاهرة مدينة الفن والتجارة،** ترجمة: مصطفى العبادي نشر بالاتفاق مع المؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، مكتبة لبنان، بيروت، نيويورك.

ابن قتيبية، أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبية الكوفي (ت276/889م): 1963. **أدب الكاتب،** تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط4، المكتبة التجارية، مصر.

القرشي، إدريس عماد الدين (ت872هـ/1467م): (د.ت). **عيون الأخبار وفنون الآثار،** تحقيق: مصطفى غالب، ط2، دار الأندلس، بيروت.

القزويني، جلال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن (739/1338): 1991. **الإيضاح في علوم البلاغة** . قدم له وبوبه وشرحه: علي بو ملحم، ط2، دار ومكتبة الهلال، بيروت.

القزويني، محمد، الحافظ أبي عبدالله محمد بن يزيد (207-275هـ): 1987. **سنن ابن ماجة،** تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، بيروت، دار الكتب العلمية.

ابن القضاعي، محمد بن سلامة بن جعفر الشافعي (ت454/1062): 1995. **عيون المعارف وفنون أخبار الخلائق.** تحقيق: جميل عبد الله محمد المصري.

ابن القفطي، جمال الدين علي بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الوهاب (ت646هـ/1348): 1326م. **إخبار العلماء بأخبار الحكماء،** القاهرة.

ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة (555/1160): 1908. **تاريخ ابن القلانسي المسمى ذيل تاريخ دمشق،** تحقيق: أمسد وز (مطبعة الآباء اليسوعيين)، بيروت.

القلقشندي، أحمد بن علي (821هـ/1418): 1407- 1987م. **صبح الأعشى في صناعة الإنشا،** تحقيق: محمد حسين شمس الدن، دار الفكر، ودار الكتب العلمية.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت774هـ/1372): 1408هـ/1988. **البداية والنهاية،** تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي.

الكليني، محمد بن يعقوب بن إسحق، 1401هـ. **الأصول من الكافي** ، دار صعب، بيروت، ط4.

ابن المأمون، الأمير جمال الدين أبو علي موس بن المأمون البطائحي (ت 588هـ/1192): 1983م. **أخبار مصر** نصوص من، تـ حقيق: أيمن فؤاد سيد، القاهرة، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية.

المؤيد لدين الله، داعي الدعاة، 1949. **ديوان المؤيد**، تحقيق: محمد كامل حسين، دار الكاتب المصري.

ماجد، عبد المنعم: (د.ت). **السجلات المستنصرية**، دار الفكر العربي، القاهرة.

الماوردي، أبي الحسن علي بن محمد حبيب (ت 450هـ/1058): 1909. **الأحكام السلطانية والولايات الدينية**، القاهرة.

متز آدم، (1940-1941). **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري** ، ترجمة: محمد عبد الهادي ريده، جزءان- القاهرة.

محمود الحلبي، شهاب الدين محمود الحلبي (725هـ/1324): 1987، **حسن التوسل إلى صناعة الترسل**، تحقيق: أكرم عثمان يوسف، دار الرشيد للنشر، سلسلة كتب التراث (86)، العراق، وزارة الثقافة والإعلام.

المديني، أحمد: 1989. **في أصول الخطاب النقدي الجديد** ، دار الشؤون الثقافية، ط2، بغداد.

مصطفى إبراهيم وآخرون، (د.ت). **المعجم الوسيط**، مجمع اللغة العربية، القاهرة.

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، (ت843هـ/1439): (د.ت). **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**. تحقيق: محمد زينهم، ومديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي.

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، (ت843هـ/1439): 1971، **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**، تحقيق: الجزء الأول الشيال، القاهرة، 1967، والجزء الثاني، محمد حلمي محمد، القاهرة.

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، (ت843هـ/1439): 1957م. **إغاثة الأمة بكشف الغمة**، نشر: زيادة والشبال، ط2، القاهرة.

ابن مماتي، شرف الدين أبـــي المكـــارم (ت606هـــــ/1209): 1943م **قـــوانين الدواوين**، جمع وتحقيق: عزيز سوريا عطية، مطبعة مصر.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت711هـــــ/1311). 1994. **لسان العرب**، ط3، دار صادر، بيروت.

ابن ميسر، تاج الدين محمد بن علي بن يوسف بن حلب راغب (ت677هـــ/1278):

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، (ت843هـــ/1439): **المنتقـــى مـــن أخبار مصر**. تحقيق: أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمـــي الفرنســـي بمصـــر، القاهرة.

النعمان بن محمد، 1987. **المجالس والمسايرات**، تحقيق: الحبيب الفقـــي، تـــونس، الجامعة التونسية.

النووي، محي الدين بن شرف : (د.ت)**تهذيب الأســـماء والصـــفات**، دار الكتـــب العلمية، بيروت.

ابن هانيء الأندلسيّ، 1326هـــ. **ديوان ابن هانئ**، بيروت.

أبو الهلال العسكري، (د.ت). **كتاب الصناعتين**، تحقيق: علـــي محمـــد البجـــاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة.

ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم، 1953، 1957. **مفرج الكروب في أخبـــار بني أيوب**. نشرة، جمال الدين الشيال، ج1، القاهرة، ، ج2، القاهرة،.

ياقوت الحموي، شهاب الدين: 1936-1938. **معجم الأدباء**، القاهرة، الحلبي.

ياقوت الحموي، شهاب الدين : 1936-1938. (د. ت). **معجم البلدان**، تحقيق: فريد عبد العزيز الحبذي، دار الكتب العلمية، بيروت.